

# افقاری یا بلادی



شاری عبد السلام

قزاء یا  
فحسین

قزاء یا  
فحسین

~~قزاء یا  
فحسین~~

هو یکتب مش هنفرا

اقرئي يا بلادي

الجزء الأول

قُرَاء يا مُحسنين

اسم الكتاب: أقرني يا بلادي -  
الجزء الأول: قراء يا محسنين  
الطبعة الأولى: مايو 2013  
الطبعة الثانية: سبتمبر 2013  
الطبعة الثالثة: يوليو 2014  
اسم المؤلف: شادي عبد السلام  
رقم الإيداع: 2013/9099  
تصميم الغلاف: أحمد الرفاعي  
الإخراج الداخلي: وائل عبد المجيد  
المطبعة: وكالة آيات للإعلان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

بريد إلكتروني: shady\_salam@yahoo.com

صفحة الفيسبوك: Shady Abdel Salam – Egyptian writer

صفحة جودريذ:

<https://www.goodreads.com/author/show/3487325>

# اقرئي يا بلادي

الجزء الأول

قُرَّاء يا مُحسنين

شادي عبد السلام



## إهداء

ليس هذا الإهداء من باب الاستهانة بالبشر... ولكن من باب الامتنان لَرَبِّ البشر.

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيِّضٌ \* وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ  
ضِدَّانَ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا \* وَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ

ومثلما تتميّز المرأة البيضاء ذات الشعر الأسود بجمالٍ أخاذٍ ناتج عن اجتماع الضدّين، فإنّ الطبيعة التي خلقها الله تتمتع بهذه الرّوعة وذلك الإتقان، عندما تتسجم مخلوقاته بتباينها، فلا تتنافر بل تتكامل، مُعلّنة عن لوحة بالغة البهاء والرّهاء.

ولأنه من غير الوارد أن أقوم بإهداء هذا الكتاب إلى خالق الكون، لضحالة شأن الهدية والمُهدي، ولأن الله الذي ليس كمثلته شيء، لا يُهدى إليه، وهو المُنعم علينا بحياتنا وما فيها... لذا، كان القرار بتوجيه إهداء الكتاب إلى مخلوقات الله تعالى، تلك الكائنات الأدنى التي زاملتُنَا في رحلة الحياة، فأعطت لها نكهة خاصة، ودلّتُنَا على تميّزنا؛ كي نسجد لله حمدًا على نعمة العقل.

هذا التناقض الصريح بين الإنسان وبين المخلوقات الأقل شأنًا، يجعلنا نشعر بالفخر، لأن الله خلقنا نسطر تاريخًا للبشرية، ليس له ما يُناظره في عالم الحيوان والطيور والأسماك... فالكلب الذي ينبح

في شوارع مُدُننا، لا يختلف في شيءٍ عن كلب أهل الكهف الذي عاش من آلاف السنين. والغراب الذي ينعق فوق أسطح بيوتنا، لا جديد لديه يمتاز عن غراب قابيل الذي علمه دفن الميت. والبقرة التي ذبحها قوم موسى، كأبقار سائر الأقوام وإن تميّزت لحكمةٍ بعينها... للإنسان تاريخ وجغرافيا، وللحيوان جغرافيا بلا تاريخ.

أهدي كتابي الواقع في ثلاثة أجزاء، وهذا أولها، إلى الحيوانات التي تذكّرنا بفضل الله علينا... أهديه إلى الفيل الذي نهب عاجه، ونتركه يموت مُتألِّمًا. أهديه إلى الذبّ الذي نقتله، ونستدفي بفروه وتزيّن. أهديه إلى الحمار الذي أشبعناه سخريةً وضربًا وإهانةً. أهديه إلى القطة التي نكرّها بالعصا، إن فتشت في زبالتنا. أهديه إلى النملة التي نفعصها؛ كي لا تشاركنا طعامنا. أهديه إلى سمكة الزينة التي نحبسها في حوض؛ لنتمنّع نواظرنّا. أهديه إلى العنزة التي نحلب لبنها ونأكل لحمها ونأخذ جلودها حقائبَ ومعاطف. أهديه إلى الكلب البلدي الذي يزعجنا نباحه، فتأتي عربة البلدية لصيده وقتله. أهديه إلى الحوت الذي نصنع من عنبره العطور، ومن زيوت كبده الدواء. أهديه إلى الضفدع التي نسمئُ من هيئته، ونستخدمه في علم التشريح... أهديه إلى كلّ الحيوانات التي لا تعتدي على بني جنسها، ولا تهاجم غيرها إلا كي تأكل ما يكفل لها البقاء... أهديه إلى الكائنات التي لم يُصنّبها التطور بأمر الله، لأنّ الأمر قد صدّر للإنسان أن ينظر ويدرك ويعقل، ويتفكّر

ويتدبّر ويتفكّر... فإن تَخَلَّى الإنسان عن نعمة القراءة، وإن شَغَلَ بصره في غيرها، وإن أنفق وقته فيما لا يفيدُه ودُرَيْتَه، وإن انصرف عن النافع بالضارِّ، فإنه سيفقد بذلك البَعْدَ الرابع لهذا الكَوْن وهو الزمن، وتصير حياته ثلاثية الأبعاد، يقضيها طولاً وعرضاً وارتفاعاً، ويخسر العمق الزمني لحياته، فيعيش تُحَرِّكُه غرائزه، ويموت بلا أثر.

التاريخ يكتبه الأقوياء. والأقوياء هم العقلاء. والعقلاء هم العلماء. والعلماء هم الذين يخشون الله، وهم الذين يحمّدونه على آلائه بحُسنِ استعمالها، وبالحفاظ على جمال صورة الكَوْن، بالنقاء الضدّيّين على بسيطته... فإن ضاقت الفوارق بين الإنسان والحيوان إلى أسفل، لتنشوّه وجه الكَوْن!

خَلَقَ اللهُ عباده من كُلِّ نوع وعلى كُلِّ هيئة، كي يسبحوه بكرةً وأصيلاً. يسبح الطير في سمانه، والسمك في بحاره، والحيوان في غاباته. ثم ميّزَ اللهُ الإنسان، فلم يُفصِرْ تسبيحه على النَمْتَمَةِ... "لَقَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" ... هكذا يكون تسبيح مَنْ حَمَلَ الْأَمَانَةَ!

## فضيلة الفضول (1)

لَيْسَتْ لَدَيَّ مَوَاهِبٌ خَاصَّةٌ. إِنِّي فَضُولِي بِشَعْفٍ فَحَسْبُ.

ألبرت أينشتاين

- نتميّزُ بالعقول
- وفضيلة الفضول
- عن ماشية الحقول
- أو هكذا نقول!!

بَيْنَتَانِ مِنَ السَّجْعِ دَوَّنْتُهُمَا فِي مُذَكِّرَاتِي قَبْلَ عَشْرِينَ عَامًا... وَلَا زِلْتُ أَوْمِنُ أَنَّ فَضِيلَةَ الْفُضُولِ الْإِجَابِي هِيَ أَعْظَمُ مَنَاقِبِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ أَسْئَلَةً مِنْ عَيْتَةِ لِمَاذَا وَكَيْفِ، قَدْ ارْتَقَتْ بِحَضَارَةِ الْبَشَرِ آلَافَ الدَّرَجَاتِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا حُبُّ الْاسْتِطْلَاعِ الَّذِي فَطَرْنَا اللهُ عَلَيْهِ، لَطَلَّ الْإِنْسَانُ مَعَ حَيَوَانَاتِهِ فِي الْغَابَةِ! وَلَنُرْصِدُ كَيْفَ بَدَأَ التَّطَوُّرَ الْبَشَرِي عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ الْعَجُوزِ.

امْتَنَانًا لِذَلِكَ الَّذِي كَانَ أَوَّلَ مَنْ فَكَّرَ أَنْ يَضْرِبَ بِحَجَرٍ عَلَى حَجَرٍ؛ كَيْ يَعْيدَ تَشْكِيلَهُمَا وَتَدْبِيهِهُمَا؛ لِيَصِيرَا أَكْثَرَ نَفْعًا فِي الْاسْتِخْدَامِ الْيَوْمِي. رُبَّمَا فَعَلَهَا جَدُّنَا هَذَا مِنْذُ نَحْوِ 3 مِلْيُونِ سَنَةٍ!

إِعْجَابِنَا بِذَلِكَ الَّذِي كَانَ أَوَّلَ مَنْ فَكَّرَ أَنْ يَضْرِبَ بِالْحَجَرِ نَفْسَهُ عَلَى قِطْعَةٍ خَشَبٍ مَكْسُورَةٍ مِنْ فَرْعِ شَجَرَةٍ، أَوْ عَلَى عِظْمَةِ حَيَوَانٍ نَافِقٍ، وَيَحْوِلُهُمَا إِلَى أَدْوَاتٍ قِتَالٍ أَوْ صَيْدٍ وَلَهُ فِيهِمَا مَآرِبٌ أُخْرَى. رُبَّمَا فَعَلَهَا جَدُّنَا هَذَا مِنْذُ نَحْوِ 2 مِلْيُونِ سَنَةٍ!

تقديرنا لذلك الذي كان أوَّل مَنْ فكَّر في تطوير استخدام الحجر  
إيَّاه أو الخشبة ذاتها؛ لتوليد شرارة نيران للتدفئة وطهي الطعام  
والحماية من الحيوانات المفترسة، بدلاً من انتظار صاعقة تنزل  
بحرائقها من السماء. ربما فعلها جدُّنا هذا منذ نحو مليون سنة!

تحياتنا لذلك الذي كان أوَّل مَنْ فكَّر في النقش على الحجر  
نفسه إشباعاً لهواية الرسم أو تدويناً للتاريخ. ربما فعلها جدُّنا هذا  
منذ نحو نصف مليون سنة!

تصفيقتنا لهؤلاء الذين كانوا أوَّل مَنْ فكَّروا في التمثيل الرمزي  
للأرقام بقطع صلصالية أو بواقٍ خشبية؛ كي نتعلَّم الحساب والعدِّ،  
والذين فكَّروا في الحفر بالأدوات الحادَّة على الطين والحجر؛ كي  
نتعلَّم القراءة والكتابة، والذين فكَّروا في استعمال المعادن بدءاً  
بالذهب والنحاس ومروراً بالفضَّة والرصاص، وانتهاءً بالحديد  
والقصدير؛ كي نتعلَّم الصناعة. ربما فعلها أجدادنا هؤلاء قبل عدَّة  
آلاف من الأعوام!

هؤلاء هم المجهولون الذين سخرهم الله لتحريك عجلة التاريخ  
في الاتجاه العاقل الذي لا نشعر بقيمته اليوم، لأننا نعوِّدنا على  
ظهور مجاهيل ومشاهير يُيسِّرون علينا الحياة دون عناء أو تفكير،  
طالما أنَّ هناك دوماً مَنْ يفعلها بالنبابة!

-----

عندما قُضِيَ الأمر وانتقلتُ بزوجتي إلى مُستشفى الولادة في عصر 4 يناير 2003، كُنْتُ سعيدًا للغاية بذلك التاريخ، مُتمنيًا أن تضع زوجتي مولودنا الأول في اليوم نفسه. فتاريخ 4 يناير يوافق ذكرى ميلاد إسحق نيوتن أعظم علماء العصور الوُسطى. ومن الغريب أنَّ له تاريخين للميلاد يعرفه العالم بهما، وتختلف الموسوعات بشأنهما. أحدهما 4 يناير 1643، والآخر 25 ديسمبر 1642. ولا ينتبه مُعظم المُهتمين بالتاريخ إلى أنَّ هذا الفارق إنما يعود إلى تسجيله مرّةً بالتقويم اليولياني نسبةً إلى يوليوس قيصر والمُشتقِّ من التقويم الفرعوني، وأخرى بالتقويم الجريجوري نسبةً إلى البابا جريجور الـ 13 المُعتمد للتصحیح الذي أتى به عالم الفلك الإيطالي ألويسيوس ليلْيوس، بعد اكتشاف خطأ حسابي يصل إلى 11 دقيقة سنويًا. وهو ما أدّى إلى اختصار عشرة أيام دُفعةً واحدةً من التقويم. وكان ذلك قبل ميلاد نيوتن بـ 60 عامًا. لذا تضارب تاريخ مؤلده بفارق زمني عشرة أيام تبعًا لنوع التقويم المُستخدَم!

وعندما كبر ابني بعض الشيء، قَصَصْتُ عليه حكاية نيوتن وتفاحته الشهيرة. وطالبتُه أن يتأمَّل تمثُّل الشاب الصغير إسحق الذي سقطت فوق رأسه تفاحة قبل أن يتِمَّ عامه الثالث والعشرين. فدفعه فضوله للتساؤل عن سبب هبوطها إلى أسفل وحساب سرعة النزول. وهذاه تفكيره إلى ما يُسمَّى بالجاذبية الأرضية واضعًا

قوانينها. بينما سقطت بنات أعمام هذه التفاحة على ملايين غيره تحت آلاف الأشجار عبر مئات الأعوام، فلم يهدهم تفكيرهم سوى إلى غسْلِها وأكلها، وربما التهامها دون غسيل!

لم أشأ أن أفسد على ابني خياله وانهاره بتفاحة نيوتن الحمراء، لكنني على استعداد للعننة على القارئ عندما أخبره بكلّ أسى أن قصة تفاحة نيوتن على الأزجح من صنْع الوهم البشري!... ف نيوتن نفسه لم يروِ هذه الواقعة في أيّ مقال له رغم أنه عاش بعد الواقعة المزعومة 52 سنة! ومُعاصِروه ممّن دَوّنوا سيرته لم يتعرّضوا لها قط! ويعود انتشار الحكاية إلى اثنين: الكاتب الإنجليزي ستوكلي الذي ذكرها في كتاب ألفه عن نيوتن بعد وفاته بـ 27 سنة، لكنه لم يُنشر إلا في 1936. والفيلسوف الفرنسي فولتير الذي رواها في كتابه "مبادئ فلسفة نيوتن مُرَجِّعًا إيّاها إلى امرأة عجوز من أقارب نيوتن من بعيد. ولعل فولتير هو السبب الرئيسي في رواج قصة التفاحة لانتِشاع شهرته وبراعة أدبه.

وأيا ما كانت صِحّة الواقعة، فسوف أقصّها على ابنتي مها، كما قصصْتُها من قبل على ابني أحمد. ففضيلة الفضول الإيجابي مفتاح الحضارات والمدخل الذهبي إلى عالم أفضل.

## قاف قاف! (1)

قائد قارئ، قارئ قائد.

من زاوية تاريخية غير مطروقة، سنجد أن أمرًا مُشترَكًا قد جَمَعَ  
المقدوني على العربي على العثماني على الفرنسي!<sup>1</sup>

\*\*\*\*\*

سقراط هو مُعَلِّم أفلاطون. أفلاطون هو مُعَلِّم أرسطو. أرسطو  
هو مُعَلِّم الإسكندر! وعن أرسطو الذي دَرَسَ له ثمانية أعوام، كان  
الإسكندر يقول: "إنني أدين بالحياة لأبي، لكنني مدين بالحياة  
الكريمة لمُعَلِّمي

وكان يعاون أباه فيليب ملك مقدونيا في معاركه الحربية ببراعة  
بأدية للجميع. ويُرَوَى عنه أنه قال في صباه بعد انتصار ما لوالده:  
"إذا ظلَّ أبي يكسب مزيدًا من المعارك، فلن يتبقى لي بلاد  
أفتحها". بينما تنبأ له والده ذات يوم بالمستقبل الكبير قائلاً: "أي  
بني، إنَّ مقدونيا لا تتسع لك. فابحثْ لنفسك عن إمبراطورية أوسع  
منها وأجدر بك". وقد تمكَّن بالفعل في تسع سنوات فحَسَب من  
احتلال نصف العالم المأهول آنذاك، قبل أن يموت بالحمى عن  
عُمُرٍ ناهز الـ 33 عامًا بالعراق.

---

<sup>1</sup> انظر بقية فصول الكتاب تحت عنوان: قاف قاف!



ويؤكد الباحثون في تاريخ الإسكندر أن أرسطو هو من غرس في عقل تلميذه الشاب الحماسة للوحدة اليونانية، والتحول من مبدأ "دويلات المدن كإسبرطة وأثينا وكورينثيا وأوليمبيا أو ما يُعرّف بالـ Polis، إلى مفهوم "الدولة الإمبراطورية" عبر الفتوحات العسكرية. وهو ما فعله الإسكندر بتوحيد بلاد اليونان كلها في أقل من عامين ما عدا إسبرطة... واشتهر الإسكندر خلال غزواته بأنه كان يحتفظ بنسخة من الإلياذة عليها شروح بقلم أرسطو. فكان يقضي وقته في خيمته أثناء الراحة، إما قارئاً في كتابه، وإما مجتمعاً بجنوده. وكان يحفظ من أسماء جنوده نحو عشرة آلاف. ولم يُعرّف عنه قط إقباله على المخطّيات والجواري. وكان من نوادر الملوك الذين يتباهون بالتفوق على أقرانهم في العلوم والمعارف، لا باتّساع مُلكهم وعظمة سُلطانهم وكثرة نساءهم! وتتوّعت مجالات اهتمامه، حتى أنه درس مبادئ الطب. وكان يشرف على علاج جنوده المُصابين بنفسه! وكان حريصاً على أن يرافق الجيش في معاركه عدداً من الفلاسفة والعلماء والمؤرّخين؛ ليتيح لهم الفرصة للتعرف على البلاد المفتوحة؛ وليمنح نفسه فرصة الاستفادة من زادهم المُتجدد. وكان يقول عن نفسه: "لو لم أكنُ الإسكندر، لكنُْتُ ديوجين". وديوجين هذا هو أحد أعظم فلاسفة الإغريق في زمن الإسكندر... ولأننا لسنا بصدد التباهي ببطولات الإسكندر الحربية،

ولأننا نكتب عن الفيلسوف الطبيب المُتَّفَق الإسكندر المقدوني،  
فلا يسغنا سوى أن نختم المقال بما ينبغي أن نختم به!

كان الإسكندر كثيرًا ما يسرح ببصره، ويلقي على مسامح جنوده  
بعض الحكم، وخلاصة ما تعلم من فلسفة ومنطق. وكان زاهدًا في  
الدنيا رغم كَلِّ المجد الذي ناله فيها. وكان يردّد حكّمته الأثيرة  
قائلًا: "إنَّ قَبْرًا يكفيه، ذلك الذي لم يَكُنْ العالم بأسره يكفيه"!!...  
وعندما أصيب بحُمى قاتلة، وفَطَنَ أَنَّ أَجَلَهُ قد دَنَا، وأنها مسألة  
أيام أو ساعات، قرّر أن يترك للتاريخ وصيّة رائعة تتناسب مع  
سليل علوم أكبر فلاسفة الإغريق. فقام بجمّع حاشيته، والمقرّبين  
من جنوده، وقوّاده في بابل حيث يعسكر جيشه، وتلا عليهم  
وصيّته كالآتي: "إنني مُغادِرٌ دُنْيَاكُمْ بين عشيّة وضُحاها. ولي  
ثلاث أمنيات أرجو أن تعملوا على تحقيقها لي من دون تقصير،  
وبكُلِّ أمانة تقتضيها طول العِشْرَةِ وحُسْنِ الصُّحْبَةِ. فأمّا وصيَّتي  
الأولى، فأن لا يحمل نعشي في الطريق للمدافن إلاّ أطبائي ولا  
أحد غير أطبائي. وأمّا وصيَّتي الثانية، فأن يُنْتَرَّ على الطريق من  
مَوْضِعِ مَوْتِي وحتىّ مَثْوَاي الأَخِيرِ قِطْعَ الذهب والفضّة والأحجار  
الكريمة التي تَسْتَوِي لي جمعها والاحتفاظ بها طيلة حياتي. وأمّا  
وصيَّتي الثالثة والأخيرة، فأن تُخْرَجُوا يَدَاي من كَفْنِي وقت رُفْعِي  
على نعشي، وأن تُبْقَوْهَا مُعَلَّقَتَيْنِ للخارج وهما مفتوحتان!"

ولمَّا فَرَعَ الإسكندر من تلاوة وصيَّته، هَبَّ كبير فُؤاده فاقترَب من مليكه المُحتَضِر، وَقَبَّل يديه في تَأَثُّر، ثم قال: "وصاياك أوامر مثلما كانت تعليماتك في الحروب. ولكن هَلَّا تخبرنا سيدي عن المقصود بها؟" استجمع الإسكندر قواه المُنهَكة، ثم قال في هدوء مُثِير: "إنما أَرَدْتُ أن أعطي العالم من بعدي درسا لم أَسْتَوْعِبُه إِلَّا في نهاية الأجل. فأما الوصيَّة الأولى، فأَرَدْتُ أن يفظن الناس أنَّ الموت إذا حضر، لم يَحُلْ دون نفاذه على رقاب الناس كُلِّ أطباء الدنيا الذين نفع إِيهم إنَّ أصابنا مكروه. فالعُمُرُ ثروة لا يمنحها بَشَرٌ ولا يمنعها. وأما الثانية، فأَرَدْتُ أن يدرك الناس أن كُلَّ لحظة أضعناها في كنز المال لا تساوي شيئًا. فلن نأخذ معنا في قبورنا دَهَبًا ولا فِضَّة. وأما الأخيرة، فأَرَدْتُ أن يعي الناس أننا ندخل هذه الدنيا فارغي الأيدي. وأنا سنخرج منها كما دخلناها!"

ولمَّا حضرته الوفاة، كتب إلى أمِّه: "اصنعي طعامًا للناس، ثم تقدِّمي إِيهم به بشرط ألا يأكل منه محزون ففعلت. فلم يبسط إِيه أحد يده. فسألتهم: "ما لكم لا تأكلون؟" قالوا: "إنك قد اشتربتِ علينا، وليس منَّا إلا مَنْ قد أصيب في حميم أو قريب". فقالت أمُّه: "مات ابني وما أوصى إليَّ بهذا، إلا ليعزِّيني فيه!"

لو لم يَكُنْ الإسكندر المُحَارِب، لكان ديوجين الفيلسوف، ولرَبَّمَا فاقه!

## حلوة يا بلدي (1)

ألم تتدهش قط، أثناء سفرك بطريق الإسكندرية الزراعي، قارئاً لافتات من عينة سنديون، قها، طوخ، طنبشا، دمنهور، طحانوب، بسيون؟ أو سفرك بطريق الصعيد، مروراً بأسماء مثل أرمنت، سمالوط، طهنشا، إخميم، دشنا، إدفو، أبنود؟ ألم تتساءل قط، كيف تضمُّ مصر مئات المُدن وآلاف القرى، حاملة أسماء لا تَمُتُ بصِلَة للعربية التي نتحدَّثها منذ 1300 سنة؟ ألم تستغرب أن تَمَّة علاقة لا تربط الأسماء في الأغلب الأعمَّ بمن استقروا ببلادنا من فُرس وإغريق وبطالمة ورومان وعرب وأتراك وفرنسيين وإنجليز؟<sup>2</sup>

نبدأ بأهمَّ الدنيا مصر. نجمعها أمصار. إذا لها أصل عربي مُشتقُّ من جذر سامٍ بمعنى البلد أو البسيطة المُمتدَّة أو الحصينة المكنونة. وقيل مُشتق من مصرايم بن حام بن نوح، الجد الذي ينحدر منه شعب مصر حسب سِفْرِ التكوين التوراتي. وقيل مشتق من كلمات مصرية قديمة: "ما" موضع، "سي أبناء، "رع" الشمس. وقيل مشتق من مسرى، شهر قبلي موازٍ لموسم الفيضان، فسُمِّيَتْ مصر نسبة إلى النيل وقيضانه... وبخلاف مكة المُكرَّمة لم يذكر الله في كتابه بلداً بعينه سوى مصر المذكورة خمس مرَّات، في

---

تعرّف على حكايات أسماء المحافظات والمدن المصرية في سلسلة من الفصول تحمل العنوان نفسه حلوة يا بلدي .

مَوْضِعَيْنِ مِنْهَا عَلَى هَيْئَةِ مَدِيحٍ. وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْرِمَ نِسَاءَ مِصْرَ بِشَكْلِ لَمْ يَنْتَهُ الرِّجَالُ! فَ مَارِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَآخِرُ أَوْلَادِهِ. وَهَاجَرَ الْمِصْرِيَّةُ أُمُّ إِسْمَاعِيلِ أَبُو الْعَرَبِ، وَعَمُّ إِسْرَائِيلَ. فَالْمِصْرِيُّونَ أَعْمَامُ الْيَهُودِ وَأَبَاءُ الْعَرَبِ!

وَإِنْ قَلْبُنَا فِي صَفْحَاتِ مِصْرَ، فَسَنَجِدُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ يُطْمِئِنُّ وَإِفْدًا إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ عَنْ حَالِهَا بِقَوْلِهِ: "مِصْرَ أَطْيَبُ الْأَرْضِينَ تَرَابًا، وَأَبْعَدُهُمْ خَرَابًا، لَنْ تَزَالَ فِيهَا بَرَكَةٌ، مَا دَامَ فِي الْأَرْضِ إِنْسَانٌ!" بَيْنَمَا وَصَفَهَا ابْنُ الْعَاصِ ذَاتَهُ: "أَرْضُهَا ذَهَبٌ، وَنَيْلُهَا عَجَبٌ، وَخَيْرُهَا جَلْبٌ!" كَمَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَبِّهِ الْفَرْدُوسِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مِصْرَ حِينَ يَحْضُرُ زَرْعُهَا وَيُزْهِرُ رَبِيعُهَا"... وَفِي رِسَالَةٍ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ إِلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ يَصِفُ فِيهَا حَالَ مِصْرَ، وَيُمْكِنُ تَأْوِيلَ مَعَانِيهَا عَلَى أَوْجُهٍ مُخْتَلِفَةٍ، يَقُولُ: "مِصْرَ خِزَانَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي يَحْمِلُ عَلَيْهَا حَمْلَ مَوْنَةِ ثُغُورِهِ وَأَطْرَافِهِ، وَيَقْوَتْ بِهَا عَامَّةُ جُنْدِهِ وَرِعِيَّتِهِ، مَعَ اتِّصَالِهَا بِالْمَغْرِبِ وَمَجَاوِرَتِهَا أَجْنَادَ الشَّامِ وَبَقِيَّةَ مِنْ بَقَايَا الْعَرَبِ، وَمَجْمَعُ النَّاسِ فِيمَا يُجْمَعُ مِنْ ضُرُوبِ الْمَنَافِعِ وَالصَّنَاعَاتِ. فَلَيْسَ أَمْرُهَا بِالصَّغِيرِ، وَلَا فَسَادُهَا بِالْهَيْئِ، وَلَا مَا يُلْتَمَسُ بِهِ صِلَاحُهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي يَصِيرُ لَهُ عَلَى الْمَشَقَّةِ وَيَأْتِي بِالرَّفْقِ!"... وَعَنْ مِصْرَ يَقُولُ الْجَاحِظُ: "مَنْ عَيُوبَ مِصْرَ أَنَّ الْمَطَرَ مَكْرُوهٌ بِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحْمَتِهِ"، يعني المطر. وهم لرحمة الله كارهون، وهو لهم غير موافق. ولا تزكو عليه زروعهم، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

يقولون مِصْرَ أَخْصَبُ الْأَرْضِ كُلِّهَا  
فَقُلْتُ لَهُمْ بَغْدَادٌ أَخْصَبُ مِنْ مِصْرَ  
وَمَا خَصَبُ قَوْمٍ تَجْدِبُ الْأَرْضَ عِنْدَهُمْ  
يَمَا فِيهِ خَصَبُ الْعَالَمِينَ مِنَ الْقَطْرِ  
إِذَا بُشِّرُوا بِالْعَيْثِ رِيَعَتْ قُلُوبُهُمْ  
كَمَا رِيَعَ فِي الظُّلْمَاءِ سِرْبُ القَطَا الكُدْرِ

ورغم الذمّ البيادي على ذلك الوصف<sup>3</sup>، إلا أنه يمكننا بقدر من المرونة أن نلتصق الأعداء. وتنسب تلك الكراهية للمطر للمصريين المعاصرين، لما يُحدثه في شوارعهم من بركٍ وطين وقاذورات، وإيقاف للمرور بالساعات، لعيوب الإسفلت وغياب البالوعات، وفساد نهم موظفي الأحياء والمخليات! وإن كان الجاحظ بروحه المرحّة قد تخيّر أبياتاً من الشعر لعراقي يزهو ببغداده على حساب مصرنا، فقد ردّ عليه شاعر سوري في إيجاز بليغ قائلاً:

دِيَارُ مِصْرَ هِيَ الدُّنْيَا وَسَاكِنُهَا \* هُمُ الْآنَامُ فَقَابِلُهَا بِتَفْضِيلِ  
يَا مَنْ يُبَاهِي بِبَغْدَادَ وَدَجَلَتِهَا \* مِصْرُ مُقَدِّمَةٌ وَالشَّرْحُ لِلنَّيْلِ

<sup>3</sup> نزع من هطول المطر، كما نزع أسراب القطا من الظلام. والقطا جمع قطة وهو صنف من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، وإن كان دائم البحث عن الماء. والقطا الكُدري هو نوع ذو بطن أسود.

كما يمدح مصر شاعر فارسي يُقال له كُشاجم في عصر  
سيف الدولة الحَمَداني على النحو التالي:

أما نَرَى مِصرَ كَيْفَ قَدْ جَمَعَتْ      بِهَا صُنُوفِ الرِّياحِ فِي مَجْلِسِ  
السُّوسُنُ العَضُّ، وَالْبَنْفَسِجُ وَالِد \*      وَرُزْدُ وَصَنَفُ البَهارِ وَالنَّرْجِسِ  
كَأَنَّهَا الجِنَّةُ الَّتِي جَمَعَتْ \*      ما تَشْتَهِيهِ العُيُونُ وَالأنْفُسُ  
كَأَنَّما الأَرْضُ أُلْبِسَتْ حُلًّا      مِنْ فَاخِرِ العَبْقَرِيِّ وَالسُّنْدُسِ  
وعلى عكس شاعر الجاحظ، فشاعرنا هذا زار مصر وقت  
زهائها واخضرارها، لا زمن ذبولها واصفرارها.

حَرَجْنَا مِنَ التَّعْرِيفِ بِاسْمِ مِصرَ، إِلى وَصْفِها بِالكَلِماتِ  
الموسيقية، مَدْحًا وَقَدْحًا. ونختمُ مع شاعر فرنسا الكبير فيكتور  
هوجو، الذي بدأ حياته الأدبية بديوان شعر بعنوان "أغانٍ وقصائد  
مُختلفة"، واستهله بقصيدة يقول فيها: "مصر أيتها الشقراء الفاتية.  
ما أجمل سنابل قمحك الذهبية، وحقولك البهيّة الممتدّة كالوسائد  
الثمينة، سهل تلو سهل. يقتتل عليك من الشمال بردّ قارس، ومن  
الجنوب رملٌ جائزٌ ساخن. وكلّما اقتربنا نحوك وأحكّما أضراسهما  
ليؤلّماك. ابتسمتِ يا مصر الشقراء!... فهل تعودين يا مصر؟  
بشمسك الذهب، وشعرك الذهب، وقمحك الذهب، بعدما ذهب  
الذهب... مع ذلك الذي ذهب؟؟

## لا للإحباط (1)

كي تتجج، لا بُدَّ أن تفشل أولاً، كارتواءٍ بعد عطش، وشبع بعد جوع. فلولا الجوعُ والعطشُ، ما كان للشبع معنى أو للارتواء قيمة!

ذات ليلة، مرضتُ والدته مَرَضًا خطيرًا. وبعد الكشف، تأكَّد وجوب إجراء جراحة عاجلة لها. وحال دخول الليل وغياب الضوء دون ذلك، فأزجئت للصباح. مرَّت الساعات ثقلاً عليه حتى طلع النهار. لم تغفل عيناه لحظة عن أمِّه خوفاً من فقدها. ولم يتوقَّف عقله عن التفكير في شأن الظلام وكيفية التغلُّب على مساوئه!

كان توماس إديسون طفلاً فضولياً. لكن الفضول لم يشفع له، فتعرَّض للنقد من أساتذته، بل ونعته أبوه بالغباء. وكان ضعيف الذاكرة ينسى ما يتعلَّمه، ولم يقضِ في المدرسة سوى ثلاثة أشهر متقطعة. ولم تتعاطف معه سوى أمِّه التي تولَّت رعايته، ونجحت في جعله قارئاً نهماً... خرج توماس من سنوات دراسته ومحنة مرض أمِّه أكثر إصراراً على تركِ بصمة في دنيا لا تعترف بنبوغه. بدأت إصابته بالصَّمَم في سنِّ 12، وعن ذلك يقول: "كُنْتُ أشتغل ببيع الجرائد في القطار، فكان العمَّال يحملونني من أدنى عند العجلة، فأصببتُ بصمِّ خفيفٍ، ثم تزايد. وكان الصَّمَمُ نعمة. فمنعني من الانشغال بحديث الناس، وانكفأتُ أقرأ وأدرس

وخاض مئات التجارب قبل أن ينجح في اختراع المصباح في



1879، أعظم اختراعاته بين 1093 براءة اختراع مُسجَّلة باسمه في أمريكا وحدها، بخلاف إنجلترا وألمانيا وفرنسا. وعن فشله المُتكرِّر قال: "لقد تعلَّمتُ عشرة آلاف طريقة خطأ لصنْع المصباح"!... ورَفَضَ دَوْمًا أن يستسلم للإحباط أو يتوقَّف للراحة.

ففي شأن الإحباط، حَدَّثَ أن أطلَعَ مكتب براءات الاختراع بواشنطن على أفكاره بخصوص اختراع مصباح كهربائي. فنصحهُ المسؤولون بالألَّا يضيع وقته في مشروع كهذا. وكتبوا له خطابًا رسميًا جاء فيه: "إنها بصراحة فكرة حمقاء، إذ يكفي الناس عادةً بضوء الشمس فعاجلهم بخطاب ساخر يقول: "لكنكم ستقفون يومًا في طابورٍ لتسديد فواتير الكهرباء!"

وفي شأن الراحة، حَدَّثَ أن عَتَّقَتَهُ زوجته، لأنه يمكث في مُختبره بالأيام. وينسى الطعام والشراب، ويزهد في النوم. ونصَحَتُهُ قائلة: "لقد أمضيتُ يومك كُلَّهُ مُنْهَكًا في عملك، عليك أن تأخذ إجازة للراحة فورًا". فسألها: "وأيْن أذهب لو أخذتُ إجازة؟" فأجابته في توسُّلٍ ممزوجٍ بأملٍ في نُزْهةٍ مُشتركة: "تذهب للمكان الذي تحلم بالذهاب إليه". فَعَلَّقَ دون تفكير قائلاً: "فليكنْ، سأذهبُ إليه حالاً"... وتوجَّهَ إلى مُختبره من جديد!

تُوفِّي مُخترع الفونوجراف والميكروفون والصور المُتحرِّكة والمنازل المبنية بالخرسانة المصبوبة سنة 1931 عن عُمر يناهز

84. وعندما صعدت روحه إلى بارئها، أطفئت جميع مصابيح أمريكا حِدادًا على مَنْ أطلق أنوارها!



تقدّم أحد مُدرّسيه مُتطوِّعًا مدفوعًا بالغضب بتقرير لوالده، يفيد بأنه لا أهمية مُطلقًا للمجال الذي سيختاره لابنه، لأنه لن يفلح في أيّ مجالٍ كان!... كان بطيئًا في تعلّم الكلام. ولم يعتدّه إلا في العاشرة. وكان والداه يظنّانه ذا إعاقة ذهنية. وكان يميل إلى أحلام اليقظة، قليل الاهتمام بدروسه في المدرسة الكاثوليكية التي واطب عليها خمس سنوات، مُنتقلًا إلى أخرى زادته حُنفًا على التعليم. ثم تغيّرت حياته تمامًا بالعثور على كتابٍ في علم الرياضيات وهو في الـ 12، تعلّم منه الهندسة قبل أن تُدرّس له... انتقل وراء والده من بلدٍ لآخر؛ بسبب إخفاق الأخير في عمله. وعندما تقدّم للالتحاق بمعهد البوليتيكنيك بعد فشله في الثانوية، تعرّض في اجتياز فحص القبول في المرة الأولى، قبل أن ينجح في الثانية. وطوال سنوات دراسته بالمعهد، كان لا يهتمّ بملبسه، كثير العزف على الكمان، دائم التنزّه وحيدًا، قليل الحضور لقاعات المحاضرات، مُستعيرًا المُلخّصات من زملائه. وبعد نيّله الشهادة في 1900، لم يوافق أيّ من أساتذته على قبوله مُساعدًا لضعف اكتراثه بكلّ ما حوله. ومع ذلك، لم تكُنْ كلُّ هذه المظاهر ذات تأثير على شغفه بالرياضة والفيزياء. فاستهلّ طريقه بنشر بحثٍ

في إحدى المجلات. ثم وجد وظيفة مُستقرّة، وتزوَّج من زميلة دراسة. وفي 1905، نشر ثلاثة أبحاث دُفِعة واحدة في مجلة علمية، عن الحركة البراونية، والنظرية النسبية الخاصّة، وفيزياء الكمّ. وعندما بدأت أبحاثه تنتشر، تعرّض لهجوم حادّ من علماء عصره. لأنه كان يهدم بعضًا من نظريات نيوتن بشأن الحركة والضوء. وعبثًا حاولوا إثبات خطئه. وكان من بينهم الأمريكي الشهير روبرت ميليكان، الذي أنفق من عمره عشر سنوات، للبرهنة على خطأ ما توصل إليه. وكان من المذهل أنّ كلّ تجربة يجريها، كانت دليلاً جديداً على فشل ميليكان ونجاحه هو!

أشهر مُعادلة علمية في التاريخ كانت من نصيبه. إذ تقول: الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. وهي المُعادلة التي توكّد على إمكانية تحويل المادّة إلى طاقة والعكس.

وفي يوم 29 مايو 1919 حدّث كسوف كُلي للشمس. ومن الغريب أنّ هذا الحدّث كان سببًا في جعله أشهر علماء الكوكب. فقد اعتمد على أبحاث جديدة له بشأن نظرية النسبية العامّة، وتتنبأ بأنّ أشعة الضوء التي تمرُّ من خلال قُوَى الجذب الشديدة لأشعة الشمس، ستتحرف بشكل طفيف عن مسارها المُستقيم. وهو ما يعني أن تتغيّر مواقع النجوم الظاهرة في السماء، ولو بنسبة قليلة جدًّا. وكان كسوف الشمس فرصة مثالية لاختبار صدق فكرته

المجنونة. إذ يكفل احتجاب ضوء الشمس رؤية النجوم القريبة بشكل يسهّل قياس مواقعها الجديدة. وعندما سجّل علماء الفلك ملاحظاتهم بشأن النجوم أثناء الكسوف، وجدوا أن مواقعها قد ترحّضت بقدر ضئيل يتوافق مع تنبؤاته، لتسكت الألسنة التي تتال من قَدْره إلى الأبد، وتضع النيويورك تايمز مانشيت "الضوء يسير باعوجاج في السماء"، والتايمز اللندنية "نظرية جديدة عن الكون

وعن النسبية كان دائم التردد: "لو ثبت أنها صحيحة، لقال الألمان إتّي ألماني، والفرنسيون إتّي أوروبي، والأمريكيون إتّي مواطن من العالم الجديد. أما لو ثبت عدم صحتّها، لقال الأمريكيون إتّي أوروبي، والفرنسيون إتّي ألماني، والألمان إتّي يهودي"!... إنه ألبرت أينشتاين الحائز على نوبل في الفيزياء 1921، وأعظم العقول البشرية في القرون الثلاثة الأخيرة!

- - - - -

لَسْنَا بصدد تناول سيرة أحد الذين أحبطهم مُجتمعهم، بل نراقب محاولة إجهاض فكرة، وأد خُلم، قتل عِلْم، واغتتيال خُطوة جبّارة!

في 1921، كتب المُحرّر العلمي في نيويورك تايمز: "إنّ الأكثر كسلاً بين التلاميذ يعرف أنه ليس بالإمكان السير بعزّة في الفراغ، لانتهاء نُقطة ارتكاز تنطلق منها. وبالمثل فإنّ الصاروخ ليس في إمكانه الانتقال في الفراغ بين الأفلاك"... وفي 1936،

كان الجراح الإنجليزي المرموق جون ماميري يعتقد باستحالة أن يقيم رائد فضاء داخل مركبة صاروخية، لأن التسارع قد يتلف أدمغة الركاب بطريقة لا نجاة من آثارها المدمرة... وفي 1941، أعلن الجنرال الأمريكي جورج برت في ثقة أن سَفْنَ الفضاء لا يمكنها أبداً أن تحمل الوقود الضروري لرحلتها الطويلة، دون أن ينفذ منها في الطريق... وفي 1956، أكد رائد الفضاء البريطاني ريتشارد وولي في إيجاز أن السفر الفضائي ما هو إلا مهزلة بكلِّ المقاييس... وقبل أن ينقضي خريف 1957، كان الروس قد أرسلوا القمر الصناعي سبوتنيك 1 إلى السماء. وقبل أن ينتهي ربيع 1961 كانت المركبة السوفيتية فوستوك 1 قد عَزَّتْ الفضاء. وقبل أن ينتصف صيف 1969 كانت السفينة أبولو 11 الأمريكية قد هبطتْ على سطح القمر. وقبل أن يرحل آخر شتاء في القرن العشرين كانت مئات الرحلات قد جابت الفضاء، وألوف الرواد من شتَّى الجنسيات قد أقاموا لأسابيع داخل سَفْنِهِمْ!... فهكذا تطوَّر مفهوم السفر عَبْرَ الفضاء، من استهزاء صارخ بإمكانية الطيران، إلى انتصار باهر في غزو السماء... ولا عزاء للمتشكِّكين والمُحِبِّين والكسالى!

فكُلُّ الآتين بالجديد، يتعرَّضون للتحرُّش... سواء كان الجديد رسالة سماوية أو فكرة علمية أو سباحة ضد التيار... لكن الجديد دائم الانتصار ما برحتْ الأرض تدور!

## قالوا في الأمثال (1)

ألا تتفق معي أنه من الجيد أن يعي المرء معنى ما يقول،  
وأصل ما يقول، وألاً يقول ما يقول، فقط لأن غيره يقول ويقول؟؟

**إمسيك الخشب** يأتيك من يدي إعجاباً أو يُظهر استحساناً.  
فنتبسم في وجهه وتبحث من حولك عن سطح خشبي أملس أو  
خشن، ثم تنقر عليه برفقٍ أو بعنفٍ، قائلاً في تلقائية: "امسك  
الخشب!" فلماذا تعتقد في وجود علاقة وثيقة بين ملامسة الخشب  
بيدك اليمنى، وبين دفع ضرر أو درء حسد أو طرد عكوسات؟  
يعود أصل الخرافة إلى عصور سحيقة كان فيها أسلافنا يعتقدون  
في اختباء الأرواح والآلهة داخل الأشجار، وأن سقوط الأوراق  
وذبولها خاضعٌ لأوامرها. ومن هنا جاءت عادة لمس الخشب  
وملاطفته، لتهدئة الأرواح الشريرة في إرثٍ وثني؛ كي لا تتدخل  
فيما وصل إليه واصلٌ من نجاح، فتقطع صلته بينه وبين مسيرته  
الظافرة، كورقة خضراء يعتريها الذبول ويصيبها السقوط! وكثيراً ما  
اعتبر أسلافنا الشجر مَرصداً يُنبئ بما قد يطرأ على الإنسان من  
تغييرات، فيمرض عند شيخوختها، ويموت بجفافها. وكان بعضهم  
يزرع شجرة لدى ولادة مولوده. وينتظر منها علامات دالة على  
مستقبله. ويقوم بعضهم الآخر بالحج إلى أشجار خاصة للحصول  
على البركة أو الشفاء أو الوساطة لدى الآلهة. وكانت الشعوب

الهندية والأسترالية تؤمن بانتقال أرواح البشر إلى الأشجار بعد موتها. لذا كانوا يدفنون موتاهم عند جذوعها، أو يتركونها على فروعها بعد توفير مرآق تحفظهم من الوقوع. وفي العصر الفرعوني كانت هناك قصة الأخوين، وفيها قام أحدهما بوضع قلبه داخل أوراق شجرة الأكاسيا، ومات بمجرد ذبولها. ثم جاءت المسيحية، وبدلاً من أن تتسف الخزعلات، ساهمت في تعزيزها بغير قصد. فالإيمان بصَلْب المسيح قد أضفى على الخشب مكانة جديدة. فالمسيح - حسب الاعتقاد - قد مات على صليب من خشب، ومعظم المؤمنين يحملونه ويلمسونه في إشارة إلى الإيمان. فهل تتمسك بامساك الخشب بعد كل ما عرفت عن أصل الأسطورة؟؟

**قُنَّا كِدَه، قُلْتُمْ اَطْلَعُوا مِنَ الْبِلْدِ** كان جُحَا يعيش في بلد سُلْطَانَه ظَالِمٌ. وكان دائِمَ النَّقْدِ له على المقاهي وفي الأسواق، كثير الاعتراض على جبروته ومُحَابَاتِه لعشيرته على حساب القوم. وكان ناجحاً في تهيج الناس. ضاق السُلْطَانُ ذُرْعاً به، واجتمع بوزرائه يستشيرهم كيف يتصرّف معه؛ ليتقي شرّ لسانه وعاقبة أقواله. فاتفقوا على ضرورة نفيه. وهكذا أصدر قَرْمَانًا، وأمر برحيله عن السُلْطَنَة قبل غروب شمس اليوم التالي. لم يكن أمام جُحَا سوى الامتثال، وإلا تعرّض للحبس وعانى أهله من التشريد. بات ليثته يجمع عزاله. وفي الصباح الباكر، سحب حماره وفارق داره. وبدأ رحلة خروجه من بلده مطرودًا. وكان الخروج يستلزم المرور

أمام قصر السلطان القائم على الطريق. وعند أبواب القصر تمامًا، توقَّف جُحا بحماره؛ كي يقوم بتثبيت حملته على ظهر الحمار الذي كان ينوء بما يحمل. تصادف وقوف السلطان في شُرْفة قصره يتناول فطوره. فتابعه وهو يحْمِلُ جانب الحمار الأيمن بالأمْتعة، فيخْتَلُ توازنه ويسقط على جانبه الأيمن. فبُعِينَهُ جُحا على الوقوف، ثم يَحْطُ أمتعته على جانبه الأيسر، فما يكون منه سوى السقوط إلى اليسار. تأمَّل السلطان ما يحدث مُندَهشًا من سوء تصرفه، ثم ناداه في غِلْظة. ترك جُحا حماره ومتاعه، واقترب من شُرْفة السلطان بعد أن سمح له الحُرَّاس باجتياز البوَّابات. وعندما توقَّف أسفل شُرْفة السلطان، نظر له السلطان ساخرًا وهو يقول: "يا جُحا، أولم تتعلَّم قط أن حمارك كي يسير باستقامة في طريقه دون مُعَوَّقات أو اعوجاج، لا بُدَّ لك أن تعدل بين الجانبين. فلا تجامل ناحية على حساب ناحية، حتى لا يشكو الحمار ويئن وهنا رَمَقَهُ جُحا مُتَأَمِّلاً قَسَمَات وجهه الذي لم يزل يحمل علامات النوم على الفراش السلطاني الوثير، ثم قال له هازئًا، وهو يعطيه ظهره مُبتعدًا عن القصر: "ما قُلْنَا كده، قُلْتُمْ اطلعوا من البلد!"

اللي اختشوا ماتوا في أحد أيام الصَّيف، وبينما السيِّدات يَغْتَسِلْنَ في حَمَّام عام، إذا بحريق ينشب في رُكْنٍ فيه. انطلقت نِسْوَةٌ إلى الخارج نِجَاءً بأنفُسهنَّ رِغم عُرْيهنَّ، بينما خجلتُ أُخريات من الظهور بما حرصنَّ على إخفائه، ليخْلُنَّ شهيدات الحياء.



وتبقى المفارقة. فالنِسوة اللاتي خرجن عاريات، كُنَّ يَصْعَنُ  
 المناشف على صدورهنَّ وخصورهنَّ. واليوم تخرج بنات العرب إلى  
 الشواطئ، دون طارئ أو مصيبة، فلا يستر أجسادهنَّ نصف ما  
 كان يستر النِسوة اللاتي عَتَبْنَا عليهنَّ للنجاة بأرواحهنَّ! كما يذكر  
 لنا تاريخ الغرب أنه عندما ارتدَّت الأتسة المارقة آنيثا كيليرمان  
 أوَّل ثوب سباحة في العالم، وتألَّف من شورت وبلوزة مقفولة  
 بأكمام، تمَّ القبض عليها في 1909 بثُّمة التعرِّي للأخلاقي. ولو  
 ارتدَّتْه آنيثا في 2013 لتمَّ سجنها بثُّمة اللاتعري الأخلاقي!

إِنَّ غَدًا لَنَظَرِهِ قَرِيبٌ خَرَجَ النُّعْمَانُ بِنِ الْمُنْذِرِ لِلصَّيْدِ، فَرَأَى  
 حِمَارًا وَحَشِيًّا، فَتَعَقَّبَهُ، وَجَنَحَ بِهِ فَرَسَهُ مَعَ دُخُولِ اللَّيْلِ فِي بَقْعَةٍ  
 نَائِيَةِ التَّمَسِ أَهْلَهَا، فَخَرَجَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ طَيْءٍ يُقَالُ لَهُ حَنْظَلَةٌ.  
 فَسَأَلَهُ: "هَلْ مِنْ مَأْوَى؟" فَأَجَابَ: "نَعَمْ وَأَمْرٌ زَوْجَتِهِ بِحَلْبِ شَاةٍ  
 وَحَيْدَةٍ يَمْلِكَانَهَا ثُمَّ ذَبَحَهَا. فَأَطْعَمَا ضَيْفَهُمَا وَأَشْرِيَاهُ، وَبَاتَ لَيْلَتِهِ...  
 فَلَمَّا أَصْبَحَ، لَبَسَ ثِيَابَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، ثُمَّ قَالَ: "يَا أَخَا طَيْءِ اطْلُبْ  
 ثَوَابِكَ، أَنَا الْمَلِكُ النُّعْمَانُ". تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُ حَنْظَلَةٍ... ثُمَّ مَرَّ زَمَنٌ،  
 سَاءَ فِيهِ حَالُهُ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ بِالذَّهَابِ لِ النُّعْمَانِ، لَعَلَّهُ يَرُدُّ  
 الْجَمِيلَ... وَصَلَ حَنْظَلَةٌ إِلَى الْحَيْرَةِ، وَصَادَفَ وَصُولَهُ يَوْمَ بؤسِ  
 النُّعْمَانِ<sup>4</sup>، وَفِيهِ بِيْطِشٌ بِالْوَأَفِدِينَ إِلَيْهِ. تَدَكَّرَهُ النُّعْمَانُ، وَسَاءَ أَنْ

4 ذات يوم شرب النُّعْمَانُ حتى فقد وعيه، فأمر بقتل خليلته في جلسته المشوومة. ولما أفاق  
 من سُكْرِهِ، سَأَلَ عَنْهُمَا، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا كَانَ. بَكَى عَلَيْهِمَا، وَأَمَرَ بِتَشْيِيدِ قَبْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ لِهَمَا. ثُمَّ

يأتيه في يوم بؤسه، ثم قال: "أفلا جِئْتُ في غير هذا اليوم؟ والله لو سَنَخَ لي اليوم قابوس ابني لم أجد بُدًّا من قتله، فاطلُب حاجتك من الدُّنيا وسَلْ ما بدا لك فإنك مقتول". قال: "وما أصنع بالدُّنيا بَعْدَ نفسي؟ فإن كان لا بُدَّ فأجِلني حتى أَلِمَّ بأهلي، وأهَيئَ حالهم، ثم أنصرف إليك". قال النُّعمان: "فأقِمَّ لي كفيلاً بمُوافاتك". فالتفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان، وطلب منه أن يضمه. فأبى أن يفعل. وهنا ظهر قُرَاد بن أجدع، وقال لـ النُّعمان: "هو عَلَيَّ"... وافق النُّعمان. ثم أمر للطائي بـ 500 ناقة. فمضى إلى أهله، على أن يعود بعد حَوْلٍ كاملٍ باليوم والساعة. فلَمَّا انقضت السنة وبقي من الأجل يوم واحد قال النُّعمان لـ قُرَاد:

"ما أراك إلا هالِكاً غداً". فقال قُرَاد بيت الشعر المشهور:

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولَّى \* فإنَّ غداً لناظِرِه قريبُ

فلَمَّا أتى صباح اليوم التالي، خرج النُّعمان في خيله وجيشه، كما يفعل في يوم البؤس، حتى أتى موضعه المعروف، فتوقَّف. وأتى بـ قُرَاد، وأمر بقتله. فأشار عليه وزراؤه ألا يفعل حتى تغرب الشمس ويستوفي يومه. فأمهله، مع تفضيله أن يقتل قُرَادًا لِنِفْلَتِ الطائي

---

جعل نفسه في كل عام، يوم بؤس ويوم فرح. فيخرج في الأول إلى موضع القبرين، فإن لمَحَتْ عيناه شخصا، قتله. ويخرج في الثاني، فإن وفد إليه أحد، أحسن إليه.

الذي ضيّفه من القتل!... فلَمَّا كادت الشمس تغرب، وقراد مُجَرَّدٌ من ثيابه والسيّاف إلى جواره، أقبلت امرأته تبكي وتطلب الرحمة... لم تأخذ النُعمان به وبها شفقة، وأمر بالقتل. فإذا بشخص آتٍ من بعيد يرفع رايته ويهزول في اتجاههم. فلَمَّا اقترب، تبين أنه الطائي. نظر إليه النُعمان في دهشة، وقال في غضب ممزوج باحترام: "ما حَمَأَك على الرجوع بعد إفلانك من القتل؟" فقال: "الوفاء". قال: "وما دعاك إليه؟" قال: "إيماني بالله تعالى وكان حنظلة من أتباع المسيح عليه السلام. ففتصر النُعمان، وكان قبل ذلك على شريك العرب. ثم أبطل سنة أيام البؤس والسعد، وعفا عن قراد وحنظلة قائلًا: "والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم، أهذا الذي نجا من القتل فعاد، أم ذاك الذي ضمّته؟ والله لا أكونُ الأمّ الثلاثة!"

إن فاتك الميري اتمرغ في ثرابه عندما احتلّ الرومان مصر مع نهاية حُكم كليوباترا، كان القمح أحد أسباب مطمّعهم. فكانت مصر تمُدّ الإمبراطورية كُلّها بالقمح، حتى أُطلقَ عليها آنذاك سَلَّةُ الغلال!<sup>5</sup> والقمح هو الميره باللُّغة المصرية القديمة<sup>6</sup> وكان مَحْظُورًا على المصري امتلاك حيويه إلاّ بأمر من الحاكم الروماني. وكان القمح يُشَوَّن في صوامعٍ لِحِينِ شَحْنِهِ لأنحاء الإمبراطورية. ولأن

وظلت كذلك حتى الاحتلال العثماني، بوُصِفها مخزن الأستانة من القمح!

<sup>6</sup> ومن أسماء القمح عند الفراعنة: "برت"، ولعل اسمه العربي "بِرّ" مشتق من اسمه المصري!

زراعة القمح وما يستجدُّ عليها من حِرْف، كانت هي المهنة الرسمية للمصريين التي تسُدُّ جوع عيالهم، فمن هنا ابتكر مثلٌ ينصح بالتمرُّغ في تراب الصوامع بحثاً عن بقايا الميره، مما يكون قد غفل عمال النقل عنه أو تساقط منهم في الطريق... كُنَّا نُصِدِّر الميره ولا نأكله، صِرْنَا نستورد القمح ولا نزرعه!

الباب يفوتِ جَمَل نزل أحمد بن محمد النيسابوري ضيفاً على صديق له. وكان لدار صاحبه هذا باب أصغر مما يألف. فقال له في تعالٍ غير مُبرَّر: "فقط لو بَنَيْتِ للأصحاب مَوْضِعًا أوسع وبابًا أعلى انزعج الصديق من تدخُّله فيما لا يعنيه، فصمَّتْ هُنَيْهَةً، ثم قال: "إذا بَنَيْتِ أنت يا أحمد دارًا، فاجعل لها بابًا يدخل منه الجمل براكبه". ومن العجيب أن ضيفه النيسابوري قد تأثَّر لهذا الاقتراح، ولم يلمح سخريته الكامنة. وعاد من فوره إلى نيسابور مُلتَمِسًا قطعة أرض من الحاكم بعد أن باع بعضًا من أملاكه، فبنى على الأرض دارًا. ثم أرسل في طلب معارفه - وبينهم صاحبه - من كلِّ حُدُبِ وصُوب، مُستضيفًا إِيَّاهم في داره ذات الباب الجَمَلِي. وعندما تجمَّع أصدقاؤه خارج الدار مُتسائلين عن سرِّ الدعوة العامَّة، خرج إليهم النيسابوري مُرَحِّبًا، ثم أتى بعاملٍ لذيئه، وأزكَّبه جملاً، وجعله يقطع المسافة عبر الباب جيئةً وذهابًا، دخولاً وخروجًا، في استعراض عجيب، ثم قال لهم في ثقل دم عهده الجميع عنه: "الباب يفوتِ جَمَل!"

إحنا دفنينه سوا كانا صديقين. لم يفترقا قط. يسافران معًا. يتاجران سويًا. يقتسمان الطعام والشراب. وفي يوم، اشتدَّ عليهما الفقر، وبلغت بهما الحاجة مَبْلَغها. فقرَّرا السفر وتزكَّ الدِّيار بَحْثًا عن مؤرد رزق. وفي أثناء الرحلة، ولم يَكُنْ معهما سوى حمارهما يتبادلان الركوب عليه، نَقَفَ منهما لطول الرحلة ونفاد الغذاء. وهنا تفنَّقَ ذهن أحدهما عن فكرة جُهَنميَّة. فقد كانا على مَشَارِف قرية لا يعرفهما فيها أحد. فقاما بدفن حمارهما، ثم أقاما عليه مَقامًا. وذهبا إلى أهل القرية لدعوتهم لزيارة مقام الوَلِيِّ الصالح الذي وافته المَنِيَّة قُبَيْل مُباركة القرية بزيارته الميمونة. فصار الناس يأتون للمقام، يدعون ويصلُّون ويلقون بالمال والقرايين. ويمرور الزمن، اغتنى الصديقان، ولم يعودا في حاجة إلى استئناف الترحال بَحْثًا عن الرزق. فمصيبرهما إلى جوار حمارهما الذي أصبح له مولد سنوي ومُريدون يأتون من النجوع للتبرُّك بالشيخ حمار المدفون في المقام! وفي يوم، اختلف الصديقان على تقسيم غنيمة صندوق الضريح. فراح أحدهما يقسم للأخر بمقام الشيخ أنَّ الحقَّ معه هو. وهنا نظر له صاحبه في دهشة ممزوجة بهيستيريا، ثم قال في استهزاء: "كفاك هذيانًا يا رجل، بمنَّ تقسيم يا معتوه؟ ده إحنا دفنينه سوا!"

هذا عُدْرٌ أقبَحُ من نَثْبٍ كان قُدامي ملوك العرب حريصين على مُصاحبة النُدماء ومُجالسة الفلاسفة، سعيًا وراء التسلية أو طلبًا للحِكْمَة. وفي يوم، طلب مَلِكٌ من نديم له أن يضرب له مَثَلًا

عن عُذْرٍ يكون أقبح من الذنب. فأوماً النديم له برأسه موافقاً، طالِباً منه مُهَلَّةً كي يفكّر في مِثَالٍ مُنَاسِبٍ... مَرَّ يَوْمَانِ، ثُمَّ دَعَا الْمَلِكَ نَدِيمَهُ إِلَى قَصْرِهِ، مُقْتَرِحاً عَلَيْهِ الصُّعُودَ مَعَهُ كِعَادَتِهِ إِلَى الطَّابِقِ الْأَعْلَى. رَحَّبَ النَّدِيمُ بِالْفِكْرَةِ، وَأَفْسَحَ الْمَكَانَ مُتَرَاجِعاً؛ كَيْ يَسْمَحَ لِلْمَلِكِ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى أَنْ يَصْعَدَ خَلْفَهُ. وَفِي مُنْتَصَفِ الدَّرَجِ الْمُؤَدِّيِ إِلَى أَعْلَى، مَدَّ النَّدِيمُ يَدَهُ أَسْفَلَ ثَوْبِ الْمَلِكِ، وَقَامَ بِقِرْصِ فَخْذِهِ مِنَ الْخَلْفِ. انْتَفَضَ الْمَلِكُ غَاضِباً، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى نَدِيمِهِ وَصَاحَ فِي وَجْهِهِ: "وَبِحُكِّكَ يَا رَجُلَ، كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الْفِعْلَةِ الْمَعْيِبَةِ؟" حَزَّ النَّدِيمُ رَاكِعاً وَقَالَ فِي تَوَسُّلٍ: "عَفْوُكَ يَا مُوَلَايَ، فَقَدْ شَرَدَتْ أَفْكَارِي فَجَاءَتْ، وَظَنَنْتُكَ الْمَلِكَةَ لَا الْمَلِكَ". فَتَارَ الْمَلِكُ لَوَاقِحَةِ نَدِيمِهِ، وَأَخْرَجَ سَيْفَهُ مِنْ غَمَدِهِ، وَهَمَّ بِقَطْعِ رِقْبَتِهِ. أَطْلَقَ النَّدِيمُ سَاقِيَهُ لِلرِّيحِ، وَقَبْلَ أَنْ يَفَارِقَ بَابَ الْقَصْرِ، نَظَرَ لِلْمَلِكِ فِي رِبَاطَةِ جَاشٍ قَانِلاً: "أَمَا هَذَا يَا مُوَلَايَ، فَهُوَ الْعُذْرُ الْأَقْبَحُ مِنَ الذَّنْبِ!"

**رَجَعَ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ** قَبْلَ قُرُونٍ مَضَتْ، عَاشَ بِيَلَادِ الْحِيرَةِ إِسْكَافِي يُقَالُ لَهُ حُنَيْنٌ. وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ دَخَلَ عَلَيْهِ نُكَانَهُ أَعْرَابِي لِيَشْتَرِيَ خُفَيْنَ. كَانَ الْأَعْرَابِيُّ لِحَوْحًا وَمُسَاوِمًا. وَظَلَّ يَجَادِلُ فِي سَعْرِ الْخُفَيْنِ؛ حَتَّى يَشْتَرِيهِمَا بِأَبْخَسِ الْأَسْعَارِ. لَمْ يَتَحَمَّلْ حُنَيْنٌ الْفِصَالِ، وَرَفَضَ أَنْ يَبِيعَهُمَا لِلرَّجُلِ. اغْتَاظَ الْأَعْرَابِيُّ، وَسَبَّ الْإِسْكَافِيَّ سَبَابًا فَاحْشًا. ثُمَّ تَرَكَهُ وَانصَرَفَ غَاضِبًا. صَمَّمَ حُنَيْنٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ. فَأَخَذَ الْخُفَيْنَ، وَخَرَجَ مُسْرِعًا مِنْ مَتَجَرِهِ. وَنَجَّ

في أن يسبق الأعرابي عبر طريق مُختصر. وهناك، قام بإلقاء أحد الخُفَّين. ثم مشى عدَّة أمتار، وألقى بالثاني. ثم لجأ للاختباء؛ ليرى ما سوف يفعله الأعرابي. مرَّت دقائق قبل أن يصل الرجل إلى مَوْضِعِ الخُفِّ الأوَّل. ففوجئ به على جانب من الطريق، فالتقطه قائلاً لنفسه: "ما أشبهَ هذا الخُفُّ بالخُفِّ الذي أُرذتُ شراءه من ذلك الملعون حُنَيْن. آه، لو كان معه الخُفُّ الآخر، لأخذتهما". رماه الأعرابي في مَوْضِعِهِ، ومضى في سبيله. وبعد مسافة قصيرة، وجد الخُفَّ الثاني، فأبذى ندمه لأنه لم يأخذ الأوَّل. وعاد ليأخذه، وترك فَرَسَهُ بلا حراسة. وفي تلك اللحظة، تسَلَّلَ حُنَيْن إلى راحلته، فأخذها بما عليها. ولمَّا رجع الأعرابي بالخُفَّين سعيدًا بهما، لم يجد ركوبته حيث تركها. مكثَ نهاره يبحث عنها، ولمَّا فشل في العثور عليها، عاد إلى أهله في المساء. ولمَّا سأله: "بماذا عُذت من سفرك؟" أجابهم في ابتسامة مُكسرة: "عُدتُ بخُفِّي حُنَيْن!"

يا سلام سلِّم الحَيطة بتتكلِّم هكذا هتف المصريون في عهد السُلطان برفوق قبل 630 سنة. فقد أشيع أنَّ شخصاً يتكلَّم من داخل حائط في بيت رجل يُدعى ابن الفيشي. إذ عاد يوماً إلى بيته، فأتاه صَوْتُ من الجدار يهتف: "يا ابن الفيشي اتقِ الله وأحسِّن إلى زوجتك!" فزع الرجل وظنَّ مُحَدِّثه من الجانِب. واستدعى جيرانه. وسرعان ما ذاع الخبر في البلاد. ولمَّا وصل الأمر إلى المُحتسِب، زار البيت، وهدمَ الحائط. لكن الكلام ظلَّ

مُسْتَمِرًّا! وزاد الإقبال على الحائط المسحور الذي يأمر بحسن  
 مُعاملة الزوجة! قَبَضَ الْمُحْتَسِبُ عَلَى الرَّجُلِ وَرَوْجَتِهِ. وبعد تلاوة  
 القرآن وحصار المكان والتحقيق معهما، اتَّضَحَ أَنَّ الزَّوْجَةَ  
 الْمَسْكِينَةَ هِيَ الَّتِي تَكَلَّمَتْ مِنْ فَجْوَةٍ فِي حَائِطٍ تُحَدِّثُ صَوْتًا غَرِيبًا،  
 وَأَنَّ زَوْجَهَا اكْتَشَفَ الْحِيلَةَ، وَرَأَى أَنَّ تَسْتَمِرُّ لِيُنَالَا جَاهًا! صدر  
 الأمر بضربهما بالعُصِي، وأركبوهما على جَمَلَيْنِ وَطِيفَ بِهِمَا  
 بِالْقَاهِرَةِ!... آه لو عَلِمَتْ الزَّوْجَاتُ بِأَمْرِ الْقِصَّةِ، لَتَكَلَّمَتْ الْجُدْرَانَ  
 وَنَاخَتْ الْأَسْفُفَ وَاشْتَكَّتْ الْأَبْوَابَ وَأَصِيبَ الْفَرِيزِ بِالْعَلْيَانِ!

الكلام لك يا جارة      أَوَّلَ مَنْ قَالَهَا سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ الْفَزَارِيُّ. إذ  
 خرج يريد الملك النُّعْمَانَ. فَمَرَّ بِبَعْضِ أَحْيَاءِ طِيءٍ، وَسَأَلَ عَنْ سَيِّدِ  
 الْحَيِّ، فَقِيلَ لَهُ: حَارِثَةُ بْنُ لَامٍ. وَلَمَّا بَحِثَ عَنْ دَارِهِ، وَجَدَ أختَهُ  
 الَّتِي أَكْرَمَتْهُ كضَيْفٍ غَرِيبٍ وَرَحَّبَتْ بِهِ. وَقَعَ سَهْلٌ فِي غَرَامِهَا مِنْ  
 النَّظَرَةِ الْأُولَى، ثُمَّ غَادَرَ إِلَى وَجْهَتِهِ، عَاقِدًا الْعِزْمَ عَلَى الظُّفْرِ بِهَا،  
 لَكِنَّهُ احْتَارَ كَيْفَ يَخْبِرُهَا، وَكَيْفَ يَعْرِفُ إِنَّ وَافَقَتْ عَلَيْهِ. فَعَادَ إِلَى  
 مَوْضِعِ الدَّارِ، وَجَلَسَ يَنْشُدُ:

يَا أُخْتِ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَةِ \* كَيْفَ تَرَيْنَ فِي فَتَى قَرَارَةِ  
 أَصْبَحَ يَهْوَى خُرَّةً مِعْطَارَةَ \* إِيَّاكَ أَعْنَى وَأَسْمَعِي يَا جَارَةَ  
 فَلَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُ، عَرَفَتْ أَنَّهُ يَعْنِيهَا. فَزِدَتْ نَظْمَهُ بِنَظْمِ:

إِنِّي أَقُولُ يَا فَتَى قَرَارَةَ \* لَا أَبْتَغِي الرَّوْجَ وَلَا الدِّعَارَةَ



وَلَا فِرَاقَ أَهْلِ هَذِي الْجَارَةِ فَارْحَلْ إِلَى أَهْلِكَ بِاسْتِخَارَةِ  
فَأَحْسَسَ سَهْلَ بِالْخَجَلِ، وَقَالَ: "وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ مُنْكَرًا!" ثُمَّ رَحَلَ  
مُنْكَسِرًا. فَأَتَى النُّعْمَانَ الَّذِي أَكْرَمَهُ. وَاسْتَحْيَتْ هِيَ مِنْ تَسْرُعِهَا فِي  
الْحُكْمِ عَلَيْهِ، وَانْتظَرَتْ رَجُوعَهُ وَنَزُولَهُ عَلَى أَخِيهَا فِي طَرِيقِ  
عَوْدَتِهِ. وَبَيْنَمَا هُوَ مُقِيمٌ عِنْدَهُمْ، أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ مَنْ يَقُولُ عَلَى لِسَانِهَا:  
"أَخْطُبُنِي إِنْ كَانَ لَكَ إِلَيَّ حَاجَةٌ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ!"... فَأَسْرَعَ سَهْلٌ  
إِلَى خَطْبَتِهَا مِنْ أَخِيهَا، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا، وَسَارَ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ... وَالْكَلَامُ  
لِكَ يَا كُلَّ جَارَةٍ، بِشَرطِ سَلَامَةِ الْقُصْدِ وَنِزَاهَةِ الْغَرَضِ!

ارْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ رَغْمَ أَنَّهَا مِنْ أَشْهَرِ الْعِبَارَاتِ الْمُتَدَاوِلَةِ،  
إِلَّا أَنَّ خِلَافًا عَلَى صِحَّتِهَا يُطَارِدُهَا! فَقِيلَ أَنَّهَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ  
حَدِيثِ لِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ قِيلَ أَنَّهُ مُؤْضَوْعٌ أَوْ  
ضَعِيفٌ الْأَسَانِيدِ. وَلِلْحَدِيثِ نَفْسُهُ أَكْثَرَ مِنْ رِوَايَةٍ. فَقِيلَ أَنَّهُ مُرْتَبِطٌ  
بِغَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ الَّتِي هَزَمَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، حَيْثُ أُسِرَتْ  
جَوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَمِيرَةِ الْخُزَاعِيَّةِ. ثُمَّ كَاتَبَتْهُ مَنْ وَقَعَتْ فِي  
أَسْرِهِ عَلَى مَالٍ، فَذَهَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَأَكْرَمَهَا بِالْغَاءِ الدِّينِ  
وَالزَّوْجِ بِهَا. وَبِنِجَاةِ الْأَمِيرَةِ مِنَ الْهَوَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَقُولَتَهُ...  
كَمَا قِيلَ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِغَزْوِ الْمُسْلِمِينَ لِقَبِيلَةِ طِيءَ. وَعِنْدَمَا عُرِضَ  
الْأَسْرَى عَلَى الرَّسُولِ، تَهَضَّتْ سَفَانَةٌ مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَالَتْ: "يَا مُحَمَّدُ،  
هَلْكَ الْوَالِدِ، وَغَابَ الْوَالِدِ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ نُحَلِّيَ عَنِّي، وَلَا تُشْمِتْ بِي

أحياء العرب، فإنَّ أبي كان سيِّدَ قَوْمِهِ، يَفُكُّ العاني، ويقتلُ الجاني، ويحفظُ الجار، ويحمي الدِّمَارَ<sup>7</sup>، ويفرِّجُ عن المَكْرُوب، ويُطْعِمُ الطعام، ويفشي السلام، ويحملُ الكُلَّ، ويُعيِّنُ على نوائب الدهر، وما آتاه أحدٌ في حاجةٍ فرَّدهُ خائبًا. أنا ابنةُ حاتم الطائي . فقال محمد: "هذه صفات المؤمنين حقًّا. خلُّوا عنها، فإنَّ أباهَا كان يُحِبُّ مكارِمَ الأخلاقِ ثم أنزلها منزلًا طيِّبًا، مُوصِيًا أصحابه قائلاً: "ارحموا عزيزَ قَوْمِ دَلِّ، وغنيًّا افتقر، وعالمًا ضاع بينَ جهَّال". ثم أطلق باقي الأسرى تكريماً لها ولذكرى أبيها. وأياً ما كانت صِحَّة الروايات، فإنَّ رحمةَ عزيزِ القومِ مقرونةٌ بطيبِ أصله وحُسنِ سيرته وكَرَمِ أخلاقه... أما ذلك الذي يستمِدُّ عِرَّتَهُ من مَصِّ دِماءِ الغلابة وسرقةِ قُوتِ قَوْمِهِ، فليس له سوى القِصاصِ بلا تعاطُفٍ من الأرض، ولا شفاعَةِ في السماء!

**مُكْرَمَةٌ أَخوك لا بَطْلٌ كثيرًا ما بدأتُ معارك العرب بالمُبَارَزة الفردية. وفي معركة صِفِّين بين جيش عليّ وجيش معاوية، خرج عليّ من صفوف جيشه، وخَلَعَ درعه، وصاح في خصومه: "مَنْ يبارز؟" ... هابَهُ أعداؤه، فلم يخرجْ له أحد! فنادَى الناس على معاوية: "قُمْ بارِزْه!"، فقال: "لا". ثم التفت إلى عمرو بن العاص، وقال: "اخرُج أنت له!" فاستنكر عمرو قائلاً: "أبارز أبا الحسن؟!"**

<sup>7</sup> أي يحمي الأهل والبرض

ثم رفض. فأصرَّ معاوية مُزِدِّقًا: "عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَنْ تَبَارِزَهُ". فخرج ابن العاص مُتَتَاقِلًا، ولَمَّا التَقَى بِعَلِيِّ وَسَطَ الْمِيدَانِ، أَلْقَى بِسَيْفِهِ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: "مُكْرَةٌ أَخُوكَ لَا بَطْلَ!". ... فلم يَسْتَطِعْ عَلِيٌّ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْإِبْتِسَامِ، وَتَرَجَّعَ الْإِثْنَانُ... ثم بدأت المعركة!

### على أهلها جَنَّتْ بَرَاقِشُ

لَمْ تَكُنْ عَنِ جَنَابَةِ لَحَقْتَنِي \* لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتَنِي  
بَلْ جَنَّاها أَخٌ عَلِيٍّ كَرِيمٍ \* وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَاقِشُ تَجْنِي

يَبْتَنُّ الشَّاعِرُ الْأُمَوِيُّ حَمِزَةُ بْنَ بَيْضِ الْحَنْفِيِّ، وَفِيهِمَا يَتَحَدَّثُ عَنِ إِسَاءَةِ أَصَابَتِهِ مِنْ أَخٍ عَزِيزٍ عَلَيْهِ. وَلَكِنْ مَنْ هِيَ بَرَاقِشُ الَّتِي جَنَّتْ عَلَى أَهْلِهَا مِثْلَمَا جَنَّتْ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ؟ بَرَاقِشُ كَلْبَةٌ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ. أَغَارَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ. فَهَرَبُوا وَمَعَهُمْ بَرَاقِشُ إِلَى أَحَدِ الْوُدْيَانِ. فَلاحقهم الأعداء. وظلُّوا يَبْحَثُونَ عَنْ أَثَرِ لَهُمْ. وَكَانَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى أَنْ حَزَبَتْ بَرَاقِشُ مِنْ مَخْبَأِهَا، وَتَبَحَّتْ عَلَى الْمُغِيرِينَ. وَلَمَّا كَانُوا قَدْ عَرَفُوهَا مِنْذُ بَدَأُوا غَارَتِهِمْ، فَقَدْ فَطِنُوا لَوْجُودِ الْقَوْمِ حَيْثُ تَبَحَّتْ. فَكَانَ أَنْ دَلَّتْ بَرَاقِشُ عَلَى أَصْحَابِهَا فَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكُوهُمْ! وَهَكَذَا أَرَادَتْ الْخَيْرَ لِأَهْلِهَا، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أُبْلَغَ الضَّرْرَ!... يَحْتَاجُ الْمَرْءُ دَوْمًا لِإِمْعَانِ التَّفَكِيرِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ قَبْلَ الْإِثْتِيَانِ بِهَا. فَإِنَّ كَانَ عِزَاءُ بَرَاقِشُ أَنَّهَا مُجَرَّدُ كَلْبَةٍ لَا تَعِي

عواقب نباحها، فإنَّ بني البشر لا مُبَرِّر لهم يعفيهم من الاندفاع  
الأحمق دِفاعًا عن الحقِّ بالباطل!

آخرة خدمة الغز علقة الغز هم قبائل التُّرك وعسكرهم.  
ورغم ما عُرِف عنهم من قسوة وجورٍ مع عامَّة المصريين في  
فترات حُكْمهم، إلاَّ أنَّ أهل مصر ظلُّوا مُتمسِّكين بهم باعتبارهم  
الحائط الأمني الذي يصدُّ غزوات المُستعمرين الغرب. لكن هؤلاء  
الحُكَّام تَمادوا في العجرفة وإنكار الجميل... ومن هنا كان المَثَل،  
وكانت العلقة!

عليَّ وعلى أعدائي أسطورة من التراث النُوراني بطعم  
العداوة لأهل فلسطين. وإنَّ قصصناها كما جاءت في سفر  
القضاء، لَخَرَجْنَا من مغزها إلى الغضب على شمشون وعلى  
كاتب السطور!... كان شمشون قاضيًا عبرانيًا. وكان عَتِيًّا جَبَّارًا.  
لكنه كان ضعيفًا أمام النساء. وكانت أمُّه - العاقِر حتى حَمَلَتْ  
به- قد نَدَرْتَه لله. وكان نَدْرُه سِرًّا قُوَّتَه. كبر شمشون وتزوَّج امرأة  
من الأعداء. وبدأ بسببها صِراعًا معهم، لأنها خانته لصالحهم.  
لكنَّه صمد بسبب قُوَّتَه الأسطورية. فكان يحرق زروع أعدائه، ويفكُّ  
وثاقه من حبالهم، ويقتل مئات المُجتَمعين عليه. ثم نَصَبُوا له فِخًّا  
في أحضان زانية؛ كي يفتلوه عند ضوء الصُّبح وهو غارق في  
لُدَّاتِه. لكنه قام في مُنتصف الليل وحَطَّم الأبواب وصعدَ غاضِبًا

إلى جبل. ثم حاول أن يَرِدَّ الحيلة لأعدائه، فأَوْهَمَ دليلاً حبيبه بأنَّ قُوَّتَهُ تضعف إذا ما أُوثِقَ بسبعة حبال مُبْتَلَّة. فَوَسَّتْ دليلاً بسِرِّ ضَعْفِهِ المزعوم لأعدائه. فجاجعوها بالحبال، فأوثقته بها وهو نائم. وعندما هجموا عليه لقتله، مَزَّقَ شمشون الحبال وسط ذهولهم. ثم عاد وأوهمها بأنَّ قُوَّتَهُ تخور إن أُوثِقَ بحبالٍ لم تُسْتَعْمَل قط. وتكرَّرَ نصرُهُ. ولسببٍ مجهول ولا مُبرَّرٍ درامي له، قرَّرَ شمشون أن يُطْلِعَ دليلاً في نهاية الأمر على سِرِّ قُوَّتِهِ. فقال لها: "لم يعلُ رأسي موسى، لأنِّي نذيرُ الله من بطن أُمِّي. فإنَّ خُلِقَ رأسي، فارقنتي قُوَّتِي وضعفت". وهكذا قبض الأعداء على شمشون بعد أن حلقوا له شَعْرَ رأسه وهو نائم على رُكْبَتَيْ دليلاً. ففأوا عَيْنَيْهِ ونزلوا به إلى مدينتهم. وسجنوه بعدما أوثقوه بسلاسل من نحاس قوي. ولَمَّا نَبَتَ شعر رأسه مُتزامناً مع دعوة أعدائه له من سجنه؛ كي يسلبهم في أحد أعيادهم، إذا ب شمشون الجبَّار، وقد عادت إليه قُوَّتُهُ كاملة. وأمسك بأعمدة المعبد التي أوثقوه إليها، واعتصرها بقبضته الفولاذية وهو يصرخ قائلاً: "لِئِمْتُ نَفْسِي مع أعدائي ثم دَفَعْتُ بِشِدَّةٍ، فسقط المعبد على الآلاف من أعدائه المُجتمِعين لمُشاهدته. وقَضَى نَحْبَهُ وسط أعدائه، فكان الذين قتلهم في موته أكثر من الذين قتلهم في حياته... اختار شمشون أن ينهي حياته وحياة أعدائه في يوم واحد، مقابل أن يعيش وطنه باقي الأيام!

## عزيز و.. عبد العزيز (1)

يا عزيز يا عزيز كَبَّةٌ تَأْخُذُ الْإِنْجِلِيزِ!

هتاف الرجال والنساء والأطفال، لأيام وشهور وسنوات طوالٍ.  
فَمَنْ ذلك البطل الأسطوري الذي هَتَفَتْ باسمه مصر قديمًا، والذي  
لا تعرفه مصر حديثًا؟؟

اسمه في شهادة الميلاد عبد العزيز زكريا علي. من مواليد  
1880 قبل الثورة العرابية بعام، وقبل الاحتلال البريطاني بعامين.  
فعاش حياته ثائرًا، من ثورة إلى ثورة ينتقل، وفي وجه المُخَنِّصِ  
يشتعل... وُلِدَ بالقاهرة، لأسرة عربية عراقية تَرَحَّتْ إلى مصر.  
تُوفِّي والده وهو في العاشرة، وأُمُّه وهو في الخامسة عشر، فكفَلَتْهُ  
أُخْتُهُ حَرَمَ مُحَافِظِ القَاهِرَةِ... كان خُلْمُ حياته أن يلتحق بالكلية  
الحربية. فَأَتَمَّ دراسته الثانوية، ثم دخل مدرسة الحقوق ولم تَطُلْ  
دراسته بها. فأسرع بالسفر إلى تركيا مُلتَحِقًا بالكلية العسكرية في  
اسطنبول، ومنها إلى كلية أركان حرب التي تخرِّج فيها بنفوق  
مَلْحُوظ في 1905، مُتلقياً علومه على أيدي الضباط الألمان الذين  
أبهروه بجديتهم وانضباطهم وتقديسهم للعمل.

في تركيا، اكتسب شعبية كبيرة وسط الطلاب، كَوْنُهُ من الأوائل  
باستمرار، فأطلقوا عليه "قاهرة لي عزيز علي"، أي عزيز علي

المصري!... وإن حاول أيُّ مُشتغلٍ بالبحث التاريخي أن يتابع نشاط عزيز المصري في السنوات التالية على تحرُّجه، فسوف يلهث وراءه ولا يفقه حَقَّهُ من المُتابعة، فضلاً عن التقدير.

فهو العضو المؤرِّر في جمعية الأتحاد والترقي التركية 1908، الهادفة إلى خلع السُلطان عبد الحميد وإقامة دولة ديمقراطية.

وهو المُشارك في الانقلاب العسكري 1909، المُطيح بالسُلطان عبد الحميد والآتي بالسُلطان محمد رشاد خان.

وهو المُنفصلُ بالعناصر العربية المؤيِّدة له عن جمعية الأتحاد والترقي التركية، بعدما أدرك عداوتها للعروبة والإسلام وعدم إخلاصها في تحرير الشعوب العربية!

وهو المُقاتلُ مع الجيش التركي في الجبل الأسود وبلغاريا وألبانيا!

وهو قائدُ الجيش العثماني لقمع الثورة اليمنية 1911، والمُتمكِّن من حقن دماء الطرفين بعقد صلحٍ مع يحيى حميد الدين إمام اليمن!

وهو المُنضمُّ إلى الليبيين في العام نفسه، والمُجاهد إلى جوار عمر المُختار ضد الطليان في الصحاري الليبية!

وهو المُستقِيلُ من الجيش التركي، المُتفرِّغ للحركات العربية،  
المؤسس لجمعية العهد التي ضَمَّت في عضويتها 315 ضابطاً  
عربياً تحت إشرافه من مُختلف الجنسيات.

وهو المُعتَقَلُ من قِبَل السُّلطات التركية في 1914 بتهمة إثارة  
الشعوب العربية ضد الحُكم العثماني!

وهو المَحْكُومُ عليه بالإعدام من قِبَل المحكمة العسكرية  
التركية!

وهو الثائرةُ بسببه الشعوب العربية لإيقاف تنفيذ الحُكم، وإطلاق  
سراح البطل العربي!

وهو المُتَدَجِّلُ من أجله الأزهر بنفوذه الديني الكبير بقيادة  
الشيخ سليم البشري للإفراج عنه!

وهو الكاتبُ فيه أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة مَدْح  
عصماء يطالب فيها السُّلطان بِفَكِّ أسره قائلاً:

بالله بالإسلام بالجُرحِ الذي • ما انْفَكَّ في جنبِ الهلالِ يسيل  
الآ حَلَلْتُ عن الأسيرِ وثاقه • إِنَّ الوَثاقَ على الأسودِ ثقيل

وهو العائدُ إلى مصر بعد خروجه من سِجنه بدفَعَة الشعب  
العربي كُلِّه!



وهو المُنْضَمُّ إلى الثورة العربية في جزيرة العرب في 1916!

وهو رئيسُ أركانِ ثم قائد أوَّل جيش عربي في الحجاز!

وهو الرفضُ لعرض إنجليزي سخي بأن يكون ملكًا على اليمن مقابل التعاون معهم في العراق والابتعاد عن الثورة الحجازية في جزيرة العرب التي اختلف مع قائدها الشريف حسين لعدم ثقته في نوابها الثورية وفي خلفائه الإنجليز!

وهو المنفِيُّ من الإنجليز إلى إسبانيا عقابًا له على كُلِّ ما سَبَق!

وهو الهاربُ من إسبانيا إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، المُستغَلُّ بالتدريس بكُلِّيَّة أركان حرب ألمانيا، المُدرِّسُ تكنيك معاركه بالجنوب الأوروبي وأسلوب حرب العصابات الذي ابتدعه في جبال ليبيا وصحاريها!

وهو العائدُ إلى مصر بعد منقَى دام طويلًا بعد وصول حزب الوفد إلى الحُكْم في 1924.

وهو المُسافرُ بعد شهور قليلة إلى العراق بعد تلقّيه رسالة سرّية من صديقه وتلميذه الضابط العراقي ياسين الهاشمي، والذي

أصبح رئيسًا للوزراء فيما بعد، يطلب منه سُرعة التوجُّه للعراق  
للمُساعدة في انقلاب عسكري عراقي!

وهو المُستدعى من المندوب السامي الإنجليزي هناك، للتحقيق  
معه بشأن سير وجوده بالعراق، والمُجيب بسؤالٍ على السؤال عمَّا  
يفعله هو الإنجليزي بالعراق وهو الأجنبي عنها، بينما عزيز في  
وطنه العربي الكبير دون حاجة إلى إذنٍ أو تفسير!

وهو الرفض لعرضٍ إنجليزيٍّ مُغرٍ جديدٍ برئاسة شركة النُفط  
العراقية براتبٍ 5 آلاف جنيه - ربما تُعادل 5 ملايين اليوم! -،  
بالإضافة إلى بيتٍ فخْمٍ بلندن مُقابل التخلّي عن دعم ثُوار العراق!  
وهو المُبعُد عن العراق والعايد إلى مصر في 1926.

وهو المُختارُ تقييرًا لعبقريته العسكرية مُديرًا لكَليَّة الشرطة  
المصرية في 1928.

وهو الرائدُ الأوَّلُ للأمير فاروق وليّ العهد بعد إعجاب المَلِك  
فؤاد الشديد بالتطوير الذي أحدثه بكليَّة الشرطة، وذلك قبل أن  
يضيق وليّ العهد به وبصرامته العسكرية، ويستأثر بقلبه أحمد  
حسين باشا الذي استكمل معه المسيرة، ليتغيَّر وجه التاريخ  
المصري وينتهي حُكم أسرة محمد علي!

وهو المَعزولُ بمعرفة الإنجليز من مُنصب فريق ومُفتش عام الجيش المصري، كأول مصري ينال اللقب!

وهو المُتصلُ بالألمان في الحرب العالمية الثانية لدُعْمهم ضد الإنجليز، والهاربُ في طائرة بشكل درامي عجيب من بطش الإنجليز في 1941 - قيل لشأن مُتعلّق بالألمان، وقيل لمُساندة ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الإنجليز بالعراق - بمُساعدة الضابط طيار عبد المنعم عبد الرؤوف، القيادي في ثورة يوليو فيما بعد! وذلك قبل أن يعلن الإنجليز عن مُكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه! ولم يبلغ أحدٌ من المصريين عن بطلم القومي، قبل أن يسقط في أيديهم، ثم يتمّ الإفراج عنه لاحقاً بمعرفة النحاس باشا!

وهو المُساهمُ في تنظيم عمليات المُجاهدين والفدائيين المصريين في حرب 1948 بفلسطين.

وهو الداعِمُ الرئيسي للضباط الأحرار أثناء التحضير لثورة يوليو بعد تعرّفه على السادات، وكان ناصر وصُخبته دائمي الزيارة له لاستشارته في كُلِّ خطواتهم!

وهو الأبُ الروحي لثورة 23 يوليو المصرية، الراضُ منصب رئيس جمهورية مصر العربية عندما عرّضه عليه ناصر قبل الثورة، ليحلَّ محلّه اللواء محمد نجيب!

وهو الناصحُ لـ عبد الناصر بعد نجاح الثورة بعدم قتل فاروق أو محاكمته، وحفّن دماء المصريين والحرص على تجنّب انقسام الرأي العام، والاكْتفاء بتنازله عن العرش ورحيله عن البلاد، خاصّةً وأنه لم يرتكب جرائم في حقّ شعبه، كما فعل عُثْره لاحقاً!

وهو المُوافقُ على تعيينه بعد الثورة كأوّل سفيرٍ لمصر في الاتّحاد السوفيتي لبيدأ مراحل مُبكرة من التفاوض على إعادة تسليح الجيش المصري.

وهو المُقترحُ لخطة توحيد الجبهة عُزب قناة السويس أثناء عدوان 1956 للهروب من فح إبقاء خطوط الجيش المصري الأمامية في سيناء أمام إسرائيل، بلا حماية لظهرها في مواجهة قوات بريطانيا وفرنسا.

وهو المُتوقّي في يونيو 1965 قبل أن يشهد بعينيه يونيو حُزيران الحزين. فكان الله رعوفاً بعنده، فمات قبل أن يناله الدُلُّ، ذلك الذي أبهرّ الدُنيا بكبريائه وزُهدِه!

وهو المُسمّى باسمه أكبر شوارع مصر الجديدة، وأطوّل شوارع منطقة شرقيّ القاهرة، شارع جِسْر السويس سابقاً. لكن المصريين الذين لا يعرفون عزيز المصري، لم يتداولوا الاسم فيما بينهم.

فمات الاسمُ وعاشتْ الأسطورة!

## قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ....!

شَطْرٌ مِنْ بَيْتٍ مِنْ قَصِيدَةٍ مِنْ مَاضٍ...!

هي واحدةٌ من أجمل أغاني التُّراث. يعود إنشادها إلى نحو 13 قرناً من الزمان. وجاء في العِدِّ الفريد لـ ابن عبد ربه أن تاجر أقمشة من العراق زار المدينة المنورة في رحلة تجارية. فباع مُعظم بضاعته ذات الألوان الزاهية، وبقِيَتْ في حوزته مجموعة من البراقع والأقمشة السوداء، لم تجد لها بين النساء مشترياً. وكان التاجر على صِلَةٍ وثيقةٍ بشاعر معروف بلقب الدارمي، وهو أحد ظُرَفَاءِ شعراء الحجاز المُشتهرين في شبابهم بقصائد الغزل العفيف. ثم ما لبث أن زهدَ الشِّعر وتفرَّغ للعبادة... شكَا التاجر حاله إلى صديقه. فسأله الدارمي: "ما تجعلُ لي على أن أحتال لك بحيلةٍ حتَّى تبيعها كُلِّها؟" فأجابه: "ما شئتَ". ولا يعرف أحدٌ على وجه اليقين، إن كان الشاعر قد عقد صفقة مع التاجر، بأن يُرَوِّج له بضاعته، مُقابل نسبةٍ من الأرباح، أم لا. كلُّ ما يهْمُنَا الآن هو تلك الأبيات البارعة التي أنشدها الدارمي، وذلك الأثر البالغ الناجم عنها... خَلَعَ الشاعرُ ثوبَ الزُّهد وهو ينشد أبيتاً من الشِّعر تقول:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ \* ماذا فَعَلْتِ بناسِكِ مُتَعَبِدِ  
قَدْ كَانَ شَمْرٌ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ حَتَّى خَطَرْتِ لَهُ بِيَابِ الْمَسْجِدِ  
فَسَلَبْتِ مِنْهُ دِينَهُ وَيَقِينَهُ \* وتركته في حيرةٍ لا يهتدي

رُذِيَ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ \* لَا تَقْتُلِيهِ بِحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ  
وسرعان ما تَلَفَّفَ الأثبات اثنان من أشهر مُطْرَبِي العَصْرِ،  
سريح و سنان. فَعَمِلَا على تَلْحِينِهَا وَغَنَائِهَا، حتى شَاعَتْ في  
المدينة بين الرجال والنساء. وهنا تَتَفَاوَتْ من جديد التخمينات  
بشأن ما حدث. فمنهم مَنْ قال أَنَّ اقتران الحُسْنِ بالخِمار، قد دفع  
النِسْوَةَ إلى التَهَافُتِ على الخُمُرِ السود. ومنهم مَنْ أَلْمَحَ إلى أن  
بعضهنَّ قد عَرَفْنَ أَنَّ الشاعر المشهور قد رَجَعَ عن نَسْكَه وَرُؤْده  
وعَشِيقَ صاحبة الخِمار الأسود، فلم تَبَقْ مَلِيحةٌ أو غير مَلِيحةٍ إلَّا  
واشترته طَمَعًا في لُفْتِ أنظار الشاعر، فَضَلًّا عن المُحِبِّين! ...  
على أيَّة حالٍ... باع التاجر كُلَّ ما يملك من الأقمشة السوداء،  
ليَتحوَّلَ الخِمار الأسود إلى موضة تلك الحِقْبَةِ، جَدْبًا لسائر بنات  
جزيرة العرب على مَرِّ العصور، بفضلِ فاعلية الدعاية والإعلان،  
والتي جعلت من اللون الأسود للخِمار الاختيار الأول على الدوام!  
وتَرَكَ الدارمي الغِناءَ وَرَجَعَ إلى رُؤْده ولزِمَ المسجد.

وتَمُرُّ الأزمنة على الأمكنة. ولم يُعَدُّ للشعرِ ولسائر صنوف  
الفِكرِ المَنْزِلَةَ التي تُشَجِّعُ أصحاب الشركات وذوي البضائع  
والمُستلزمات على استعمال أديبٍ أو عالمٍ في تزويج سِلْعَةٍ...  
فالمُصدَّقِيَّةُ للمُعْتَبِي، والشعبِيَّةُ للراقصة، والفُدُوَّةُ لللاعب... كما  
يركبون نحلْم، وكما يخلعون نلبس، وكما يأكلون نستطيعم! ...

انقلبت الدنيا في جزيرة العرب وفي كل بلاد العرب. وعندما فتح الله على إحدى شركات الاتصالات للدعاية للمنتج لها على الإنترنت، أتت بعبّاس بن فرناس؛ لا كي تظهره كعالم جليل أو مُغامرٍ صلدٍ خاطرٍ بحياته مُقابل العلم، بل كأحمقٍ فاشلٍ يضع ريشاً تحت إبطه ويسقط على مؤخرته!

قُلْ للمليحة أيًا كانت ملابسها أن تستعمل صنّ بلوك للحفاظ على نضارة بشرتها البيضاء، وصنّ أويل لإكساب ساقئها اللون البرونزي على الشاطئ... وقُلْ لها كذلك أن تترك خمارها إلى جوار دواوين الشعر وريش ابن فرناس في دولاّب الذكريات المضحكة!

## مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا...

لا... ليسَ هذا مَقَالاً في الوَعظِ الديني. وإنْ كانَ الدينُ غَيْرَ بعيدٍ عن كُلِّ ما يَخْتَصُّ بحركة الحياة!

في حياة كُلِّ مِنَّا أمورٌ خاصَّةٌ تزعجه، وأمورٌ عامَّةٌ تفسد عليه أيامه. ويتأمَّلُ ثُورتنا، وفي مرحلة انتقالية تمرُّ بها البلاد، نجد أن المصريين قد انتقلوا من مرحلة التغيير بالقلب، والتي عشنا عليها عقوداً، ننكر على الظالمِ ظلَّمه، نتجنَّبُه ونرفضه، وتدعو عليه أن ينشغل بظالمٍ آخر خارجين من بينهما سالمين. ثم نحسبن، ثم نحوِّق، ثم نصمت في يأسٍ مكبوتٍ! أقول إننا قد انتقلنا من مرحلة أضعف الإيمان، إلى مرحلة انتقالية وسط، هي التغيير باللسان. وهي مرحلة تبدو مُتوقَّعة. يكون التغيير فيها باللسان عن طريق مُظاهراتٍ صاخبة، واعتصاماتٍ جماعية، وحلقات لا تنتهي من برامج التوك شو، وديالوجاتٍ عصبية على فيسبوك يتبادل فيها الناس الآراء، وأحياناً السباب، ناهيك عن الرِّدح!

غير أنَّ المطلوب أن نسعى للعبور إلى مرحلة التغيير باليد. وليس المقصود باليد، تبادل اللكِّمات عوضاً عن الكَلِمات! وإنما الصعود في السلم الثوري وتطوير وسائل التعبير عن السخط، إلى الغضب الإيجابي. فلا نكتفي بالاشمئزاز ومواصلة الصراخ، بل نعدُّ إلى "خلق الواقع المُبتَغى، بدلاً من مواصلة الخُلم به!...



ربما لن يجد القارئ في مُقبل السطور أية أفكار سياسية على الإطلاق، لكن الرنط حاضِرٌ وبِقُوَّة!

-----

كان لَدَى الياباني أكيو موريتا، رئيس شركة سوني، مُشكلة عجيبة تَوَزَّقه. ومن الطبيعي أنها كانت مُشكلة ملايين غَيْرِه حَوْل العالم. ومن الضروري أَنْ هؤلاء الملايين قد فَكَّرُوا في حَلِّ لها. ومن المؤكَّد أَنَّ موريتا فقط هو مَنْ وجد الحَلَّ!... كان موريتا عاشِقًا للعب الجولف، ومُتَمَيِّمًا بسماع الموسيقى. وكان شأن الجادِّين في هذه الدُّنيا، لا يملك الوقت الكافي للاستمتاع بهوايئِهِ المُفضَّلَتَيْنِ على التوالي. لذا كان عليه البحث عن وسيلة تجعله يلعب الجولف ويستمتع للموسيقى على التوازي. ومن هنا نجح في تصميم جهاز الووكمان الذي نزل إلى الأسواق لأوَّل مرَّة في أبريل 1979. وبعد عشر سنوات من ابتكاره، كان قد بيِعَ منه 30 مليون قطعة على كوكب الأرض!... اشتكى الكثيرون من ضيق الوقت. ومن عدم وجود الفُرصة للاستماع إلى موسيقاهم، أثناء الانشغال بأيِّ أمرٍ آخر، مثل الانتقال في المواصلات، أو مُمارسة الرياضة، أو حتى القراءة. لكن موريتا وحَدَه هو مَنْ توقَّف عن التذمُّر، وقرَّرَ لنا جميعًا الاستمتاع بالحياة!... شكراً له!

-----

كانت هذه مشكلة مُزدوجة. تزعج البائع وتورق المُشترِي. وكان الخُلُّ بسيطاً عبقرِيّاً. يصفه عِلْمُ الإدارة بـ Win Win Situation...! حتى 1937، كان المتسوّقون في محلات البقالة الكُبْرَى يستخدمون سَلَّةَ تابعة للمحلِّ، فيضعون فيها ما قاموا بشرائه. وكانت السلال لا تكفي في المُعتاد لإجمالي احتياجات المُشترين، الذين كانوا يضطرون للاكتفاء بما اختاروه، لامتلاء السَلَّة من جهة، ولصعوبة حمل أكثر من سَلَّة من جهة ثانية... وكان الأمريكي سيلفان جولدمان، صاحب شبكتين من السوبر ماركت بولاية أوكلاهوما، يتألّم كثيراً كُلّما رأى زبائنه يتجهون إلى نقاط الدفْع، دون أن يملأ الواحد منهم سوى سَلَّة واحدة فقط. ولم يَبْكِ جولدمان على بضائعه التي تفسد بانتهاء صلاحيتها، أو دخَله الذي حُرِمَ من المضاعفة فيما لو اشترى زبائنه أكثر من سِعة سَلَّة واحدة في المرّة. فقام بابتكار عَرَبَة التسوّق التي يجُرّها الزبون على أربع عجلات، ويملأها بما لَدَّ وطاب من المأكولات والمُستلزمات... وبذا... انتهت مشكلة أصحاب المحال فيما يَحْصُلُ ضعف الزواج وفساد الأطعمة. وانتهت أزمة المُشترين فيما يتعلّق بصعوبة الحَمْلِ وضرورة الاختصار... باسم كُلِّ المُتسوّقين عبْرَ العصور... شكراً لك يا جولدمان!

-----

كُلُّ نساء العالمين يتمنَّين لو امتلكن غسَّالة أطباق، تريحهنَّ من عناء غسيل المَواعين، واستهلاك أياديهنَّ في إزالة القاذورات. وكُلُّ نساء العالمين ينعجنَّ من خادمات البيوت اللاتي تتنافسُن في كسر الأطباق الصينية الثمينة والأكواب الكريستال الفخمة بعد كلِّ عزومة كبيرة... واجدة فقط بينهما، قررت التمرُّد على العناء والخسرة... إنها ربة المنزل الأمريكية جوزفين كوكرين، والتي قامت في 1886 بتصميم آلة خاصة لغسل الصحون، لا تقليلاً للمشقة أو اختزالاً للوقت، وإنما محاولة للخدِّ من مقدار الخسائر التي تلحقها خادماتها بأطباقها الصينية الباهظة عند غسلها، وكسرها!... تطوَّرت غسَّالة الأطباق مع الزمن. ويبقى فضل نشأة الفكرة الأولى إلى السيدة كوكرين التي لم تلجأ إلى طرد الخادمة المهملة. ولم "ترقع" بالصوت وتحشد الجيران للفُرجة على مرمطة الخادمة. ولم تنبِك في خُرقة على ذكرياتها مع الصيني الذي قامت بشرائه بعد شهر العسل... كانت لدى نساء الدنيا مشكلة عويصة. وقامت جوزفين بحلِّها بالنيابة عنهنَّ... لها جزيل الشكر!

-----

كان الطبيب الأمريكي جون جوري مُتخصِّصاً في مُداواة الحميات وبالأخصَّ الملاريا. وكان مُنزِعاً من سوء حالة مرضاه الذين كانوا في حاجة ماسة إلى تبريد مُستمرٍّ للتخفيف من وطأة الحمى. وقد كرَّس جوري الكثير من وقته لابتكار آليَّة تستخدم

التُّج الصِّناعي الذي اكتشفه في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وساعده على اختراع ما يُمكنُ اعتباره أول جهاز تبريد في العالم. وهو ما ساهم في التقليل من حِدَّة الحُمَيَّات وسُرعة التعافي... وتمَّزَّ العقود، وبيَّنكر المٌهندس الأمريكي الشاب ويليس كاربير مُكَيِّف الهواء على عِدَّة مراحل، بدءًا بالرسم النظري في 1902، وانتهاءً بالتصميم العملي في 1911، لِيُسْتَعْمَلَ للمرَّة الأولى في صالة سينما بشيكاغو، مُخَدِّبًا رفاهية غير مسبوقه ومُخَصِّصًا البشرية من التبرُّم من حرارة الجو... ومن الطريف أن كاربير توَصَّل إلى ابتكاره، أثناء مُحاولة حلِّ أزمة تحُصُّ آلة طباعة لا تعمل بكفاءة... فقد طُلِبَ منه التفكير في مُعالجة ما للتفاوت في درجات الحرارة وتأثير ذلك التفاوت سلبًا على أحبار الطباعة. ومن أجل ضبط درجة حرارة المكان، توَصَّل كاربير إلى اختراع جهاز تكييف الهواء! لكن ظَلَّت مُشكلة الضجيج سِمته الرئيسية التي تَحْرِمُ مُستخدِميهِ من التمتع الكامل. فصارت المُعضلة، إمَّا حَرُّ صامِتٌ، وإما بَرْدٌ مُرَعِجٌ!... ولأنَّ سِمَةَ البشرية التكاُمَل سعيًا وراء الكمال، فقد تَمَكَّن مٌهندسو وكالة ناسا بعد كاربير بنحو نصف قرن من القضاء على ظاهرة الضجيج. ويرجع الفضل في ذلك إلى دراسة الكيفيَّة التي تطير بها الفراشات، حيث لُوِحِظَ أنَّ حَوافَّ أجنحتها الأربعة مُزوَّدة بِصِفِّ من الأهداب الطويلة. ولأسباب ديناميكيَّة مُعَقَّدة، تنجح هذه الأهداب في جَعْلَ طيران الفراشات

صامتًا تمامًا! وقد استغلَّ مهندسو ناسا هذه الملاحظة. وعكفوا على دراسة حركة الأهداب. ونجحوا في تزويد المكيفات بمُتَقَوِّسات صغيرة وُضِعَتْ عند أطراف شَفَرَات المَراوِح، فتعلَّبت على ضجيج مكيفات الهواء!... ملاريا. ماكينة طباعة عاطية. فراشات ذات أجنحة... ومجموعة من الساخطين المُبدعين المُنقِضين على نواقص الواقع. شكراً لكم!

-----

كان المَلَلُ دافعَه الوحيد. وكان أمامه حلٌّ من اثنين: إمَّا أن يستقيل من عمله. وإمَّا أن يجعل عمله يستقيل!... هو عامل التلجرف الكندي فريدريك كريد المُولود في 1871. والذي تغيَّرت حياته رأساً على عَقِب، وقام بتأسيس شركة، وذلك بفضل مله من استخدام آلة التنقيب البدائية التي ابتكرها الأمريكي صمويل مورس لتنقيب شرائط الرسائل. لذا قام بدراسة تعديل الوسيلة البطيئة، فاستخدم آلة كاتبة قديمة، نجح بواسطتها في ابتكار آلة تنقب الشرائط الورقية باستخدام مفتاح خاص لكلِّ حرف. واستمرَّ في تطويرها، حتى تمكَّن من صنع جهاز لاستقبال الإشارات وتسجيلها على شرائط مُنقَّبة مُماثِلة لتلك المُستخدَمة في الطرف الآخر من التراسل. ثم توصل إلى جهازٍ أكثر تقدُّماً، يتسلَّم الإشارات ويحلُّ شفرتها، ويطبعاها على شريط ورقي. وكانت حُرْمَة أجهزة كريد هي

المدخل لاختراع التلكس... شتان بين ملل يدفع للعُنف، وملك يدفع للإيجابية. لك خالص الشكر يا كريد!

-----

لهواة جمع طوابع البريد... تخيلوا كيف كان يمكن أن تكون حياتكم صعبة، لو لم تكن الطوابع سهلة الانفصال عن بعضها بعضًا بفعل حروفها المُستننة؟... تعود فكرة استخدام طوابع بريدية مُلصقة على الجوابات، كتكلفة مُقدّرة وفقًا للمسافة المُرسلة، إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. ويُسجل التاريخ أنّ أول طابع بريد يُلصق رسميًا، كان في بريطانيا في مايو 1840، بمعرفة السير رولاند هيل مؤسس الإصلاح البريدي في الجزيرة المُلكيّة. ولمُدّة عشرة أعوام لاحقة، عانى هواة المُراسلة وهواة جمع الطوابع من مشكلة مُزعجة. فقد كانت الطوابع تُصنّع كما هو الحال اليوم في شكل مجموعات مُتلاصقة. وكان انتزاع طابع من المجموعة يتم باستخدام المقصّ أو السكين. وكان في ذلك إهدار لوقت العمل بالبريد من ناحية، وإهدار للمال العام من ناحية أخرى، بسبب تزايد احتمالات القطع الخاطئ الذي قد يُسفر عن تشويه أكثر من طابع في المرّة الواحدة أثناء مُحاولات الفصل!... ولعلاج المشكلة السخيفة، ظهرت آلة تسنين الطوابع من اختراع الإنجليزي هنري آرشر بعد عدّة مُحاولات فاشلة. وسرعان ما تمّ تعميم اختراع الرجل في مُنتصف خمسينيات القرن، ومكافأته بجائزة مالية قدرها أربعة

آلاف جنيه إسترليني... تَبَرَّمَ الآلاف من مُستخدِمي الطوابع حَوْل العالم، لكن واجِدًا فقط قَرَّرَ أن يغضب عمليًّا، وأن يفصل طوابعه عن بعضها بعضًا دون مُخاطرة أو فشل... الشُّكر لك!

-----

كان الأمريكي أَلْمون ب. ستروجر أَحَدَ أوائل المُشترِكين في شبكة الاتصالات في أواخر القرن التاسع عشر. وكان يتعرَّض للمُشكلة تلي الأخرى مع عامِلة السنترال، حيث كانت الاتصالات آنذاك تَمُرُّ عَبْرَ السنترال أولاً. ولمَّا كان ستروجر مُعتلَّ الصِّحَّة مُتوتِّرَ الأعصاب نافِذَ الصبر، ولمَّا كانت عامِلة السنترال باردة المشاعر بطيئة الفهم سيئة التعامل، فقد قَرَّرَ ستروجر أن يَحُلَّ مُشكلته ذاتيًّا، دون تقديم شكوى في العامِلة، وإنما باختراع هاتفٍ يعمل تلقائيًّا دون سنترال. وتَمَكَّنَ بالفعل من ذلك، حاصِلًا على براءة اختراع في 1889. وهكذا صارت مدينة رابورت في ولاية إنديانا الأمريكية، مسقط رأس ستروجر، أوَّل مدينة في العالم تتحوَّل من النظام اليدوي إلى النظام الآلي في 1892! وظلَّت تتمتع بهذه الخصوصية حتى تَمَّت أوَّل شبكة اتصالات آلية في أوروبا في 1909 بمدينة مونشن الألمانية. وكان الهاتف الجديد مُزوَّدًا بقرصٍ يحمل عشرة تقوِّب تتَّسع لطرَف إصبع إنسان. تشير للأرقام من صِفْر إلى تسعة، وعن طريقها يستطيع المُشترِك أن يَطْلُب - ويا للعجب! - بنفسه الرقم الذي يريده، فيزُدُّ عليه المُتلقِّي

في الجهة المقابلة! وسرعان ما تطوّرت أنظمة الاتصالات في العالم، وبشكل فاق كلَّ تصوّرٍ. ولا يسعنا سوى أن نتذكّر ستروجر، ذلك الغاضب الإيجابي، المُنْهَك الأعصاب، الذي غيّر المُنْكَرَ بيديه، ونَفَعَ البشرية من بعده!... شكراً له!

-----

وبعد...

لولا المُنْكَرُ ما تقدّمت الشعوب. لولا المُنْكَرُ ما فكَرت الشعوب. لولا المُنْكَرُ ما تحرّكت الشعوب. أنكر المُنْكَرُ بتغييره، لا بالسخط عليه. ولا تطأبت التغيير من غيرك. ابدأ بنفسك. تعيّر أنت أولاً؛ كي تكون جديراً بتغيير غيرك. معاً سننغيّر، لا معاً سنغيّر. من فضلك لا تنس الناء في "سننغيّر"! هي تاء التواضع لا التعالي، تاء التفاعل لا التراخي، تاء التوكّل لا التواكل، تاء التدبير لا التهليل... سعيًا نحو الأفضل دون انتظار للمأمول من المجهول!



## من على فيسبوك<sup>8</sup>

أول "ستاتس وُصِّعَتْه قبل ثلاث سنوات كان: "قطرة الماء تتفب الحَجَر، لا بالعُنْف ولكن بتواصل السقوط". الشاعِر الروماني أوفيد... ورغم كَلِّ هذا التَشَنُّت والتَفَنُّت، فإنَّ أجمَلَ الأيام هي التي لم تأت بعد، وأفضل الكُتُب هي التي لم أقرأها بعد. ولا أحيِّد التَّرَاوَح بين اليأس والأمل، بل هو التحدي والإصرار والعمل على تغيير الذات والعالم. وإن كان للضوء "سُرعة" تنشره في لحظات بين الأنام، فللظلام "ثقل" يحتاج لهمة تزيحه عن الأيام. وكان بونابرت في انطلاقه لاحتلال أوروبا يقول: "إذا كانت جبال الألب الشاهقة تمنعني من التقدُّم، فيجب أن تزول من الأرض!"... فلنتمسك في يدك معولاً لتخطيم الإحباط والغل، وفي الأخرى بذوراً لتسميد أرضك وفكرك... اشتغل على نفسك كي تشتغل على غيرك!

-----

إنَّ المسلم الحقَّ والمسيحي المُخلص سيجدان من المُشترَكَات ما يفوقُ كُلَّ ما يجمع أبناء الدين الواحد والسلوك غير السوي. صورة فتاتين بالبيكيني على الشاطئ، إحداهما مُسلمة والأخرى

---

<sup>8</sup> معظم هذه الأفكار مُدونة على صفحتي الشخصية بالفيسبوك في 2011. وقليلها على صفحتي العامة في 2012 وحتى مطلع 2013. ويبقى ما أشكو منه، وما أخبِر منه، وما أتمناه... ثابتاً يأتي أن يتغير!

مسيحية، لَيْسَتْ دليلاً على نَبْذِ التَّعَصُّبِ، بل دليل على بُعْدِهِمَا  
مَعًا عن الحياء! صورة رَجُلَيْنِ يُعَاقِرَانِ الخَمْرَ في بار فُنْدُقِ،  
أحدهما مُسْلِمٌ والآخر مسيحي، لَيْسَتْ مُؤَشِّرًا على تَحَضُّرِ الاثْنَيْنِ،  
بل بُرْهَانٌ على الاِشْتِرَاكِ سَوِيًّا في نسيان يوم الحساب!

\*\*\*\*\*

صِدْقٌ أو لا تصدق!... منذ بدأت الثورة في نهاية يناير، فإن  
الكلمة الأكثر شيوعًا أمامي على صفحة الفيسبوك، سواء من  
المُؤَيِّدِينَ أو المُعَارِضِينَ، سواء تدعم الثورة أو تساند النظام... هي  
كلمة: إتفوووو... أحشى أن تغرق مصر في بحر من البلغم!

\*\*\*\*\*

قد نحتاج لسنوات قبل أن تصبح الديمقراطية جزءًا من حياتنا،  
لا نضغط على أعصابنا كي نمارسها، مثلها مثل قيادة السيارات.  
تبدأ مرعوبًا من السير وسط الآخرين، ثم تصبح عملاً اعتياديًا.  
لذا، لم أنزعج من الاستعلاء في أفكار بعضهم، لدرجة أنني سأقول  
لا في الاستفتاء، وسأقول لا لمن يكتب مقالاً عنوانه: "هنقول لأ  
ليه وهنعمل إيه عشان نفهم البُسطاء". بكرة نتعوّد على السواقة!<sup>9</sup>

\*\*\*\*\*

عِلْمِيًّا: تقطع النحلة الواحدة مليون و400 ألف كم لَجَمْعِ ما  
يكفي لتكوين كجم من العسل من رحيق الأزهار. اقتصاديًّا: إن

<sup>9</sup> قبيل استفتاء مارس 2011 بشأن الدستور.

أزْدنا اللحاق بِرُكْبِ الدولِ العُظمى، فلن تتفعنا طريقة الأسدِ مَلِكِ الغابة الذي يرى في نفسه أعظم الحيوانات، كما نرى نحن أنفُسنا أعظم الشعوب دون مُقَوِّمات. لُسْنا في عَصْرِ الأسودِ الكُسالى. نحن في عَصْرِ النحلِ الشُعَّالة. اللي عايز عَسَل "يرتحق"!

-----

عَلْمِيًّا: من المُمكن أن تصعد بقرة السُلْمِ ومن المُستحيل أن تتمكَّن من النزول! سياسِيًّا: من المُمكن أن يقوم ملايين بثورة ومن المُستحيل أن يحكموا الدولة معًا. لذا خلق الله الدستور والبرلمان والرئيس. فيضع الشعب دستوره وينتخب برلمانه ورئيسه ويَدْعُهُما يمثِّلانه. ومن حقِّ الشعب أن يُحاسب برلمانه ويُسائل رئيسه، إن أخفق أحدهما. أما إن أراد الشعب نزول الشارع ليَحْكُم، فعليه أن يواجه مصير البقرة إن أرادتْ نزول السُلْمِ... تتكسر رَقَبَةُ الوطن!

-----

رَمان... تساءَلْتُ كيف لا يقرأ الحزب الوطني تعليقات قُرَّاء الإنترنت أسفل أخبار رموز النظام. واليوم أتمنى أن تشتمل كلُّ حكومة جديدة، في أعقاب الثورة على الذين أسقطتهم غطرتهم، على وزارة جديدة مُلِحَّة: وزارة الفيسبوك والمُجمعات الافتراضية!

-----

في مطلع القرن الثامن عشر وفي ظروف غامضة، وصل قردٌ وحيدًا على متن زورق صغير إلى أحد شواطئ إنجلترا... فقضتْ

محكمة عسكرية بإعدامه شنقاً، بتهمة التجسس لحساب فرنسا!...  
لذا، فربّما يكون أسوأ اختراع في تاريخ العسكرية هو الحُكْم  
العسكري... وقانا الله شرّها وإيّاكُمْ. وأعاد الله حُكْم البلاد للشعب.  
وأعان الله الشعب على نفسه. وأسكن الله الدّبّابات فسيح صحرائه!

-----

"تسمّوننا الشعوب الملوّنة؟ هل تعتقدون أنّنا لا نستطيع تسميتكم  
بالشعوب عديمة اللون؟" القسّ الأمريكي الأسود جيمس روبنسون.  
عندما تتأمّل مثل هذه العبارة، تدرك أنّ النسبية تسيطر على كلّ  
شيء في الكون. وأنّ الحطّ من شأن الآخر، الذي يدين بدين آخر  
ويشجّع فريقاً آخر وله توجّه سياسي آخر ويسمع موسيقى أخرى  
ويرتدي ملابس أخرى ويستطعم أطعمة أخرى... ذلك الآخر الذي  
تراه أنت، هو الآخر يراك أنت الآخر "آخر"!

-----

لماذا تتساقط الأسنان اللبنيّة؟ قد تبدو عديمة الفائدة للأطفال.  
إذ ما نفعها، حيث تنمو وتقع ثم ينمو غيرها؟ لهذه الأسنان وظيفة  
مُحدّدة. فهي تسمح للطفل أن يَلُوك الطعام، بينما لم يبلغ فكّه  
حجمه النهائي بعد. فتلعب دوراً مؤقتاً في فمه، وتحفظ المكان  
للأسنان الضخمة التي ستأتي فيما بعد. وكلّما نما الفكّ كلّما  
تكوّنت الأسنان النهائية، وتمتّ كما بذور الثمار في حديقة وارفة.  
وهكذا هو مستقبل بلادنا. نحن اليوم في طفولة حضارة جديدة.

والواهمون وَخَذُّهم هم الذين يتصوِّرون أننا سنأتي بالبرلمان الأعظم والدستور الأشمل والرئيس الأبرع. نحن في مرحلة انتقالية. وسوف نخطئ كثيرًا في التقدير. وقد نأتي بأسوأ مَنْ يمثِلونا. لكننا نمتلك حقَّ تعديل المسار وتقرير المصير. ونحتاج إلى أسنان لَنَبِيَّةٍ مَوْفَّةٍ تحفظ البلاد من الفوضى، انتظرًا للأفضل والأمتن الذي لم يأت بعد. ولن يأتي غَدًا. لكنه سيأتي عندما ننضح بما يكفي لنستقبل أسناننا النهائية ونُحسِنَ المَضْعَ والكلام... والاختيار!<sup>10</sup>

-----

اصطَحَبَ فَيْلسُوفٌ قُبْطَانًا فِي نُرْمَةٍ بَحْرِيَّةٍ. فَسَأَلَ الْفَيْلسُوفُ الْقُبْطَانَ: "هل تعرف شيئًا من الفلسفة؟" أجاب القُبطان: "لا". فقال الفيلسوف: "فقدت نصفَ حياتك". وبعد قليل هبَّتْ عاصِفَةٌ هَوَّجَاء. فَسَأَلَ الْقُبْطَانُ الْفَيْلسُوفَ: "هل تعرف السباحة؟" فأجاب الفيلسوف: "كلاً". فقال القُبطان: "فقدت حياتك كُلَّها!... فعلى كُلِّ مَنَّا أَنْ يعترف بمزايَا الآخرِ وبنواقِصِ الذاتِ، وألَّا يقضي حياته في تسفيه عيوب الآخرِ وتمجيد ميزات الذاتِ.

-----

أرسل شاب بريطاني سبعمائة رسالة حُبٍ إلى حسانا كان يتمنى الزواج منها، ويطلب موافقتها. وبعد هذا العدد القياسي من

---

على هامش الفوضى الفكرية التي صاحبت شباب الثورة في مرحلة ما قبل الانتخابات البرلمانية في 2011.

الرسائل، وافقت الحسنة على الزواج، ولكن من ساعي البريد الذي كان يحمل لها الرسائل... كل الأمنيات أن تحسن مصر الاختيار!

-----

في دنيا الدواجن، تساءل العلماء عن صياح الديكة. وهل تخلق الزعامة الصياح أم يخلق الصياح الزعامة. فجاءوا بعدد من الديكة وجعلوا كلاً منها في بيت. وقاموا بإحصاء مرآت الصياح، فلم يجدوا فارقاً ذا بال. ثم جاءوا بمجموعة من الدجاج، وأدخلوا الديكة إليها. فقامت معركة بين الديكة، وأسفرت عن ديك أقر له الآخرون بالزعامة. ومنذ أن حمل هذا الديك أعباء الحظيرة، ظلّ يصيح وبصيح، عشرين مثلاً مما يصيح الآخرون. فعرفوا أنّ الزعامة هي التي تخلق الصياح... وفي دنيا البشر، علينا أن نعي الدرس. مشاجرات التيارات والصياح في الميكروفونات، ليست دليل زعامة ولا عظمة... يصيح الديك الزعيم لأنّ مؤهلاته كلّها في صياحه. ولكن لدى بني البشر، فالزعيم هو الذي يتكلم قليلاً ويفكر كثيراً ويعمل أكثر. فلا مصر حظيرة، ولا شعبها من الدجاج!

-----

"متى عاون البعض البعض، فقد استغنى الجميع عن الجميع. ومتى اتكل البعض على البعض، فقد اضطر الجميع إلى الجميع" الفيلسوف العراقي أبو حيان التوحيدي... لكن الشاعر المصري كامل الشناوي ردّ عليه بعد ألف سنة: "بعضي يمزق بعضي!"...

بينما سبق الكلَّ الفيلسوف المصري القديم بتاح حتب قبل 4500 سنة حين قال: "يبدأ الناس حياتهم كالوحوش، ثم يروِّضون أنفسهم، فيتعلَّمون كيف هي حياة البشر الأدمية القائمة على النظام والتعاون، ولكن بعد تجارب طويلة مؤلمة" ... أما آن الأوان بعد كلِّ هذه القرون أن نتألَّم ونتعظَّ ونتعاون ... ونمزِّق تمرُّقنا؟!!



لماذا إذا ذهَبنا في النوم، وَجَبَ علينا تجديد الوضوء، رغم أنه من الوارد أننا لم ننقض وضوءنا؟ ولماذا إذا شربنا سهوًا في نهار رمضان، استكملنا صيامنا دون إثم أو بطلان، رغم أننا استفدنا من الشُّرب؟ في الأولى: يُعَلِّي الإسلام من قيمة الوعي. وفي الثانية: يُعَلِّي الإسلام من قيمة حُسْن النِّيَّة... الوَعْيُ المقرون بحُسْن النِّيَّة نعمةٌ من الله. الجهل المقرون بسوء النِّيَّة شرٌّ من أنفسنا!



كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ له، فلا تجتهد كي تغيِّرَ الآخر ليصير نُسخة منك. وانظُرْ في الطبيعة، تجد قناديل البحر السام يقتل رجلاً بالغًا في دقائق. وفي الوقت ذاته هو غذاء غير مؤذٍ لسُلُفَاة بحرٍ صغيرة. فلا تهزأ بمعتقدات الإخوان والسلفيين، ولا تسخر من أفكار العلمانيين والليبراليين. ولْيُعَيِّرْ كُلُّ تيّارٍ عن حُبِّه لمصر بالطريقة التي تناسبه، ولا يجبر أحدنا الآخر على التُّهَام قناديل البحر!



من أهم أسباب عدم استطاعة البُكم الكلام، فقْدانهم القُدرة على السَّمْع، الذي يقف حائلاً بينهم وبين تَعَلُّم نُطق الكلمات بالمُحاكاة. وعند الصراخ نفقد كذلك القُدرة على الاستماع. وبفقد القُدرة على الاستماع نخسر فُرصة الإنصات. وفي غياب الإنصات يختفي الفهم. وباختفاء الفهم يضيع الوعي. وبضياع الوعي يفسد الهدف. ويصير الصراخ بأعلى صوت مثله مثل الابتلاء بالخرس. لا يسمعك أحد، ولا تسمع أحدًا!

- - - - -

لطالما شغلنتني هذه الفكرة... تقود سيَّارتك في طريق سفر، ثم تلمح في الاتجاه المُعاكس واقعةً ما أسفرت عن تكدُّس المرور. يَمُرُّ الوقت وتجري في طريقك، ثم تلقي نظرة على الاتجاه الآخر، فتجد السيَّارات مُسرَّعة غير مُدركة ما ينتظرها لاجئًا. فهل أنت بذلك قد اطلَّعت على مستقبل هؤلاء؟ هل ساهمت وجهتك المُخالفة وهدفك المُغاير في قراءة مُختلفة للواقع؟ وهل عندما نقول مُصطلح "السنوات المُقبلة"، فإنَّ ذلك معناه أنَّ الزمان يتحرَّك في عكس اتجاهنا؟ ولماذا يُطلَّب منك كعداء أن تجري في عكس اتجاه عقارب الساعة جِفاظًا على أجهزتك الحيوية؟ وهل السير وسط حشود يحركهم عقل جمعي يساهم في الفهم، أم أنَّ العقل الجمعي مأساة تغسل العقول وتمسحها؟... إنَّ الذين يُغيِّرون العالم لهم



مواصفات أخرى خلاف أن يشتم الناس فتشتم، وأن يكره الناس  
فتكره، وأن يبأس الناس فتبأس!

-----

سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ أَنَّ الْكِتَابَ خَيْرٌ جَلِيسٍ، وَأَنَا لَا أَمْلِكُ كَنْبَةَ  
أَجْلَسَ عَلَيْهَا؛ كَيْ أَسْتَضِيفَ جَلِيسًا عَلَيْهَا مَعِي. سَمِعْتُهُمْ يَعْتَرِضُونَ  
عَلَى التَّفْكَيرِ فِي رَفْعِ الدِّعْمِ عَنِ بَنْزِينِ 92، وَأَنَا أَعِيشُ فِي مَسَاكِنِ  
الْإِيوَاءِ مِنْذُ زَلْزَالِ 92. سَمِعْتُهُمْ يَنْتَظَاهِرُونَ ضِدَّ إِيقَافِ لَاعِبِ نَبِيلِ  
فِي نَادِي الْقَرْنِ، خَصَمُوا مِنْهُ نِصْفَ مَلْيُونِ جَنِيهِ، وَأَنَا أَحْتَاجُ إِلَى  
الْقَرْنِ بِأَكْمَلِهِ؛ كَيْ أَقْبِضَ النِّصْفَ مَلْيُونِ. سَمِعْتُهُمْ يَشْجِبُونَ  
التَّاسِيسِيَّةَ، وَتَأْتِيثِيَّةَ بَيْتِي أَنْقَاضَ عَفْشِ. سَمِعْتُهُمْ يَمْتَعْضُونَ لِأَرْمَةِ  
المِيَاهِ المَعْدِنِيَّةِ، وَالمَعَادِينِ فِي مِيَاهِي فِي حَالَتِهَا الصَّلْبَةِ. سَمِعْتُ  
عَنْ ثَوْرَةٍ قَامَتْ فِي البِلَادِ، فَعَزَلْتُ الرِّئِيسَ وَأَطَاحْتُ بِالمَشِيرِ وَعَدَّلْتُ  
الدِّسْتُورَ وَحَلَلْتُ البِرْلَمَانَ وَكَوَّنْتُ الْأَحْزَابَ وَأَلْعَلْتُ التَّوْقِيتَ الصِّيفِيَّ.  
طَيِّبٌ وَأَنَا؟!... مِنْ أَقْوَالِ مَوَاطِنٍ يَسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ!

-----

دَعَتُ إِحْدَى الجَمَاعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ لِلإِفْرَاجِ عَنِ مِبَارِكِ  
والتَّغَاضِي عَنِ جَرَائِمِهِ إِسْوَةَ بَرَسُولِ اللَّهِ الَّذِي عَفَا عَنِ قَرِيشٍ "أَذْهَبُوا  
فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ" عَقِبَ فَتْحِ مَكَّةَ. وَنَبْدَأُ بِتَوْضِيحِ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ  
اسْتَشْهَدُوا مِنَ المَسْلَمِينَ مِنْذُ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَحَتَّى فَتْحِ مَكَّةَ مَرُورًا  
بِمَعَارِكِ ضِدَّ اليَهُودِ كَانَ عِدْدهُمْ 166 فِي 8 سَنَوَاتٍ!... وَرَعْمٌ

غرابية التشبيه وهزليته، إلا أن المرء لا يستوعب كيف نتصالح مع هاتك سافك سارق مارق مُحرق مُغرق على مدار 30 سنة، ولا نتسامح مع مخالفينا في الرأي أو الدين؟؟ فنكفر الليبراليين بالنيابة عن المولى عز وجل، ونرفض تهنئة إخواننا بأعيادهم، ولا نغفر لمن أخطأ في مزحة سخيفة واعتذر عنها<sup>11</sup>، ونجرجه إلى المحكمة بتهمة ازدراء الأديان... ازدراء الأديان... ميكي بلحية وميني بنقاب أشد علينا من شهيد برصاصة... فمن الذي يزدريها الآن؟؟



قبل قرنٍ من الزمان، كان قاسم بك أمين يقول: "أعرف قُضاةً حَكَموا بِالظُّلم؛ ليشتهروا بين الناس بالعدل!" وبعده قال أحمد بك شوقي: "الصالحون يبنون أنفسهم والمُصلِحون يبنون الجماعات". وقبلهما بقرونٍ قال أفلاطون: "نحن نعامل من يقولون لنا الحقيقة على أنهم ألدُّ أعدائنا"... فأما الأولى، فتتطبق على هؤلاء الذين يبتهجون لأخطاء الحاكم؛ كي يهاجموه، ويغضُّون بصرهم عن سليم أفعاله؛ لأنَّ نجاحهم في فشله وخيبتهم في توفيقه!... وأما الثانية، فنتمثل أدوارًا نادرًا ما يلعبها المُبدِعون والمُنتَقِفون وأصحاب الرؤى في بلادنا... وأما الثالثة، فهي ما يعانیه كُلُّ باحثٍ مُتجرِّدٍ

---

<sup>11</sup> بشأن محاكمة رجل الأعمال القبطي نجيب ساويرس في منتصف يناير 2012 بتهمة ازدراء الأديان، بسبب share على الفيسبوك لصورة ميكي وميني!

عن الحَقِّ، فيصيرُ بعيدًا عنك بما يكفي كي يفقد صداقتك، وقريبًا من خصومك بما يكفي كي يحظى بعداوتك!

- - - - -

على هامش فيروس النفاق لرئيس جمهورية مصر العربية في الصُخْفِ القومية والقنوات الرسمية: قديمًا قالوا: "إذا سمعتَ إنسانًا يقول فيك من الخير ما ليسَ فيك، فلا تأمَنُ أن يقول فيك من الشرِّ ما ليسَ فيك!"... وهؤلاء أقوام يُهَلِّلون لك ما دُمْتَ ظافرًا، ويهيلون عليك إنَّ وَقَعْتَ خاسرًا... إنَّ أبواق نفاق الحاكم تصييه بالصَّمَمِ، ثم بالنَّدَمِ... فَتَحَسَّسْ أَدُنْكَ... فَتَحَسَّسْ أَدُنْكَ!<sup>12</sup>

- - - - -

يُحْكِي أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْتَحِلُ عِبر صحراء، فهاجمه أسدٌ. فلمَّا هرب منه، وقع في بئر أثناء جزيه. ثم سقط الأسد خلفه من فرط اندفاعه. فإذا في البئر دُبٌّ، فسأله الأسد: "منذ كم أنت ها هنا؟" قال: "منذ أيَّام وقد قتلتني الجوع". فقال الأسد: "أنا وأنت نأكل هذا الرجل، فنشبع". فعاتبه الدُبُّ: "فإذا عاودنا الجوع ماذا نصنع؟ إنما الرأي أن نقسم له الأ نوديه، ليحتال لخلصنا وخلصه. فإنه أقدر على الحيلة مِنِّي ومنك"... فأقسما له. فأخذ في التَّحِيلِ، حتَّى لاح له ضوؤٌ في جِهَة مُظْلِمَة من البئر. فحفر بها وساعدها. فخرجوا

---

<sup>12</sup> بمناسبة نشر مجلة أكتوبر لصورة غلاف في مطلع حُكْم مرسي، في هيئة فارس على حصان، كناية عن قيادة مصر ببراعة.

من الظُّلَمَات إلى النور، وأنقذ التعاون الجميع! في لحظات فارقة، على المرء أن يتعاون أو يُؤكَل، أن يتنازل أو يموت! رسالة للإخوان المسلمين، لليبراليين، للسلفيين، لليساريين، للفيسبوكيين: تعاونوا، أو اقبعوا في عَثمَة البئر إلى يوم الدين!

- - - - -

وقف رَجُلان خلف شَبَّاك ألومنيوم من قطعتين، أحدهما سلفي والآخر ليبرالي. ودون أن ينظر أحدهما للآخر، استهلاً الكلام أثناء تأملهما للعالم خارج النافذة. فقال الأول: "كيف يتحمّل سَكَّان البناية المُقابِلة ألوان حوائطهم المُصْفَرَّة المُشَقَّقة؟ أتعرف؟ إنَّ مُعظم سَكَّانها من أنصار البرادعي ذلك العميل الذي ذمَّ العراق. فلا عجب أن تكون بنايتهم مُتهالكة!" تجاهل الثاني كلامه، وقال: "ما لهؤلاء الجيران على اليمين لا يعقلون! كيف ينشرون ملابسهم البيضاء مُتسخة دون غسل؟ أتعلم؟ إنَّ هؤلاء من أنصار الشيوخ الرجعيين. فلا عجب أن تكون ملابسهم بالية كأفكارهم!"... وفي هذه اللحظة بالذات، سقطت أمطارٌ غزيرة، وإذا بالماء يمسح التراب من على شَبَّاك الألومنيوم بقطعتيه، وإذا بالبناية المُقابِلة زاهية الألوان سليمة الحوائط، وإذا بغسيل الجيران أبيض بياض الثلج!

- - - - -

بين المفزوعين من قَصِيل يُشاع بأنه سيحبس النساء في بيوتهنَّ ويفرض الحجاب ويقصف عُمر السياحة... والمفزوعين من

فَصِيل يُشَاع بأنه سيجيز للنساء الزواج من أربعة ويبيح العلاقات الجنسية خارج الزواج ويكرِّس القمار والويسكي والبيكيني كعادات يومية... أُبشِّرنا بإذن الله تعالى بأنَّ مصر ستستقرُّ بعد طوفان التنازُّر والتراشُّق والتناحر والتلاسن كسفينة نوح في مجرى نهر النيل العظيم بين أحضان الوادي الحميم... وسنكتشف أننا لا نَميِّزُ بشدَّة هؤلاء المُتطرِّفين في صحاري أفكارنا الشرقية والغربية إلاَّ لكونَ أغلبيَّتنا في الوَسَط على ضفاف السماحة والاعتدال!



أمام المُحيط الواسع، وعلى شاطئه المُمتدِّ، وقف طفلٌ ينظر إلى نَجْمات البحر التي تقذفها الأمواج الهائجة. وبعد ثوانٍ، قرَّر أن يجري نحو النَجْمات المقذوف بها على الرمال. ثم أمسك بإحداها وألقى بها في المُحيط قبل أن تموت. وكلِّما أعاد نَجْمَةً للماء، ألقَتْ له الأمواج بالمئات. لم يكثرثُ لذلك، وراح يقاوم الموج والنتيَّار والهدير... راقبه أحدهم، وهو يحارب المُستحيل، ثم قال له مُشفِّقاً: "يا بُنَى! ألا ترى ملايين النَجْمات قد تتأثرتُ على الشاطئ؟ ألا ترى أنَّ عملك هذا لن يُغيِّر شيئاً؟" ... ابتسم الطفل في إصرار، ثم انحنى مُلتقطاً نَجْمَةً بحر أخرى، مُلقياً بها في المُحيط، وقال في ابتسامة مُنهكة: "لقد تغيَّر مصير نَجْمَة البحر هذه على الأقلِّ"! ... اعمل الخير وازمه البحر. كُنْ مُهدَّباً ولو امتلأ العالم بالوِّضاعة. كُنْ صاحب رسالة ولو انصرفَت الدنيا عن القراءة!

- - - - -

اشترى تاجرٌ غريبٌ عن المدينة كمّيةً من الثمار من أحد المزارعين. فوضّعها على عربةٍ يجزّها حصانٌ، وانطلق بها في اتجاه السوق. وأثناء الطريق، رأى صبيّاً يمشي، فسأله: "كم بقي لأصلِ إلى السوق؟" أجاب الصبي: "إذا تمهّلتَ تصل بعد عشر دقائق. وإذا أسرعْتَ تصل بعد ساعة!... تعجّب التاجر من منطقته، وانطلق في طريقه قائلاً في نفسه: "يا له من ولدٍ أحمق!... وبينما هو مُنطلقٌ في سرعة، إذا بالطريق غير مُمهّدة، وإذا بالثمار تتساقط من العربة. فاضطرَّ لإيقافها ونزل لجمع الثمار. تكرّر الأمر عدّة مرّات، فوصلَ التاجر بعد ساعة، بثمارٍ نصفها معطوب!... بنو وطني! إذا أراد بعضنا سلُق الدستور في عجلة، ودون توافق، بدعوى الاستقرار وبناء مؤسسات الدولة، فلن يئونا سوى المزيد من الهدم وتأجيل النهوض... وقديماً قال الفيلسوف: استعجل ببطء!"<sup>13</sup>

- - - - -

حصيلة 200 دقيقة في طابور الاستفتاء، مُستمعاً إلى حلقة نقاشية مُحتدّمة في أدبٍ بين مجموعة من أنصار لا ونعم، مُنتهيّاً إلى حقائق تاريخية مُذهلة اتفقوا عليها مع استمرار خلافهم السياسي: 1. ظهر المذهب الشيعي في القرن الـ16 الهجري على

<sup>13</sup> بمناسبة أزمة الإعلان الدستوري وتعلُّل كتابة الدستور في نهاية نوفمبر 2012.

يد علي بك الأصفهاني.<sup>14</sup> 2. ابن سينا ليس من مواليد سيناء كما يُشاع، بل من مواليد الشرقية، مثل مرسي.<sup>15</sup> 3. محمد علي باشا تَخَصَّ من علي بك الكبير في مذبحه القلعة، ليصبح هو محمد علي الكبير.<sup>16</sup> 4. قاد مبارك حرب أكتوبر، ثم أنشأ كوبري أكتوبر، ثم وقَّع كامب ديفيد.<sup>17</sup> 5. أقامت الملكة كليوباترا كنيسة كليوباترا في مصر الجديدة قريباً من مَوْضِع طابورنا، ثم دُفِنَتْ فيها بعد أن لَدَغَتْهَا حَيَّة، لِيَتَمَّ تحنيط جُثمانها هناك<sup>18</sup> ولأجل هؤلاء الشباب، على الجانبين، نحتاج دستوراً أفضل، وتعليماً أفضل، ونظاماً أفضل، وثورة ليس مكانها في الشارع!

-----

"إِنَّ الإنسان لو أكل بقرة، فلن يصير بقرة، إنما سيظلُّ إنساناً دائماً!..." الشاعر اللاتيني فرجيل... والمطلوب اليوم بشِدَّة أن

<sup>14</sup> تم إقرار المذهب الشيعي بدلاً عن السُنَّة في إيران في مطلع القرن الـ16 الميلادي، مع صعود الدولة الصفوية.

<sup>15</sup> ابن سينا من مواليد قرية فارسية تتبع أوزباكستان الحالية، ولم يُزر مصر مطلقاً.

<sup>16</sup> كان التوالي محمد علي الكبير في الرابعة من عمره عندما توفِّي زعيم المماليك علي بك الكبير! وسر تسمية الأول بالكبير هو ابنه الأمير محمد علي الصغير المولود في 1833.

وسر تسمية الثاني بالكبير هو شيخ البلد أو محافظ القاهرة علي بك الصغير!

<sup>17</sup> بدأ إنشاء كوبري أكتوبر في نهاية عهد ناصر، وتغيَّر اسمه إلى أكتوبر أثناء استكمال مرحلته عقب نصر أكتوبر، ووقَّع السادات كامب ديفيد سبتمبر 1978.

<sup>18</sup> انتحرت كليوباترا السابعة سنة 30 قبل ميلاد المسيح، بينما تُنسَب الكنيسة إلى شارع كليوباترا، واسمها كنيسة القديس مارمرقس.

نحتفظ بإنسانيتنا!... فلا نبيح القتل، لأنه في صفوف الخصوم،  
والعكس. ولا نفرح لحايد، لأنه وقع عند الأعداء، والعكس. ولا  
ننبد بالحصار، إن كان المُحاصِر من غير جبهتنا، والمُحاصر من  
أنصارنا، والعكس. ولا نبرر لحاكم أخطاءه، التي هاجمناها هي  
نفسها لأنها صدرت عن غيره، والعكس. ولا نؤله زعيم معارضة،  
ثم نتهم غيرنا بالعبيد والخرفان، والعكس. ولا نعصم مُرشدًا، ثم  
نسبُ راعيًا لكنيسة، والعكس... فلنهضم كُلَّ شيء، ولنسمع كُلَّ  
شيء، ولنقرأ كُلَّ شيء، ولنحتفظ بعقول تُميّز، وبضمائر تبصر،  
وإنسانية تنشدُ كمالاً لن تبلغه، لكنها تسعى إليه!

-----

حكاية على هامش الوطن المُهمّش: "كان هناك أربعة،  
أسماءهم: كُلُّ شخص، أيُّ شخص، شخص ما، لا أحد. وكانت  
هناك مهمّة ملحة. طلب من كُلِّ شخص أن يؤديها. لكن كُلَّ  
شخص كان متأكدًا أنّ شخصًا ما سيفعل. وفي واقع الأمر فإن أيّ  
شخص كان يستطيع إنجازها، لكن لا أحد فعل. شخص ما غضب  
لذلك، لأنها كانت مهمّة كُلِّ شخص. وبينما ظنَّ كُلُّ شخص أنّ  
أيّ شخص يستطيع أداءها، فإنَّ لا أحد أدرك أنّ أيّ شخص لن  
ينجزها. وانتهى الأمر بأنَّ كُلَّ شخص ألقى باللوم على شخص ما،  
عندما لا أحد أنجز ما كان في وسع أيّ شخص القيام به!..."

تصوّر الأربعة أنّ الزرع ينمو لأنهم يكترون من البصق على





من المُذهِل أنْ الثَّوْرَة هتفتْ حريّة، بينما يهاجم بعضنا بعضنا الآخر إنْ قالوا رأيهم! ومن العجيب أنْ الثَّوْرَة نادَتْ عدالة اجتماعية، في حين يسخر "العلماء" والأثرياء من الجُهلاء والفقراء الذين سيئون الانتخاب ويتحامقون في الاختيار! ومن المُدهش أنْ الثَّوْرَة طالبتْ ب كرامة إنسانية، فلا يمانع بعضنا في إهانة المُخالفين، حتّى باتوا من الخِرْفان مُستجِبي الذبح في غير أوان العيد!... "عِظَةُ الفم دون الفِعْل، استخفافٌ بالمَوْعوظ وشماتةٌ بالواعظ".  
ميخائيل نعيمة... فلا ترفعْ شعَارًا بيدك، وتدوس عليه بقدمك!

-----

رغم أنّه مسيحي، بس جارنا راجل طيّب... كانت عبارة ترفع ضغطي في صِباي!... اليوم يقولون: رغم أنّه إخوانجي بس عبد القدوس راجل مُحترم!... ومن المؤكّد، أنّ مثل هذا المعنى تجده عند السلفيين تجاه غير المُحجّبات، وعند اليساريين تجاه رجال الأعمال، وعند الأهلاوية تجاه الزملاكوية، وعند الناصريين تجاه الساداتيين، والثوّار تجاه أنصار مبارك، والليبراليين تجاه الجماعات الإسلامية... وإلى أن يحين اليوم الذي تتوازي فيه رغم، ويعي كلّ ذي عقلٍ أنّ الخبيث والطيب، الفاسد والصالح، الكاذب والصادق، ليس جِكرًا على جنس أو جنسية أو دين أو حزب أو نادٍ أو أيّ انتماءٍ كان... فستظلُّ رغم لها السيادة رغم أنف الحقيقة!

-----

هَرَشَ فِي شَنَبِهِ الْمَنَكُوشِ. ثُمَّ أَخْرَجَ بَذْرَةَ جَوَافَةِ مَحْشُورَةٍ فِي  
ضِرْسِهِ الْمُسَوِّسِ الْمَكْسُورِ. ثُمَّ غَمَّعَ فِي تَبْرُمٍ: "يَا أَخِي هِيَ الْبِنَاتُ  
فِي مِصْرٍ شَكَلُهَا مِثْلُ حَلْوِ كَدِّهِ لِيهِ؟ شَايِفَ بِنَاتِ سُورِيَا اللَّي جُمَّ  
بَعْدَ الثَّوْرَةِ، شَايِفَ بِنَاتِ تَرْكِيَا فِي الْمَسْلَسَلَاتِ! جَبْتَا نَيْلَةَ فِي حِظْنَا  
الْهَبَابِ!"... نَظَرْتُ إِلَى كِرْشِهِ الْمُتَدَلِّيِ أَمَامِهِ وَإِلَى مَلَامِحِهِ وَثِقَةِ  
الشَّبَبَةِ بِالْإِلَهِ الْفِرْعَوْنِيِّ خَنُومَ دُونَ قَرْنَيْهِ... ثُمَّ تَسَاءَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ  
نَفْسِي: أَلَيْسَ هَذَا هُوَ مَلْخَصُ وَاقِعِنَا السِّيَاسِيِّ الْيَوْمِ؟؟

-----

يَا عَلْمَانِي يَا عَلْمَانِي الْإِسْلَامُ خَلَكَ تَعَانِي. أَنَا إِخْوَانُ أَنَا  
مَقْطَفُ بُوْدَانِ. كَارِهِي عِلَاءِ الْأَسْوَانِي. إِحْنَا إِخْوَانُ إِحْنَا خَرْفَانِ.  
حَمْدِينَ صِبَاحِي وَاحِدَ حَمِينَا. حَمْدِينَ مِشْ وَاحِدَ حَمُكُمُ حَمْدِينَ  
حَارِقِ دَمُكُمُ... بَدَمْتِكَ يَا شَيْخِ، بِلَاشِ يَا شَيْخِ لِحَسَنِ تَفْتَكْرِنِي  
إِخْوَانِي. بَدَمْتِكَ يَا مَانِ، بِلَاشِ يَا مَانِ لِحَسَنِ تَفْتَكْرِنِي لِيِيرَالِي. إِيهِ  
إِحْسَاسِكَ وَأَنْتِ مُشْتَرِكِ فِي صَفْحَةِ تَحَضُّضٍ عَلَى الْكِرَاهِيَةِ وَالْعَلِي؟  
بِتَبْقَى حَاسِسُ بِإِيهِ وَأَنْتِ بِنْتَشِيرِ مِنْ عِنْدِهِمْ صُورَةَ وَلَا كَلِمَةَ،  
وَحَضْرَتِكَ رَاجِلِ مَحْتَرَمِ وَمَلُؤْ هَدُومِكَ كَدِّهِ؟ عَارِفِ الْحَكِيمِ لُقْمَانَ  
قَالَ إِيهِ لِابْنِهِ؟ عَلَى فِكْرَةِ لُقْمَانَ مَكَانِشِ سَلْفِي وَلَا عَلْمَانِي، دِهْ كَانَ  
رَاجِلِ طَيِّبِ مِنَ النَّوْبَةِ. يَقُولُ: "يَا بَنِّي! كَذِبَ مَنْ قَالَ أَنَّ الشَّرَّ  
يَطْفِي الشَّرَّ. فَإِنْ كَانَ صَادِقًا، فَلْيُوقِدْ نَارَيْنِ، ثُمَّ يَنْظُرْ هَلْ تَطْفِي

إحداهما الأخرى. وإنما يطفئ الخيزر الشرى، كما يطفئ الماء النار  
معاً لانتخاب لُقمان رئيساً للجمهورية!

-----

إنَّ القراءة مثل التنفُّس. فإنَّ امتنعتَ عنها، فأنت نصف ميتٍ  
أو في سبيلك إليه! وإنَّ اقتصرْتَ على القراءة لتتَّار فكري أوَّحد  
ترى الدُّنيا والدين والثقافة والعلوم والتاريخ بعيونه فحسب، فأنت  
كمن يمكث عمْرَه كلَّه في غُرْفة واحدة ضيقة مُغلقة فاسدة الهواء،  
فسرعان ما تختنق وتحتقن وتتطرَّف، بالتزامن مع تلاشي قُدرتك  
على التسامح والتجاوُر والتحاوُر... اقرأ ما يفيدك، وإنَّ استنقَرَ!  
اقرأ ما يصدُقك، وإنَّ أوجعك! اقرأ ما يجعلك تفكِّر، وإنَّ أجهدك!  
اقرأ ما يثير خيالك، وإنَّ صدمك! اقرأ ما يجبرك على احترامه، وإنَّ  
خالفك! اقرأ... وبلا همزة تحت الألف أو فوقها، وإنَّ أزعجك!

-----

من مُدَكَرات كاميرا تليفزيونية!: لَكُمْ زُرْتُ قاعة المؤتمرات  
بصُحبة المخلوع. وسمعتُ حُطْبَه المُمِلَّة، وهَمَّسات الساخِرِين منه  
بالقاعة، المُصَفِّين له بالساعة! لَكُمْ زُرْتُ الإِستاد، ونقلتُ مباريات  
رفعنا فيها الكؤوس، وداخَتْ فيها الرؤوس، وانشغلتُ بها النفوس،  
وسعدَ لها الرئيس! ولَمَّا قامت ثُورة، انتقلتُ بين وجوه يافِعة لم  
أعهدُها، واستدفاُتْ بهتافاتها. ثم غَطَّيْتُ أحياناً دامية، سقطتُ فيها  
بعضُ تلك الوجوه. ولَمَّا انتخِبَ رئيسٌ، تَحَمَّسْتُ لحياة مُختلفة. ثم

فوجدتُ أنني أصطحبه للمساجد وبجولاته حول الملاعب.  
واستغلّنتي الفضائيات لتغطية مظاهرات استعراضية من كلِّ  
التيارات، رُفعت فيها سائر الألوان إلا راية مصر! ولي رجاءٌ أخير  
قبل أن يتقادم موديلي: أخلّم بالذهاب للعمّال في المصانع  
والفلاحين في المزارع والكتّاب في المطابع... أخلّم بتغطية  
المُستغلّ وتعرية المُفتعل!

-----

لَيْسَ "العَدْلُ" أَنْ تَتَسَاوَى فُرْصُ الْفُقَرَاءِ فِي الْمَوْتِ بِالانتقالِ بَرًّا  
وَبَحْرًا. لَيْسَ "التكافؤُ" أَنْ تُفْسِدَ بُقْعَةُ الرِّبِّ النَّهْرَ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى  
شِمَالِهِ دُونَ تَحْرُكٍ. لَيْسَ "التراخُمُ" أَنْ تَهْطَلَ الْأَمْطَارُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ  
فَتَغْرُقَ أَسْيُوطَ وَأَسْوَانَ. لَيْسَ "الإِنْصَافُ" أَنْ يُؤَدِّيَ الرَّئِيسُ صَلَاةَ  
الْجُمُعَةِ بِالصَّعِيدِ وَالذِّلَّةِ وَالسَّوَاوِلِ دُونَ تَفْرِقَةٍ. لَيْسَ "النِّظَامُ" أَنْ  
يَقِفَ الْمَلَائِينُ فِي طَوَابِيرِ الْأَنْبِيْبِ وَالسُّوَلَارِ. لَيْسَ "التكافؤُ" أَنْ  
يَغْسِلَ عَشْرَةَ آلَافٍ حَاجٍ فَاحِرٍ ذُنُوبَهُمْ سَنَوِيًّا بِالمَبْلَغِ نَفْسِهِ الَّذِي  
يَغْسِلُ بِهِ 44 أَلْفَ مَرِيضٍ كَلَاهِمَ. لَيْسَ "الانضباطُ" أَنْ يُعَاقَبَ  
المُدْرِسُ الفَاشِلُ وَالطَّيْبُ المُهْمَلُ وَالضَّابِطُ المُنْتَهَوِرُ بِنَقْلِهِمْ إِلَى  
الأَقَالِيمِ، كَمَا تَدْفِنُ الدُّوَلُ الكَبْرَى نَفَايَاتِهَا فِي الدُّوَلِ البَائِسَةِ. البَلَدُ ده  
مَش عَايزُ وَاحِدٍ عَسْكَرِي يَشْكُمُهُ، وَوَاحِدٌ خَبِيرٌ يَنْصَحُهُ، وَوَاحِدٌ  
شَيْخٌ يَهْدِيهِ. البَلَدُ مَحْتَاجٌ شَبَابٍ فِيهِ حَيْلٌ وَرُوحٌ وَدِمَاغٌ "يَنْتَعَهُ"!

-----

نعرفُ حكاية الزُّوجَة التي كانت تعيش مع حَماتها، وتقاسي من تسلُّطها وتحويل حياتها إلى جَحيمٍ مُستعِرٍ. ثم ذهبَتْ إلى تاجر أعشاب ترجوه أن يعطيها سموماً لتتخلَّصَ من حَماتها. وافق الرَّجُل بشرط أن تُضَع لها عُشباً يقتلها ببطء، على أن تُعَدَّ لها أكلة لذیبة يومياً وتُحسِنَ مُعامِلتها وتطيعها؛ لتبعدَ الشُّبهة عنها. نفَّذتِ الزُّوجَة الخُطَّة، ومَرَّتْ شهورٌ وهي تُعَدُّ أشهى طعام وتتكلمُ أحلى كلام وتصبر على أشرس طباع. وكان من الغريب أن تتبدَّلَ مُعاملة حَماتها وتحبُّها كابنتها وتمدحها أمام الكلِّ ويصير البَيْتُ جَنَّةً! شَعَرَتْ الزُّوجَة بالندم وأسرَعَتْ للتاجر تطلب منه أن يبطل مفعول السُّمِّ. فابتسم الرَّجُل قائلاً: إنَّما السُّمُّ كان في مشاعرك نحوها، فلمَّا تغيَّرتِ تغيَّرتْ!... لماذا لا نجربِ الذوق لِحَلِّ خلافاتنا المسمومة: في البيت والعمل والشارع والسياسة... والفيسبوك!؟

-----

سأفترض أنَّك تفتح اللاب توب الخاص بك ثلاث مرَّات مُتفرِّقة على مدار اليَوْم، لأيِّ غرضٍ كان. وسأفترض أنَّ جهازك يحتاج دقيقتين كاملتين؛ كي يُعَدَّ لاستخدامك. أريدُك الآن أن تفترض ما يلي: لَدَيْكَ كتابٌ في مكتبتك يكوِّن من 180 صفحة. يمكنك أن تقضي دقيقتيَّ تجهيز اللاب توب في قراءة صفحتين منه. وعلى مدار اليوم ستقرأ ست صفحات، وكلُّ شهر ستنتهي من كتابٍ كاملٍ، فقط أثناء انتظار فتح الجهاز! ثم افترض أنَّك تطبِّق الفكرة

نفسها أثناء انتظار المُواصلات، أو في الطريق من مكان لآخر، أو في انتظار دفع فاتورة محمول أو اشتراك إنترنت أو وجبة في مطعم أو في عيادة دكتور. كتابٌ لكلِّ نوعٍ من الوقت المُهدر... فكمّ كتابًا ستقرأ في السنة، دون أن تجلس خَصيصًا للقراءة؟؟

-----

حوار بين ورتقي شجرة توت: الأولى: "وا حَسْرَتاه على ماضينا المجيد، أيام كُنَّا نَسْتُرُ آدم وحواء بالجنّة. الآن صِرْنَا طَعَامًا للديدان أو غُثَاءً في الوديان الثانية: "لا تجتري الذكريات أو تأسفي على ما فات. انتبهي لزمانك وانفعي غيرك في حياتك وبعد مماتك". الأولى: "وكيف ذلك؟" الثانية: "اليوم أوي دودة صغيرة، أطعمها من نفسي وأسقيها من قطر الندى وأسئرها من حرّ الصيف وهجوم الطير. وغداً أموت أملةً أن تقذفني رياح الخريف إلى نهر أطفو على مائه، لعلّي أنجي نملة أو نحلة سقطت فيه!"... هل حياتك مُقيدة لغيرك، أم أنك مُتفرّج على الدنيا، نايمٌ على قُبجها، راضٍ بحُسْنِها، ماضٍ إلى قبرها؟ وإذا فارقتها، فهل تركت ما ينفع الناس، أم أنك رقمٌ أجوفٌ يُضافُ إلى بُنديرة الأحياء الذين ركبوا من المهد إلى اللحد دون أن يفعلوا شيئاً سوى... دَفْعِ الحساب؟

-----

يُحْكِي أَنْ قَطِيعًا مِنَ السَّنَاجِبِ كَانَ يَتَقَافِزُ فِي إِحْدَى الْغَايَاتِ.  
وَفَجْأَةً سَقَطَ سَنَاجِبَانِ فِي بئرٍ عَمِيقَةٍ بِطَرِيقِ الْخَطَا. تَجَمَّعَ الْقَطِيعُ  
حَوْلَ الْبئرِ، وَلَمَّا أَدْرَكُوا عُمُقَهُ السَّحِيقِ، صَاحُوا فِي زَمِيلَيْهِمَا بِأَنَّهُمَا  
مَيِّتَانِ لَا مَحَالَةَ. تَجَاهَلَ الْإِثْنَانِ التَّعْلِيقَاتِ، وَحَاوَلَا الْخُرُوجَ بِكُلِّ مَا  
أُوتِيَا مِنْ عَزْمٍ. اسْتَمَرَّ صَرَخُ الْقَطِيعِ بِأَنْ يَتَوَقَّفَا وَيَسْتَسْلِمَا... وَأَخِيرًا  
انْصَاعَ أَحَدُهُمَا وَتَمَلَّكَه الْيَأْسُ، فَسَقَطَ إِلَى الْقَاعِ مَيِّتًا. أَمَا الْآخَرُ،  
فَلَمْ يَأْبَهُ لِكَلَامِهِمْ، وَأَخَذَ يَقْفِزُ وَيَقْفِزُ حَتَّى وَصَلَ لِلْحَاقَةِ... وَعِنْدَمَا  
تَسَاءَلُوا عَنْ سِرِّ ثَبَاتِهِ، اتَّضَحَ لَهُمْ أَنَّ السَّقْطَةَ الْعَنِيفَةَ قَدْ أَفْقَدْتَهُ  
حَاسَةً السَّمْعِ، فَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ مَحَاوَلَاتِهِمُ الْحَثِيثَةَ لِإِحْبَاطِهِ!...  
عَزِيزِي الْحَالِمِ: سَتُوجَّهَ عَلَى طُولِ الْمَسِيرِ بِهَوْلَاءِ الَّذِينَ يَكْرَهُونَكَ،  
وَيَتَمَنُّونَ لَكَ الْفَشْلَ، وَيَزْعَجُهُمْ تَقَدُّمُكَ، وَيُبْطِطُونَ مِنْ عَزِيمَتِكَ... فَإِذَا  
مَا أَرَدْتَ بَلُوغَ الْقِمَّةِ، فَلَا تَتَّصِبْ إِلَى صَوْتِ الرِّيَاحِ!

- - - - -

حال مصر بعد الثورة، أشبهه بطريق يلزم أن نمشي فيه لبعض  
الوقت في غير الاتجاه المنشود، بحثًا عن U-turn نتقلنا إلى  
مسارنا المرغوب... فالثورة قامت كي يتحسن الاقتصاد ويزيد  
الإنتاج وتسود العدالة الاجتماعية وينعم الفقير بحياة كريمة وتخفني  
المحسوبيات والرشاوى وتتعش السياحة والصناعة والزراعة  
والتصدير ويتحقق الأمن والأمان... وغني عن البيان أن كل هذه  
الأمر إمًا ساعات وإمًا استقرت حول معدلاتها الطبيعية!... النجاة



كُلُّهَا الآن في الـ U-turn، في عدم تفويت الفُتْحَة! وإلَّا نكون كالرَّاعِب في السَّفَر للإِسْكَندرية، فوجد نفسه في ديروط!

-----

جُمُعَة كشف الحساب: 1. كَمْ "ستاتس" وَضَعْتَهُ يَحْضُ على كراهية مُنافسيك السياسيين؟ 2. كَمْ صديقًا كان من نصيبه block أو remove، لأنَّ له رأيًا غير رأيك؟ 3. كَمْ صفحة دَخَلْتَ سَبَبُ صاحبها ثم عَلَّمْتَ unlike عليها، لأنها لَيْسَتْ صدى لصوتك؟ 4. كَمْ مرَّةً شَمَنْتَ في مُخالفك إن أساءوا صُنْعًا؟ 5. كَمْ خَبْرًا نقلته عن الغير، ثم اكتشفت أنه مُفْبِرُك، فلم تعتذر عنه؟ 6. كَمْ مرَّةً أرسل إليك أحدهم رسالة، فرفضت الردَّ، أو note للقراءة، فتجاهلت الـ tag؟ 7. كَمْ مرَّةً أعجبتك عبارة، ولم تضع like، لأنك أكبر من ذلك، أو لأنك مُخْتَلِفٌ فكريًا مع صاحبها؟ 8. كَمْ عيد ميلاد مرَّ على صفحتك، فلم تُقَمْ بتهنئة المُحتَفَى به، بسبب خلفيته السياسية أو الدينية؟ 9. كَمْ مرَّةً شعرت بالِعَلِّ لأنَّ فُلاَنًا قد نجح أو فُلاَنَة قد تزوجت، بينما لم تتقدَّم أنت بعد أو لم ترتبني أنت بعد؟... حاسب نفسك، وحاسب من نفسك!

-----

تابَعْتُ تحرُّك "مُنْتَفِئِينَ" بشأن رفع قضايا على مُتَشَدِّدِينَ حرقوا الإنجيل أو مَرَّقَوْه أو دعوا إلى ذلك بثُهمَة ازدراء الأديان والحضِّ على الفتنَة والكراهية... تَوَقَّعْتُ أمام هذه الخُطوة لسببين: أولاً:

هناك طائفة من مُسلمي العصر الحديث تَهُبُّ لنجدة غير المسلمين على الدوام، ولا تفعل لدينها الذي وَجَدَتْ عليه آباءها، تضامناً مع الحُرَيَّات، وتعبيراً عن الليبرالية المتأصلة في عروقتها. وأصدُقكم القول، هي طائفة تذكّرني بالرجل الذوق الجنّلمان الذي يفتح باب السيارة لزميلته، وباب المِصْعَد لجارته، ويبصق بالمنزل في وجه زوجته!... ثانياً: لا بُدَّ من وضع تشريع صارم يجزّم هذا العبث، سواء بمفدّسات الإسلام ورموزه أو بمفدّسات سائر الأديان ورموزها. فإن خَضَعَ الأمر للتقاضي العشوائي، فلن نصل لشيء، وإن تُركت المسألة لأخلاقيات الناس، فقلّ على السلام... السلام!

-----

عَدَا تَحِلُّ الذكري الموسمية للتحرش<sup>20</sup>... وللتناقض مقدرة!<sup>1</sup>.  
 الالتحام بالمُصلِّين في تراويح رمضان بالجامع الأزهر، ثم الالتحام بالبنات في تفاريح شوال بحديقة الأزهر. 2. وَضَع الحجاب والإقلاع عن الماكياج أول يوم صيام، ثم وَضَع الماكياج وقْلَع الحجاب أول يوم العيد. 3. قَطَعَ آذان العصر لوَصْلَةِ رقص شرقي في فيلم عربي، ثم استئنافها بعد الحديث الشريف. 4. نُذرة المُفْطِرِّين في رمضان، جِزْصاً على رُكْن الإسلام الرابع، ونُذرة المُصَلِّين في باقي الأشهر، تَرْكاً لِرُكْن الإسلام الثاني. 5. مُعاقبة المُتَحَرِّش المُتَجَاوِز مع فتاة بغرامة 200 جنيه، ومُعاقبة السائق

<sup>20</sup> أول أيام عيد الفطر

المُتجاوز لإشارة بغرامة 250 جنيهه. 6. يرهن العربي شرفه بشرف نسوة الأسرة. فإن انحرف سلوك إحداهن، فقد تَمَرَمَع شرفه، بينما لا يُمَسُّ شرفه إن مارس هو الجنس مع كل مومسات الأرض!

- - - - -

هل وَقَعْتَ يَوْمًا فِي الْحُبِّ وَتَمَلَّكَكَ الْوَجْدُ، وَتَخَيَّلْتَ حَبِيبَكَ يِرَاكْ وهو ليس معك، يتابعك رغم بُعْده عنك، فتشعر بنشوة أن يراك تفعل ما يسُرُّه، وتُحْرَج أن تتصرَّف بشكل يزعجه مع أنه غير موجود؟؟ مهلاً، لَيْسَتْ هذه ستاتس رومانسية!... أكثر مَنْ يُحِبُّكَ على الإطلاق، هو الوحيد الذي يراك في كُلِّ وقت، الوحيد الذي لا تعرف معه الْوَجْدَ والنشوة، الوحيد الذي لا تعمل حسابه إن رآك على غَيْرِ ما يسَعِدُ به. تَشْتَم، تهين، تكذب وتنتقل أكاذيب، ولا يهتُرُّ لك رِمْسٌ. تَكَرِه، تَتَرَبَّص، تحقد، تحسد، ولا يخفق لك قَلْبٌ. تِيَّاس، أجل تِيَّاس، واليَّاس معصية، "إِنَّهُ لَا يِيَّاسَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ"، ولا تُبَالِي بِأَنْعُمِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى وَطَنِكَ... "تَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِالرَّحْمَةِ، أَمَا لَوْ كُنْتَ تَدْخُلُهَا بِالْعَمَلِ، لَدَخَلَهَا كَلْبُكَ وَلِبَقِيَّتِ أَنْتِ بِالْخَارِجِ!" مارك توين... فقط قليلٌ من الأدب مع الناس، ومع الله!

- - - - -

فَقَطُّ الْمُعْجَمِ هُوَ الْمَكَانُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَهْزَمُ فِيهِ الظُّلْمُ الْعَدْلَ، وَتَأْتِي فِيهِ الثِّمَارُ قَبْلَ الْكِفَاحِ، وَيَتَفَوَّقُ فِيهِ الْفَسَلُ عَلَى النَّجَاحِ...

ولم يَكُنْ النَّصْرُ قَطْ مِنْ نَصِيبِ مَنْ يُوجِّهُ الضَّرْبَاتِ، بَلْ مِنْ حَظِّ مَنْ يَتَحَمَّلُ الضَّرْبَاتِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ أَوْسَى مَعَارِكِهِ أَكْثَرَ صَلَابَةً!

-----

وَاهِمٌ مَنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الثَّوْرَةَ تَعْنِي إِسْقَاطَ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ مَعَ بَقَاءِ كُلِّ عَوَامِلِ الانْتِحَالِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالِدِينِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ... أَنْ أَكُونَ سَاقِلًا جَاهِلًا مُتَعَصِّبًا ثُمَّ أَضِيفُ عَلَى خِصَالِي الْحَمِيدَةَ لِقَبِ ثَائِرٍ أَوْ دَاعِيَةٍ أَوْ نَاشِطٍ أَوْ شَيْخٍ، فَذَلِكَ أَشْبَهُ بِمَنْ يَضَعُ شِعَارَ مَرْسِيدٍ عَلَى عَرَبَةٍ كَارُوا لِيَسْبِقَ الْأَتُوبِيْسَ!

-----

جَرَّبْتُ أَنْ تَضَعُ قِطْعَةً مِنَ التَّلْجِ فِي كُوبِ مَاءٍ. وَانظُرْ مَا تَرَى!... تَرَى الْمَاءَ فِي حَالَاتِهِ الثَّلَاثِ. فَالْمَاءُ بِالْكُوبِ سَائِلٌ. وَالتَّلْجُ الطَّافِي عَلَى سَطْحِهِ جَامِدٌ. وَبُخَارُ الْمَاءِ الَّذِي يعلوه غَازِي... وَيُمْكِنُ لِهَذِهِ الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ أَنْ تَبْقَى فِي حَالَةِ اتِّزَانٍ عِنْدَ دَرَجَةِ حَرَارَةٍ وَضَعْفٍ مُعَيَّنَيْنِ، مَا يُسَمَّى بِنَقْطَةِ الْإِتِّزَانِ الثَّلَاثِيَّةِ... يَتَعَايَشُ الْمَاءُ مَعَ التَّلْجِ مَعَ الْبُخَارِ فِي كُوبٍ وَاحِدٍ فِي اتِّزَانٍ ثَلَاثِيٍّ يَكْفُلُ لَهُمُ الْوُجُودَ الْمُسْتَمَرَّ، وَعِلْمِيًّا يُمْكِنُ عِنْدَ هَذِهِ النِّقْطَةِ أَنْ تَتَحَوَّلَ أَيَّةُ حَالَةٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْأُخْرَى، مَعَ بَقَاءِ حَجْمِ كُلٍِّ مِنْهَا ثَابِتٍ لَا يَتَغَيَّرُ... وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَجْدُرُ بِالْمَرْءِ أَنْ يَتَأَمَّلَ صُنْعَ اللَّهِ وَأَنْ يَعِي مَا يَلِي: لَا يُوْجَدُ مُجْتَمِعٌ صَحِّيٌّ كُلُّهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ الْأَغْنِيَاءِ، أَوْ الْأَذْكِيَاءِ،

أو الأطباء، أو الأدباء. المجتمع حصيلة مُتَزَّنة من كل الأطياف.  
سلفي صلب، ليبرالي سائل، يساري مُتَبَخَّر... انسجام مأمول!

-----

الثورة مُستمرّة: لَيْسَتْ الثَّورَةُ ثَأْرًا أو شِعْرًا، لَيْسَتْ عيدًا أو  
نشيدًا، لَيْسَتْ ذِكْرَى أو سَهْرَةً... الثَّورَةُ سلوكٌ وحياءٌ، زكاةٌ وصلاةٌ.  
الثَّورَةُ مكتبةٌ ومَعْمَلٌ، مَصْنَعٌ ومَشْعَلٌ. الثَّورَةُ بالمعرفة لها أجنحة،  
ودونها جثامين في مَشْرَحَةٍ... اقْرئني يا بلادي، ثورتي مُستمرّة!

-----

تابَعْتُ مذبحة الكتب بالإسكندرية<sup>21</sup>، وتداعَت التساؤلات: كيف  
تُعَامَل الكتب على أنها إشغالات للطريق، بينما لا تُعَامَل الشرايات  
والفانلات والحبسَة على أنها كذلك؟ كيف نتباكى على سوء مُعاملة  
الكتب مثلما تباكينَا على المَجْمَع، رغم أننا لم نعرف بأمر الثاني  
سوى بعد حريقه، ولا نقرأ الأولى إلا كي نمتحن فيها؟ كيف تتكَلَّف  
نُسخة كتاب 8 جنيهات لإصدارها، ثم تُعْرَض بـ80 جنيهًا لبيعها،  
ثم ندَّعي حرصنا على نشر الثقافة بين الناس؟ كيف نتفادى أزمة  
حقوق الملكية الفكرية فنمنع سرقة الكُتُب على الإنترنت، ونتجنَّب  
في الوقت نفسه مُعاناة غير القادرين الراغبين في القراءة؟... "إذا  
مُنِع العِلْمُ عن العامّة، فلا خَيْرَ فيه للخاصّة". الإمام مالك... "مَنْ

---

<sup>21</sup> الحملة الهمجية لرجال الشرطة على بائعي الكتب على الأرصفة في النبي دانيال.

لا يستطيع القراءة، أفضل ممَّن لا يريد". مارك توين... وفي  
العبارتين تكمن مذبحة الكتب الحقيقية!

- - - - -

عندما تَمُرُّ سيارة إسعاف بسريرتها المعهودة، فهناك مَنْ  
يفسحون لها الطريق، وهناك مَنْ يستغلُّونها لينطلقوا في أثرها...  
عندما تَمُرُّ سيارة إسعاف بسريرتها المعهودة مع خُلُوقها، فهناك مَنْ  
يتعمَّدون إعاقتها بحُجَّة أنَّ السائق يحتال للعبور، وهناك مَنْ  
يعاونونه بغرض أنَّ السيارة الخاوية في طريقها للنجدة... عندما  
يحتاج الوطن إلى سيارة إسعاف بسريرتها المعهودة، فنحن أمام مَنْ  
يبتغون قيادتها لإنقاذ ذويهم وحدهم، وأمام مَنْ يبتغون عرقلتها  
طالما لن يتمتَّعوا بنشوة الضغط على سريرتها، ونحن أمام المُفسِّحين  
والمُنتهزين والمُسكِّكين والمُتأفِّقين وأصحاب النوايا الطيبة والسوءاء  
والتي لا يُعرفُ لها لون... عندما تَمُرُّ سيارة إسعاف بسريرتها  
المعهودة، فلندعُ الله ثلاثاً: أن تكون صادقة، أن تكون مُسعِّفة، وألاً  
نحتاج مُجدِّداً إلى مرور سيارة إسعاف بسريرتها المعهودة!

- - - - -

إذا ما ظهرَ صوتُ خَلَلٍ ما في سيَّارتك أثناء القيادة، وظلَّ  
الصَّوتُ تتضاعف حدُّته مع الأيام، فأمامك طريقان: إمَّا أن تذهب  
بالسيارة إلى الورشة؛ كي تُصلِّح العطل. وإمَّا أن تُعَلِّي صوتَ  
الراديو؛ كي لا تسمَع العطل!... موتور الوطن مجروح!



قراءة التاريخ أمرٌ لا مَفْرُ منه للوَعْي والعِظَة، ولكن بشروط: لا تقرأ كتابًا واحدًا، وتستقي منه عِلْمَك. لا تتقلّ فَناعات غيرك المَبْنِيَّة على أيديولوجيَّاته هو، ثم تعتبرها من المُسَلِّمات التاريخية. كي تقرأ عن فترة رَمَنِيَّة مُحدَّدة، عليك بالرجوع عِقْدَيْن إلى الوراء والتقدُّم عِقْدَيْن إلى الأمام، لتستوعب العِقْدَ الذي تبحث فيه، مثل امرأة نُفَصِّل زِيًّا، فتشتري أمتارًا زائدة؛ لينضبط مقصُّها! وأخيرًا، لا تعتمد على فيسبوك وويكيبيديا والتوك شو، قبل أن تجتهد طويلًا لتتأكد أنهم جميعًا لم يعتمدوا على المَصْدَر المُضَلَّل ذاته!... إِنْ فَعَلْت، فلن تعمل شير لمُعظم ما تقرأ، بما فيها هذا "الستانس"!



يعني إيه حُرِّيَّة شخصية؟؟ يعني أن تكون مُسَلِّمًا مُنْهِيًّا عن شُرْب الخمر، وتقف شُرطة السياحة تحمي الفندق الذي تشرب في باره!... يعني أن تكون مُسَلِّمًا مُنْهِيًّا عن الزنا، وتمتّع الدولة عن تنفيذ حُكْم القضاء بإغلاق المواقع الإباحية، لأنك غير قادر على الزواج، أو غير راغب فيه!... يعني أن تكون مُسَلِّمًا مُنْهِيًّا عن قتل النفس التي حرَّم الله، وترفض الإقلاع عن السجائر التي تفتلك وتقتل معك أطفالك، لأنك دونها عبدٌ ذليلٌ للصداع والتوتر والعجز عن الإبداع والتركيز!... يعني إيه حرية شخصية؟؟... يعني أن يأتي واحدٌ مثلي يقول لك: فَكِّر في حُرْمَانِيَّة ما تفعل! فتجيبه: أنت

تصايرِ حريتي وترجع بنا إلى عصور الظلام... حَقَّكَ عَلَيَّ يَا  
أخي، ولَمَّا تُعْرَضُ عَلَى ملائكة الحساب، لا تَنْسَ أن تَنْتَبِهَهُمْ أَنَّكَ  
موديل 2012؛ كي يحاسبوك بِسِعْرِ السُّوقِ!

-----

س: هل إذا أزعجك جارك بتشغيل القرآن فجزاً بصوت عالٍ  
أيقظك من نومك ستسامحه، بينما إذا شغل الأغاني الصاخبة  
ستعقِّفه؟ ج: رغم الفارق الأخلاقي بين الاستماع إلى آيات الذكر  
الحكيم أو إلى وصلة ذرْبَكَّةَ وأكورديون زاعق، فإنَّ الإيذاء واحدٌ  
والسلوك مرفوض... قَطْعَ طريقٍ أو إغلاق كويري مرفوض، أيًّا  
كان القاطع وأيًّا كان الدافع. حِصَارُ مُنْشَأَةٍ عامَّةٍ أو خاصَّةٍ  
مرفوض أيًّا كان السبب وأيًّا كان الغضب. الاعتداء على مَقَرِّ  
حزب مؤيِّدٍ أو مُعارضٍ مرفوض أيًّا كان الخِلافُ وأيًّا كان  
الهِتاف... وإذا كان الماءُ الملوَّثُ يطفئُ الحريقَ مثله مثل الماءِ  
النظيفِ، فإنَّ الماءَ العَذْبَ يغرقُ الغريقَ مثله مثل الماءِ المالحِ!

-----

أريد أن أتجاوزَ فِكْرَةَ عيدِ الأُمِّ النَّمَطِيَّةِ، إلى مفهومِ عطاءِ المرأةِ  
بشكلٍ عام، وفي مصر على وَجْهِ الخصوص. فسواء كانت المرأةُ  
أُمًّا أو زوجةً أو ابنةً في بيتِ أهلها، فهي تقومُ بأدوارٍ مُضاعفةٍ  
تستحقُّ عليها التَّكْرِيمَ. فهي كِ بِنْتُ تَتَعَلَّمُ وأخوها يَتَعَلَّمُ، لكنَّها  
تساعدُ أُمَّها في أعمالِ المنزل، بينما يشاهدُ هو مبارياتَ برشلونة



على الدش. وهي ك زوجة تعمل وزوجها يعمل، لكنها تطبخ  
وتغسل وتكنس وتكوي، بينما يدخن هو الشيشة مع أصدقائه على  
المقهى. وهي ك أمّ تحمل وتنجب، بينما يُنسب الأطفال إلى الأب،  
لكنها كذلك تُربي وتدرّس، بينما يكتفي الأب بالهئية والشخيطة. وهي  
ك أرملة محظور عليها بدء حياة جديدة، وإلا تكون قد خانت  
زوجها رغم أنه مات! بينما هو ك أرملة محظور عليه أن يظن  
وحيداً، دون أن يجد من تُربي له أبناءه وتلبي احتياجاته...  
باختصار: هي... الدنيا!

- - - - -

عزيزتي البنت الثورية! لا تسخري من مطالب غلق مواقع  
البورنو. فالمتحرشون بك في الشارع بالعين واللسان واليد، إنما  
يجربون فيك عملياً ما يمتعهم افتراضياً! وإن تزوجت، فزوجك  
عازف عنك بالفُرجة!... عزيزي المتاجر بالحرية! لا تكن عبداً  
لعضوك الذكري!... عزيزي المتاجر بالدين! لئست المرأة عورة  
تشع غرائذك بما لا يخالف شرع الله!... عزيزتي السينما! لئست  
المرأة سلعة لتغطية نفقات المنتج!... عزيزي المتقف التقدمي! لا  
تهذ بقولك: مش وقته! فلن يعرقل الحجب الفصااص وحل أزمت  
الأمن والنظافة والبطالة والمرور!... عزيزي فيسبوك! البورنو زنا  
عن بُعد، فاحجل من دفاع عن إثم!... عزيزي المجتمع! حارب  
الشّر المطلق، ودع الرمادي للضمير يبيّضه!... عزيزتي الدولة!

لن يكفي الحَجَبُ، سيهزيمونه! نريد تربيةً وتعليمًا، فلا يَصْلَحُ  
تجفيف الماء أثناء هطول المطر!

- - - - -

في السَّادِسة صَبَاحًا، ناظِرًا له من وراء النافذة، مُتَأَمِّلًا نَتَقَّلُه  
المُتتاقِل بين السيارات لَمَسِحِها، مُلاحِظًا نَظراته المُدَقِّقة بداخلها،  
ربما يلمح سي دي أو نظارة شَمْس أو باكو بسكوت نَسِينه صاحبه،  
ومُراجِعًا كيف يتعامل معه السُّكَّان بِقَسوَة ووعيد إن نسي سيارة، أو  
لم يتقرَّن مسحها، أو تأخَّر في ذلك... ثم مُتَسائِلًا عن أحلامه في  
الدُّنيا، وعلاقته بالثورة... هل يحلم يَوْمًا أن يمتلك سيارة مما دأب  
على مسحها، ولو أحقر السيارات وأقدمها؟ هل يطمح يَوْمًا في  
تغيير مهنته؟ وهل يجيد أمرًا خِلاف مَسَحِ السيارات؟ وهل أساسًا  
يجيد مَسَحِ السيارات؟ وهل يرضى بها مِهنة إن احترمه الناس وإن  
أشفقوا عليه من صقيع الشتاء وتراب الربيع ورياح الخريف وحرارة  
الصيف؟ إن كُنتم تتشاجرون حَوْل شَرع الله، فهل تشملونه به؟؟  
وإن كُنتم تهتفون لحقوق الإنسان، فَلِمَ تتعالون عليه كُلَّ صباح؟؟

- - - - -

لَيْسَتْ هذه نُكْتة! يلتحق ابن المَشْهُور أو المَيَسور بالمدرسة،  
فَيُلاحِظُه مُعَلِّمٌ مُتَمَلِّقٌ ويسأله: "كَمْ يساوي 2+2 يا حبيبي؟" فيجيب:  
"ثلاثة". فيهتف المُعَلِّم: "برافو! اقتربت! صَفِّقوا له يا أولاد!"...  
ويذهب تلاميذ مدرسة دولية لأداء امتحان الإعدادية في مدرسة

تجريبية، فتُعالمهم الدادات كسَيَّاح!... ويتجاوز على الكوبري  
أثوبيس مدرسي فاخر يَضُمُ طَلَّبة ثانوي من الجُنسين، شكلهم خُلُو،  
لبسهم نظيف، مع ميكروياص مُهترئ مُكْتَظُّ بطَلَّبة مدرسة  
حكومية، فيتبادلون النُّظرات: استِعلاء ونفور وخوف مُقابل جِزْمان  
وانكسار ورغبة!... ويمتنحن قِسْم اللُّغات مع قِسْم العربي في مُدْرَج  
جامعي واحد، فيلعن المُشْرِف الطَّلَّبة الـ local مُحَدِّرًا إِيَّاهم من  
العِشِّ، وبيتسم في وَجْه "الخَوَاجات" مُستبَعِدًا سوء النِّيَّة!... ثم  
يتخرَّج الجميع، فلا يشغل الوظائف المُميَّزة ذُوو المَجاميع العُلَيَّا،  
بل ذُوو النفوذ في الدُّنْيَا!

-----

ذات يَوْم، ادَّعى صانع أُسْلِحَة أَنَّهُ الوحيد الذي يبيع أَفضل  
الرِّماح، والوحيد الذي يبيع أَفضل الدروع. وكان يُرَدِّد دائِمًا:  
"دروعي لا يُمكن لرُمح أَن يخرقها. ورِمَاحي تنقب أَيَّ دِرْع يقف  
في طريقها". فسأله أَحَدُ الخُبَّاء: "لو رَمِينَا رِمَاحك التي لا يَصُدُّها  
أَيُّ دِرْع، على دروعك التي لا ينفذ منها أَيُّ رُمح. فما الذي  
سيَحْدُثُ؟"... فهل نَجِدُ الإجابة عند جماعة الإخوان المُسلمين؟؟

-----

ينصحنى بعضهم مُخْلِصًا بأنَّ أتوقَّف عن انتقاد مُمارسات  
السُّلْطة والمُعارضة مَعًا، لأنني هكذا أخسر قُرَاءً على الجانبين!...  
ورَدِّي على النصيحة: أنا لا أَكْتُبُ كي يرضَى عَنِّي الناس! ولا

يدهشني مع كُلِّ "بوست" جديد أن أفقد أعضاء قدامى! إنَّما أكتب ما أؤمن به. وأتوقُّ أنَّ الكُتلة الوَسْطية ستزدادُ رسوخًا، لأنَّ المُتَعَصِّبِينَ أزعجوا الناس بما يكفي. ونصيحتي أنا للذين يفرون من صفحتي إذا ما قرأوا رأيًا مُغايرًا: أنت الخاسر بإصرارك على الاستماع إلى صدَى صوتك وحده! فإذا كُنْتَ من التَّيار الإسلامي، فالدين النصيحة! وإذا كُنْتَ من التَّيار الليبرالي، فقبول الآخر ضرورة حياة! وإذا كُنْتَ من هنا أو من هناك، وتَصَوَّرْتَ أنَّ بامتناعك عن رؤية أفكار الآخرين، ستلغي هذه الأفكار من الوجود، فأنت كمن يُنزِعُ اللَّمَّصَ من النَّجفة، كي يقطع الكهرباء عن البيت!

- - - - -

الحياة نموتها... والموت نَحْيَاه!... وبين الحياة والموت رحلة... بلُغَة المساحات، نأتي للحياة في لُفَّة تشغل قدمين، ونغادرها في كَفَنٍ يشغل 5 أقدام، فنكافح طوال العمر من أجل 3 أقدام زيادة!... وبلُغَة المسافات، نخش دنيا من باب قاعة المسجد الأمامية فنعقد القرآن على يد مآذون، ونخرج منها من باب قاعة المسجد الخلفية، فنرقد في تابوت على يد حانوتي. وهكذا نقضي 30 أو 40 سنة من أعمارنا، نقطع فيها مسافة 30 أو 40 مترًا بين البابين!... وبلُغَة الكلمات، يستقبلنا الناس ب بسم الله ما شاء الله، ويؤدِّعوننا ب لا حول ولا قوة إلا بالله!... نتكالب على كُلِّ شَيْءٍ وأيِّ شَيْءٍ، وتدَّعي وفتعل من أجل لا شَيْءٍ. صراعٌ على جاهٍ

ومالٍ وسلطنةٍ وشهوةٍ وشهرةٍ... وتبقى العلاقة الأبدية بين الدنيا والآخرة تقول: س / ما لا نهاية = صفر!

-----

لم توجد قط معركة بين حقين! فالحق واحد، مصدره إله واحد، وقبم عادلة لا تتبدل. عرفت البشرية معارك كبرى بين حق وباطل، لكنها عرفت معارك أكبر وأكثر بين باطلين! ومن علامات معارك الباطلين أنها تطول وتتسع ويصعب حسمها، وقد تسفر عن خاسرين بلا فائز!... يقول تعالى: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً". والزهوق هو الهالك الزائل. وصيغة المبالغة تعني أنه دائم الفناء سريع الزوال. وبالعامية زهق أي مل، لكنه مل وجود!... فمن فضلك تابع ما يجري على الساحة، فإن كنت تراه صراع حق وباطل، فلا تبال، النصر آت! وإن كنت تعتقده صراعاً يجند فيه الباطل لخدمة الحق، فلا تيأس... كلهم إلى زوال!

-----

إلى كلِّ الحالمين بـ "وطن بلا إخوان وبـ "وطن بلا علمان وبـ "وطن بلا ثوار وبـ "وطن بلا يسار أحذركم بأننا قد نحظى بـ إخوان وعلمان وثوار ويسار، ولكن... بلا وطن!

-----

من تأملات الضوء والعنمة!... حَزَجَ رَجُلٌ لَيْلًا. وبينما هو يمشي في ظلام حالِك، إذا به يلمح أعمى يحمل إناءً وفي يده

مصباح. فتابعه، ووجدته يسير ببُطءٍ حتى أتى النهر، فانحنى يملأ إناءه، ثم عاد من الطريق نفسه... اندهش الرجل مما رآه، فنادى على الأعمى قائلاً: "يا هذا! أنت أعمى، والليل والنهار عندك سواء. فلماذا تحمل سراجًا في يدك؟!..." أجابه الأعمى في لُطفٍ: "إنما حَمَلْتُهُ معي للسارحين الهائمين المُعَيَّين ليستضيئوا به. فَرُبَّمَا مَرَّ أَحدهم بي في طريقي، فَيَعْتُرُّ بي ويقع عَلَيَّ، فيكسر جَرَّتِي!..." وهذا هو الفرق بين الفاسد والمُفْسِد، والصالح والمُصْلِح! وليست إعانة المحتاج سوى استزادة للواهب! وإماطة الأذى تسبق إلحاق الأذى! والذين يقابلون الإساءة بالإحسان والعِلَّ بالتسامح، ينفون النَّفْيَ فيثبتونه، ويعمون الظلام فيضيئونه!

-----

أَيَا شَعْبَ يَا واقِفِ على باب النهار: التباين سِمَةُ الكَوْنِ وسِرُّ بقائه. والتعاون سبب تَقَدُّمِ شعوبٍ، وغيابه مَكْمَنٌ تأخُرُ شعوبٍ. كُلُّنَا نشترك في أمورٍ ما، هكذا تقول أشكال قُن. والميدان كان مُلْتَقَى الدوائر، ومَحَلُّ الاتِّحَادِ والتلاقِي. احضنوا ثورتكم بالبحث عمَّا يجمعكم، وبالوعي بما يفرِّقكم، وباحترام ما لا تتفقون عليه. لا تجعلوا بُنيان الثَّوْرَةِ ينهار بنَحْرِ السُّوسِ وقَضْمِ الفئران. فعندما يأتي الطوفان لن يفرِّق بين مُخْطِئٍ ومُصِيبٍ. فَلَيْسَ بَيْنَنَا نوحٌ ولَيْسَتْ لَدَيْنَا سفينة. تعانقت العزائم ذات يوم، فانتصر الشعب على نفسه وعلى مَنْ ظَلَمَهُ. ألا هل بَلَّغْتُ، اللهم فاشْهَدْ!

## العز بن عبد السلام

اليوم استقرّ أمري في مُلكي!

قالها الظاهر بيبرس مُشاركًا في حَمَلِ نَعشه، مُصَلِّيًا عليه بين قُواده، ماشيًا في جنازته المَهيبَة التي خَرَجَتْ فيها جموع الشعب من رجال ونساء وأطفال يملأون المسافة بين جبل المُقَطَّم والقلعة في حشود مُمتدَّة، يُودِّعونه إلى مثواه الأخير عند سفح الجبل في 1262 عن عُمُرٍ تجاوزَ الثمانين، قضى منه رُبعَه الأخير بمصر، وثلاثة أرباعه في دِمَشق التي خرج أهلها بالتوازي يُصَلُّون عليه في المسجد الأموي، ويقفون سُرَادِقِ العزاء في كُلِّ مكان.

رَحِمَ الله ابن عبد السلام. فغَيَّره من رجال الدين يموتون اليوم، فيحزن الحاكم لفرآقهم. إذ يُوقِّرون له الغطاء والفتاوى، ويستخرجون لأجله من القرآن والسُنَّة وكُتُبِ الغابرين كُلَّ ما يمكن تأويله وتأييفه وتستيفه... حتى لا يخرج الشعب على سُلطانهِ الجائر، وحتى لا تَأْكُلَ نيران الفتنة عَرَشه، وحتى لا تَنفَلِكَ خياطة جلبابه الفِضفاض في قماش تنجيد كُرسي الخُكْم!

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن محمد بن مَهذب المَغربي الأصل الدِمَشقي المُولدِ المصري الشهرة والمَمات. أطلق عليه أبوه اسم عز الدين عبد العزيز، ولمَّا كبر اتَّخَذَ اسم

العز. ورغم اسمه، عانى حياة الجِزْمَان في طفولته. فقد كان أبوه فقيرًا، يجوب الأسواق بَحْثًا عن عمل شريف. وكان يصاحبه ويعينه على حمل الأمتعة وكنس الطُّرُق. وإذا حان وقت الصلاة، يأخذه إلى المسجد الأموي، فيؤدِّيَان الفروض، ويعاودان العمل... وفي يومٍ، لَمَحَهُ أحدُ شيوخ المسجد الأموي، وأعجِبَ بأدائه الصلاة في خشوع رغم صِغَرِ سِنِّهِ. فقام باحتضانه، ودَعَا له بالخير. وبعد أسابيع، مات أبوه، ولم يتمكَّن العز من إقناع أرباب العمل، بأن يَحِلَّ مَحَلَّ أبيه في تأدية الأعمال الشاقَّة، ولم يَكُنْ ليستطيع على كُنِّ حال. لم يَجِدْ الصبِيَّ مكانًا يأويه، فذهب إلى ذلك الشيخ يلتمس عُونَهُ على إيجاد عملٍ ومكانٍ للمبيت.

تَوَسَّطَ له الشيخ، فتمَّ إلحاقه بالمسجد الأموي؛ كي يعمل في شؤون النظافة وجراسة نعال المُصَلِّين. كما سُمِحَ له بقضاء الليل في رُكْنِ المَسْجِد. وساعده وجوده به على البدء في تحصيل العِلْم، وإن كان في سِنِّ مُتَأَخِّرَةٍ نَوْعًا مُقَارَنَةً بغيره. واقترن تحصيله للعِلْم بقِصَّة. فقد حدث أن بات ليلة ذات بردٍ شديدٍ في رُكْنِ المسجد، ولم يَكُنْ يَمْتَلِكُ غطاءً كافيًا. وظلَّ يَتَقَلَّبُ في فراشه مَشْدودًا. ثم قام من نومه فاغتسل في بركة الجامع. ثم عاد إلى نومته، ولم يَفْلِحْ في تهدئة باله، فعاد للبركة ونزل فيها. ومَرَّتْ ليلته، تطارده الهواجس. ولمَّا طلع عليه الصباح، عقد العزم على ضرورة الانتفاع بوجوده بالمسجد، وألَّا يُضَيِّعَ عُمُرَهُ هَبَاءً، فيقتصر دوره على النظافة



والحراسة، بينما المئات من حوله يتعلمون ويتدارسون. فاستقر رأيه على أن يتعلم بجانب عمله، وألاً يمكث في دار العلم والعبادة، دون علم أو تعبد. وامتدَّت يده بعد الفجر إلى مكتبة المسجد. فكان أوَّل كتابٍ يقرأه هو "التبئيه في الفقه الشافعي لمؤلفه الفيروز آبادي. فدرسه في فترة وجيزة. وانفتحت أمامه آفاق رحبة، فأقبل على الكتب يلتمسها، وعلى دروس العلم لكبار الشيوخ، فاستزاد منهم وحفظ عنهم. ثم قرَّر السفر إلى بغداد، وأمضى هناك مدة في طلب العلم، مستفيداً من مكانة بغداد الثقافية، حتى صار أحد أئمة أهل زمانه في علوم الدين، وتتلَّمذ على يديه نوابغ العلماء.

عاد العز إلى دمشق. وصار مفتي الشام منذ عهد الملك الأشرف. لكنه دخل في صراعٍ معه بسبب فتوى أفتاها. فغضب عليه وأمر بالآ يفتي، وبالأ يجتمع بأحد، وبأن يلزم بيته. لم يأبه العز للعقوبات، ولم يتحسَّن ما بينه وبين الملك، إلا بعد أن تدخَّل شيخ الحنفية جمال الدين الحصري، وأعاد الملك إلى رُشده بأن يستقيد من علم العز وشعبيته. وسرعان ما أدرك الملك خطأه وبعث إليه يسترضيه. فظللَّ بعد ذلك يأخذ بمشورته حتى طلبه في مرض موته وسأله النصَّح الأخير. فأشار عليه بأن يحول وجهته جُنْدَه الذين استعدُّوا لقتال أخيه الملك الكامل حاكم مصر إلى عدوِّهما المشترك التتار الذين كانوا يسقطون المملكة تلو الأخرى في أواسط آسيا. ونصحه بإبطال المنكرات التي يرتكبها أعوانه.

فأمر الأشرف بما أشار به، بل وباشَرَ العز بنفسه تنفيذ الأوامر . مات الملك بعد أن سأله الدُعاء بالمغفرة، وقبول ألف دينار هدية. فدعا له بالرحمة ورَفَضَ هديَّته!... ثم ولَّاه الكامل قضاء الشام بعد قدومه بالجيش المصري وحصار دِمَشْق. ولمَّا دخل الكامل في صلح مع أخيه الصالح إسماعيل نائب أخيهما الثالث الراحل الأشرف، ترك له حُكْمَ الشام... لم يستمر العز طويلاً في منصبه، واعتزل في السنة نفسها في ظلِّ حُكْمِ الصالح غير الصالح!

وكان ابن عبد السلام قد تَفَحَّثَ عيناه على أحداثِ جِسامِ زُلْزَلَتِ العالَمِ الإسلامي. ففي طفولته أدرك صلاح الدين واسترداد بيت المقدس. وفي شبابه عاصر تَفَكُّكَ الدولة الأيوبية بين سُلالة صلاح الدين، ودخولهم في صراعات، غافلين عن تَوَعُّلِ الصليبيين، وقدوم جَحَافِلِ التتار من الشرق. وهنا بَرَزَ دوره في وقفته ضد الصالح الذي قَرَّرَ موالاته الصليبيين انقِاءً لشرِّ ابن أخيه نجم الدين أيوب الذي خَلَفَ أباه الكامل في مُلكِ مصر. فَفَضَّلَ أن تقع دِمَشْقُ في يد الغرب ولا تقع في يد جاره.<sup>22</sup> وتَنَجَّ عن التحالف السماح لهم بالاستيلاء على قلعَتَيِ صُفد والشقيف ومدينة صيدا، والإذن بدخول أسواق دِمَشْقَ لشراء السلاح والتزوُّد بالطعام والخروج معهم في جيش واحد لقتال مُسْلِمِي مصر!

سبغه إلى العار أخوه الكامل، الذي تورط مع الصليبيين، وسلمهم بيت المقدس في 1228، بعد أن حرزها صلاح الدين في 1187، قيل أن يعود نجم الدين أيوب ويستردّها في 1244.

لم يصمُتُ العز حِيالَ تصرُّفاتِ ملكِ البلاد. فصعد على مُنبرِ المسجدِ الأموي الذي بدأ حياته منه حارساً لنِعَالِ المُسلمين، وأبى إلا أن يستمرَّ حارساً لشرفهم! وهاجم السُّلطان، ودعا لوحدة الصَّفِّ، وأفتى بتحريم بيع السلاح للصليبيين، وأعلن أن الصالح لا يملك المُدنَّ أو الحصون أو المواردِ مُلْكاً شخصياً، حتى يتنازل عنها للأعداء. وختم خطبته بقوله: "اللهمَّ أبرِّمْ لهذه الأمة أُمراً رَشِداً، تُعزُّ فيه وليِّك، وتُبدلُ به عَدُوَّك، وتُعملُ فيه بطاعتك، وتُنهي فيه عن معصيتك". ونزل من المنبر دون الدُّعاء للحاكم في دعوة صريحة للقوم لعزله! ولما وصل ذلك إلى مسامع إسماعيل، أمر بعزله عن الخطابة والقضاء والفتوى، ومنعه من الاتصال بالناس والخروج من بيته. ففرَّ العز الهجرة من دِمَشق إلى القاهرة. فلمَّا خرج منها، ثار الدِمَشقيون لخروجه، ووضعوا سُلطانهم في حرج. فبعث إليه مَنْ لَحَقَ به في نابلس طالِباً منه العودة. وخيَّرَه بين السجن أو العودة لمناصبه مُقابل أن يعتذر للسُّلطان ويُقبِلَ يديه. نظر العز إلى الرسول بكبرياءٍ غاضبٍ، ثم قال كلمته الشهيرة: "ما أَرْضَى أن يُقبِلَ هو يدي، فَضلاً أن أُقبِلَ أنا يده! يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ. والحمد لله الذي عافني مما ابتلاكم به!"

لم يخرُجُ الشيخ من محبسه حتى انهزم الصليبيون وحلفاؤهم على أيدي المصريين. فغادر الشام إلى مصر، في توقيتٍ مثلاً أخطر المُنعطفات في تاريخ مصر والشرق قاطبةً. فقد وصل العز

إلى مصر في 1242. ولاقى ترحيباً من الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي كان يعرف غزارة عِلْمِهِ، فولَّاهُ الخطابة في جامع عمرو بن العاص أكبر الجوامع المصرية، وعَهَّدَ إليه عمارة المساجد المهجورة من المُصَلِّين، كما قَلَّدَهُ منصب قاضي القضاة بعد وفاة القاضي المصري. استقرَّ العز بمصر تسبقه شهرته العريضة في العلوم والإفتاء، حتى أن الناس كانت تأتي إليه من البلاد المُجاورة لتستفتيه. وكان العُلماء المصريون يعرفون قَدْرَهُ ويجلُّونه، حتى أن مُفتي الديار المصرية الحافظ المُنذري امتنع عن الفتوى بعد قدوم ابن عبد السلام، وقال: "كُنَّا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفُتْيَا مُتَعَيَّنٌ فيه"... اشتهر العز بالعدالة والجرأة، حتى اُنْفَتَّ الناس حَوْلَهُ وأحْبَبُوهُ. وكان لا يَفْرُقُ بين صاحب سُلْطَةٍ وفقيرٍ مُعَدِّمٍ في تطبيق الشريعة. وأشهر مواقفه التي عُرِفَ بها، هو موقف رُبَّمَا لا يَتَكَرَّرُ في التاريخ، لا من قبل ولا من بعد!

إنَّه قراره في شأن الأمراء المماليك، وكانوا يتحكَّمون في المناصب الرفيعة بالدولة. وهم بطبيعة الوصف مملوكون لغيرهم، وفي حُكْمِ العبيد. فلا يجوز لهم البيع والشراء والولاية على المصريين الأحرار إلا بعد عتقهم أولاً! وامتنع العز عن التصديق على إجراءاتهم في البيع أو الشراء أو حتى الزواج، إلى أن يَتِمَّ تصحيح الخطأ، وينعقد مجلسٌ لبيعهم لصالح بيت المال. اُنْأَزَتْ فتواه ضجَّةً كبيرة، وصار المماليك مَوْضِعَ سُخْرِيَةٍ في الطُرُقَاتِ

والمقاهي. فقاموا بتهديده بالقتل، واستشاط نائب السلطنة المملوكي غضبًا وقال: "كيف يُنادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟" وذهب إليه في بيته وأشهر سيفه في وجهه، لعله يزدع. ثم خذلته شجاعته وأعجزته هيئة الشيخ والتفاف الناس حوله. وشكاه الأمراء إلى الملك الصالح أيوب الذي ساءه تَصْرُفُ العز، وأمره أن يعدل عنه. فرفض الشيخ وطلب من الملك ألا يتدخل في القضاء، لأنه ليس من شأن السلطان. ولمَّا أُصرَّ على التدخل، أعلن ابن عبد السلام أنه لا يرضيه أن يكون مُجَرَّدَ غطاءٍ للحاكم، يوظف له الشرع في خدمة عرشه. واستقال من القضاء وقرَّرَ الرحيل عن مصر. فجمع أمتعته على جماره. ولم يكن لزهده يملك من حطام الدنيا ما يزيد على حمل جمار. ثم أركب أسرته على حمير أخرى وخرج بهم إلى الطريق المؤدية إلى الشام قائلاً: "ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها". فتجمَّع أهالي مصر حوله، وأيدوه. بل وأبدى عددٌ كبيرٌ من العلماء والمُرِيدِينَ استعدادهم للرحيل معه. وكان مشهدًا مذهلاً أن تحرَّكت بالفعل من ورائه جماعة كبيرة من المصريين أشبه بمظاهرة "مليونية" صامِتة راحلة عن البلاد. وكان الأكثر غرابة أن يصل ذلك إلى الملك، وأن ينصحه أعوانه: "متى راح العز، ذهب مُلكك!" فيلحق به بنفسه على مسافة عشرة كيلومترات من القاهرة خوفًا من ثورة الشعب، فيسترضيه، ويرضخ لشروطه بتنفيذ حُكْمِ الشرع، بأن يُباع الأمراء

أولاً، ويعتقهم الذي يشتريهم، حتى يصير في إمكانهم تَوَلِّي شؤون الدولة، ويُستفاد من حصيلة البيع في أوجه الخير وزيادة موارد بيت المسلمين!... نادى العز على الأمراء في المزاد العلني. وباعهم واحداً واحداً. وقبض الثمن بنفسه. ووَزَّعَ حصيلته بمعرفته. ودخل التاريخ بشجاعته التي لا نظير لها بين رجال الدين والدنيا. واشتهرَ بلقبتين: سلطان العلماء وبائع الأمراء!

رُبَّما كانت هذه نهاية مناسبة للمقال! لكن العز الذي تصدَّى لحُكَّام الشام، وقَهَرَ ممالك مصر، لم يَزَلْ في تاريخه تاريخاً!

فلم يَكُنْ موقف بيع أمراء الممالك هو الأزمة الوحيدة التي واجه فيها أيوب. فرغم ما ذُكِرَ عن المَلِك من تكبُّرٍ واستبدادٍ، وما عُرِفَ به من عنادٍ ورفضٍ للنصيحة، فإنَّ العز قد بدا غير مُكْتَرَبٍ بالمرَّة لِكُلِّ ذلك. فَحَدَّثَ أَنْ عَرَفَ ذات يَوْمٍ بوجود حانة تبيع الخمر بالقاهرة. فخرج إلى السُلطان في يوم عيد إلى القلعة. ولاحظ العسْكَرُ مُصْطَفَّةً من حوله، والأمراء يقبَلون الأرض بين يَدَيْهِ، وهو في أبهى زينته وعظيم خيَلاته. فقَرَّرَ أن يُعَكِّرَ عليه صَفْوَ المشهد، وأن يعاتبه على مرأى ومَسْمَعٍ من الناس. فناداه باسمه المُجَرَّد وقال: "يا أيوب! ما حُجَّتْكَ عند الله إذا قال لك: ألم أَبَوَى لك مُلْكَ مصر ثم تبيع الخمر؟" فرَدَّ عليه السُلطان في حَرَجٍ: "هل جَرَى ذلك؟" فأجابته في حَرَمٍ: "تعم، هناك حانة تُباع

فيها الخمر، وأنت تتقلب هنا في نعمة هذه المملكة!" فعقب السلطان في غضبٍ مكتومٍ: "يا سيدي! هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي فسخر منه الشيخ قائلاً: "إذًا، أنت من الذين يقولون "إنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ"! وهنا بلغ الحرج بالسلطان مبلغه، ثم أصدر مرسومًا بإغلاق تلك الحانة... وعندما سأله أحد تلاميذه: "كيف واجهت السلطان بهذه الجرأة؟" أجابه: "يا بُني، لقد رأيته في تلك العظمة، فأردتُ أن أهينه؛ لئلا تكبر نفسه فتؤذيه!"

وبعدما حدث ما حدث في مصر من هرج ومرج في أعقاب وفاة الملك، وتولي زوجته شجر الدر من بعد تحلُّصها من توران شاه ابنه من زوجة أخرى، ثم الدخول في صراعات، انتهت بتولي قطز حُكم البلاد، برز دور العز في الإعداد لواحدة من أهم معارك التاريخ، معركة عين جالوت... كان الوضع خطيرًا. وكانت جحافل التتار على مشارف فلسطين، بعد نكبة بغداد التي سقطت في مذابح مروعة، راح ضحيتها مئات الألوف. وقد وصفهم المؤرخ ابن الأثير بقوله: "كأنهم لا يريدون المال ولا الملك، ولكنهم يريدون فقط إفناء النوع البشري!" وكان المصريون مشفقين على أنفسهم من المصير ذاته. وأثناء الفترة الانتقالية التي تولى فيها قطز منصب نائب السلطان الصبي، ابن أيبك، كان المماليك من أصحاب المصالح مُصرفين عن المُشكلات المُهددة لأمن مصر، ومُستائين من الشيخ الصارم وشعبيته. وتَصاعد حُفهم من

تحريض العز ضيِّدهم، بسبب ما يشيعونه من قَوْصَى وسرقات وتزويج للآمنين أملاً في الانصراف عن فكرة الحرب. وكان يواجههم في الشوارع، ويتصدَّى لبلطجهم مدَّعوماً بالأهالي وتلاميذه. ولمَّا تضامن قَطز مع شيخه، وبدأ في اتِّخاذ إجراءات عنيفة ضد مُثيري الشغب، ضغط أمراء المماليك على السُّلطان لعزلهما ومحاكمتهما، بعد أن أوْعزوا له أنَّ السُّلطة على وشك الإفلات من يديه بسببهما... ويحكي لنا التاريخ كيف ذهب قَطز وشيخه إلى قلعة الجبل تلبيةً لأمر السُّلطان، وكيف خرج آلاف المصريين وراءهما حمايةً لهما من الغدر، وكيف حاول المماليك الاعتداء على الشيخ في القصر، وكيف تَصَدَّى قَطز لهم، وكيف ارتفع هدير الجماهير المحاصرة للقصر، وكيف خرج قَطز وشيخه مَحْمُولَيْن على الأعناق، وكيف عزل قَطز سُلطانَه وتولَّى الحُكْم في لحظة فارقة؛ لمواجهة المغول الذين بعثوا رُسُلهم بالتهديد.

وهنا عَلَا صَوْتُ ابن عبد السلام على المناير، يستحِثُّ العزائم ويستنهض الطاقات للقتال في سبيل الله. وحين بَثَّ له قَطز قلقه، أمسكه من كتفيه، وهَرَّه في صرامة قائلاً: "أخْرُجُوا وأنا أضمن لكم على الله النصر!" وعندما اجتمع قَطز بعلماء المسلمين يستشيرهم في أخذ أموال من الشعب ليستعين بها على جهاد التتار، أصغى الجميع لـ العز الذي أفتى: "لا يجوز ذلك، إلا بشرط أن يؤخَّذ ما عند الأمراء من النفاس، ويقتصر كُلُّ واحدٍ على سلاحه ومركوبه.



فإذا لم يَكْفِ ذلك، جاز أخذُ أموالٍ من الشعب بقدر الحاجة". وانطلق يَشْحَذُ الهممَ في الطُرُقَاتِ ويقنع الأثرياء من التُّجَّارِ بما له من شعبيَّةٍ بالتبرُّع بأموالهم للجهاد، وبيَّثُ الثقةَ في قلوب المصريين وحاكِمِيهِمْ. وعندما خرج المصريون للقتال، في اثنتي عشرة كتيبة من الفلَّاحين والعُمَّالِ، بصُحبة أربع كتائب من المماليك، اشترك الشيخ بنفسه في الجهاد المُسلَّح، وهو في الثمانين! واستعان به قَطز في إلهاب حَمَاسة الجُنْد. فكان على قَطز الإعداد الحربي، وكان عليه هو التهيئة الروحية. فَتَحَقَّقَ النصر للمُسلمين على جبابرة المغول الذين لم يُفْهَرُوا قط سوى بفلسطين في العشر الأواخر من رمضان، فَتَوَقَّفَ زحفهم قبل أن يَحْتَلُّوا العالمَ بأسره!

رَجَمَ اللهُ العز بن عبد السلام، الذي ترك أربعين مؤلِّفًا في مُختلف علوم الدين من تفسير وفتاوى وحديث وسيرة وفقه وتوحيد وتصوُّف. وكان يعتمد على إعمال العقل في استنباط الأحكام، ويرى أنَّ ما لا يمكن استنباطه من الكتاب أو السُنَّة أو الإجماع أو القياس، فليس له إلاَّ العقل لتحقيق المصالح ودرء المفايد. وقد أثنى عليه العلماء المُعاصرون والذين جاءوا من بعده، حتى وُصِفَ بأنه أفقُه من الغزالي. وضرَبوا به المثل، فقيل: "ما أنت إلاَّ من العوام، ولو كُنْتَ ابنَ عبد السلام!"

سلامُ اللهُ عليك يا ابن عبد السلام!

## فضيلة الفضول (2)

طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ.

الإمام الشافعي

هو سباقٌ بين الفضوليين الأخيار!

كصباحٍ كُلِّ يومٍ، كان الصَّيْدلي السويدي كارل فيلهيلم شيلي يجري تجاربه، مُفْلِحًا بعد محاولات عديدة في إنتاج غاز الأكسجين بتسخين أكسيد الزئبق وبعض النترات المختلفة في 1772. أطلق شيلي عليه اسم هواء النار، إذ كان الغاز الوحيد المُساعد على عملية الاحتراق. ثم قام بكتابة اكتشافه في مخطوطة بخط يده، وعَوَّنَهَا باسم "بحث في الهواء والنار" ثم تباطأ في إرساله إلى ناشره، فلم تصدر مخطوطته حتى 1777.

وكصباحٍ كُلِّ يومٍ على الجانب الآخر من البحر، كان العالم الإنجليزي جوزيف بريستلي يذهب إلى معمله، قاضيًا يَوْمه في الأبحاث. وفي أحد أيام 1774، استطاع أن يُحَضِّرَ عَيْتَةَ نَقِيَّةٍ مِنَ الأكسجين بتسخين أكسيد الزئبق ذاته حتى تحلُّه. ثم لاحظ أن المواد تحترق أسرع وتتوهَّج أشدَّ في مُحيط هذا الغاز من الهواء. فاستنتج أن هذا الغاز لا بُدَّ وأن يكون مُتَوَقِّرًا في الهواء، وأنه ضروري للحياة. وكان العلماء حتى ذلك الزمن، يظُنُّون أنَّ المواد القابلة للاشتعال تحتوي على مادَّة تُسَمَّى الفلوجيستون، وإذا ما

احترق شيء، فيُفترض بأنّه قد فقد هذه المادّة. ولأن العلماء، ومن بينهم بريستلي وشيلي، قد سلّموا بوجود الفلوجيستون، فإنهم لم يدركوا كُنه المواد التي يكتشفونها، فكانوا يشيرون إلى الأكسجين باعتباره الغاز الذي تَجَرَّد من الفلوجيستون حتى يكون قابلاً للاشتعال. كان السؤال الذي يدور في ذهن بريستلي مُرتبطاً بعلاقة الهواء بالاشتعال، وعلاقة الغاز المُستخلص بتيسير ذلك الاشتعال. ولكي يتأكّد من توفّر غازه في الهواء، أتى بفئران، ووضعها في صندوق مُغلق بإحكام. وحبّسها بداخله حتى استهلكَت الهواء وأصيبتُ باختناق. فقام بإدخال غازه المُكتشف إلى الصندوق. ثم تابع الفئران، فإذا بها تستعيد نشاطها. ثم قام هو نفسه باستنشاقه، ولاحظ أنّ تنفّسه قد بات أيسر... نشر بريستلي بحثه بعنوان "اكتشافات مُتقدّمة عن الهواء" في 1775، سابقاً زميله السويدي في الظفر بالحفاوة العلمية ونيل التقدير الأدبي.

ومن عجائب علوم ذلك العصر المُفعم بالفضول الإيجابي، أنّ العالمين النابهيّن شيلي السويدي وبريستلي الإنجليزي قد اتّصلا بكبيرهم الفرنسي لافوازييه. فأرسل له شيلي خطاباً في سبتمبر 1774 يطلعه على كشفه العلمي، وإن كان لم يصله قط. وزاره بريستلي في أكتوبر، وأخبره بشأن تجربته في المعمل وكيفية فصله للغاز. وقبل أن نسرد ما أضافه لافوازييه من قيمة على جهد العالمين، دعونا نتعرّف عليه أكثر، في فرصة جديرة بالاستغلال!

هو عالم الكيمياء الفرنسي أنطوان لافوازييه المؤلّد في 1743، الدارس للقانون بناء على رغبة والده، المنشغل بالفلك والنبات والكيمياء والجيولوجيا بعد إتمام دراسة القانون، المنتخبُ عضوًا في أكاديمية العلوم الملكية، المساهم في عمل خريطة جيولوجية لفرنسا، الحاصل على الميدالية الذهبية للإبداعات العلمية التي قدّمها لتحسين الإضاءة في شوارع باريس، المُتّبي دعوة الحكومة لحلّ مشكلة نقص البارود الناتج عن نُدرة نترات البوتاسيوم مُرتفعًا بإنتاجه اثني عشر مثلًا، المُساعدُ بقوّة على نجاح الثورة الأمريكية ضد الاستعمار البريطاني بفضل هذا البارود المُصدّر من فرنسا المُساندة لأمريكا في حربها ضد بريطانيا، المُشارك في تأسيس الجمعية الزراعية، المُبتكر تقنيات علمية ترفع من إنتاجية القمح بمقدار الضِعف، المُنصّب إلى البرلمان والمُهنّم بإعانة الفقراء والأرامل، المُصلِح للنظام المالي والتعليمي في إقليم أورليان الفرنسي، المؤلّف كتابًا عن ثروة الأرض في المملكة الفرنسية كواجب من أهمّ الكُتب في مجال الاقتصاد السياسي، والرافِع لشعار اشتراكي بحت يقول: "يجب ألا تقتصر السعادة على عددٍ محدودٍ من الناس، لأنّ السعادة ملِكٌ للجميع"... ثم نعود إلى عالم الكيمياء لافوازييه، لنرى كيف أضاف إليها بحكّة بارعة، قبل أن نشهد مُلابسات وفاته المُثيرة للغضب!

كان لافوازييه عالمًا عبقرياً من الوزن الثقيل. وعندما تناثرث أمامه الكشوفات المُستحدثة بشأن الهواء وغازاته، تمكّن من لَمّ شتات المعلومات ووضعها في إطار مُننظّم. فكان أوّل مَنْ أنكر في التاريخ ما اعتقده العلماء بشأن الفلوجيستون وعلاقته باشتعال الحرائق، مُتوصِلاً إلى مبدأ عِلْمي مُهم بأن الاحتراق يسفر عن الاتّحاد الكيميائي بين الأكسجين والمادّة المُشتعلة. وكان لافوازييه كذلك أوّل مَنْ أثبت في التاريخ عدم صِحّة نظرية العناصر الأربعة الإغريقية - التراب، الهواء، النار، الماء -، فأكد على عكس الشائع أن الماء ليس عُنصراً بذاته، وإنما هو مُركّب كيميائي من الأكسجين والهيدروجين. وكذلك الهواء ليس عُنصراً بذاته، بل هو اتّحاد بين الأكسجين والنيتروجين. وأقدّم لافوازييه في 1785 على شرح طبيعة الماء بطريقة في مُنتهى الإثارة أمام جَمعٍ غفيرٍ من الجماهير. إذ قام بغلّي الماء، ثم مرّر البخار المُتصاعد على الحديد الأحمر الساخن، الأمر الذي أدّى إلى تحلّل الماء إلى مُكوّناته الغازية الأكسجين والهيدروجين. ثم قام بجمع الأكسجين والهيدروجين في إناء زجاجي كبير، ليشتعل مُحدّثاً صوت فرقة. وفي نهاية العرّض السحري، عاد الماء إلى الظهور مرّة أخرى!

أصدر لافوازييه كتابه الأشهر "مبادئ الكيمياء" في 1789، والذي عدّه مؤرّخو العلوم أبرز ما شكّل مصير علم الكيمياء الحديث فيما بعد، إذ وضع فيه أوّل جدول مُننظّم للعناصر

الكيميائية. كما جاء فيه نصُّ قانونه المعروف باسم بقاء الكتلة: "إنَّ وزن مادتين كيميائيتين مُفصلتين يوازِي وزن المادَّة الجديدة الناتجة عن اتِّحادهما. فإنَّ المادَّة لا تَفنى ولا تُستحدَث من عَدَم، بل تتغيَّر من شكلٍ إلى آخر هل مرَّت عليكم هذه العبارة الشهيرة من قبل؟ وهل شاركتُم في الجدل المُثار حول شرعية هذا المبدأ من الناحية الفقهية؟ أحيانًا يخلط بعضنا بين المفاهيم العلميَّة وبين ظاهر المعاني، فيأتي الاعتراض عليها بقول الله تعالى: "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَاللهُ بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يَعْبُدُهَا"، رغم أن الكيمياء لا تناقش بداية الخلق ولا البعث الإلهي، وإنما تدرس تحوُّر المادة من حالٍ إلى حالٍ في دُنيا البشَر الفانية!

وحتى ذلك الحين، لم يكنُ العلماء قد اصطَلحوا على تسمية ذلك الغاز المُكتشف، حتى جاء لافوازييه وأعطاه اسم أكسجين اشتقاقًا من جذور إغريقية. إذ تعني "أوكسي حمضي الطعام. وتعني جين المُتسبِّب في الشيء. وجاءت التسمية نتيجة اعتقاد خاطئ بأن جميع الأحماض تحتوي على الأكسجين. وعندما تقدَّم التفسير العلمي بشأن الأحماض، لم يكنْ مُمكنًا تغيير الاسم الخاطئ!... ومن اللافت للنظر أنَّ كلمة أكسجين دخلت اللغة الإنجليزية رغم مُعارضة العلماء الإنجليز. ثم حسم الأمر قصيدة شعريَّة في مدح الغاز الذي اكتشفه الإنجليزي بريستلي، واستعان الشاعر بالاسم الذي وضعه لافوازييه له. فجاءت القصيدة في

كتاب "الحديقة النباتية" الشهير والمنشور في 1791 بعنوان "أكسجين"! ومن المدهش أن مؤلف القصيدة كان الشاعر إراسموس داروين، جد العالم البارز فيما بعد تشارلز داروين!

كان اكتشاف الأكسجين والفُدرَة على استخلاصه من الهواء بمثابة نقلة علمية كبيرة ساهمت في تطوير علم الكيمياء بشكل كبير، وامتدَّت آثاره إلى مئات الاستكشافات في السلم والحرب. وكانت إسهامات لافوازييه بشأنه خطيرة ومؤثرة، واستحقَّ الرجل لقب أبي الكيمياء الحديثة بعد كلِّ ما قدَّمه من ضبط وإعادة شرح واستكشاف لنظريات ومركَّبات كيميائية.

فكيف مات مؤسس علم الكيمياء الحديث؟؟... من المناسب أن تُصاحب الإجابة عن السؤال موسيقى جنازية حزينة، أو تهيئة طويلة كئيبة، أو زُفرة حُنق مريرة!

وقبل الإجابة دعونا نتعرَّف على بعض ملامح الثورة الفرنسية!

فرغم أن الثورة الفرنسية قد قامت على مبادئ روسو ومونتسكيو وفولتير، وزعم أنها أطاحت بالملكية الفاسدة، وألغت الامتيازات والنظام الإقطاعي، وأجرت الانتخابات التي فاز بها حزب الشعب. ورغم تحوُّل مجلس طبقات الأمة إلى الجمعية الوطنية، وقيام الجمعية التأسيسية بوضع دستور 1791، وإعلان حقوق الإنسان وسيادة الشعب وفصل السلطات، وقيام الجمهورية

الفرنسية الأولى في 1792... رغم كَلِّ ذلك، فإنَّ الثورة لم تتجح، ولم تَمْشِ على مبادئها، ولم تَعِشْ لها جمهورية، وأكَلتْ أبناءها وأعداءها وعُلماءها، وارتكبتْ أبشع الجرائم باسم الشرعية الثورية!

تَوَرَّطتْ الثورة في حربٍ على النمسا وبروسيا في 1792، ما أسفر عن ظهور القائد العسكري بوناپرت. واستَعَرَ أتون الحرب ضد حليقات النمسا: بريطانيا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا. وذاع صيْتُ نابليون بانتصارات مُتلاحقة، تخلَّتها حَمَلته على مصر، ثم تنصيب نفسه إمبراطورًا في 1804 في شهادة وفاة لثورة أُبدلتْ مَلِكًا بإمبراطور! وأسفر سقوطه في 1815 عن إضعاف فرنسا وتقليص مساحات أراضيها. وأعادتْ أوروبا المُنتصرة فرنسا مَلِكِيَّة من جديد. ثم قامتْ ثورة في 1848 أسفرتْ عن قيام الجمهورية الثانية لمُدَّة أربع سنوات، وسرعان ما عادتْ المَلِكِيَّة في ظِلِّ نابليون الثالث. وفي أعقاب الحرب الفرنسية البروسية، أُطيحَ بالنظام المَلِكِي وأُعلنتْ الجمهورية الثالثة 1871. ودامتْ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وفي 1946 جاءتْ الجمهورية الرابعة في ظِلِّ تَزَعُّع شاملٍ لأركان الدولة المُختلَّة من الألمان. ثم أسس ديجول في 1947 حَزْكة إصلاحِيَّة سَمَّاهَا تَجَمُّع الشعب الفرنسي. وأتى رئيسًا في 1959، فيما عُرِفَ بالجمهورية الفرنسية الخامسة. وفي تلك الجمهورية فُقط يمكن القول أن مبادئ الثورة قد بدأتْ تعرف طريقها إلى فرنسا بعد 170 سنة من نشوبها!



وأما شعار الثورة: الخربة الإخاء المساواة فقد أهمل، ولا يبقى في الذاكرة سوى مشهد المقصلة تقطع رقاب كل من يُشَنَّب في مخالفتها. فأعدِم الألوف في أسابيع. ويصِفُ المؤرِّخون حِقْبَةَ المُحاكَمات بـ "عهد الإرهاب". وانتهت بإعدام زُعماء الثورة أنفُسِهِم وعلى رأسهم السَّفاح رويسير! وعندما رَقَّ قلب السَّجَّان لسجينته ماري أنطوانيت فُيِّلَ إعدامها، لشعورها بالبرد واحتياجها للغطاء، أخبروه: "إنَّ هذا السَّعْي من جانبك كافٍ لأن يصعد بك بجوارها إلى المقصلة!" ويحتفظ لنا التاريخ بعبارة الثائرة مدام رولان التي أمَنَّتْ بأفكار عُظماء الفلسفة الفرنسية التي أُنازتْ طريق الثورة، قبل أن "يظلمه" الثَّوار، بضَمِّ الياء وفتحها! فعندما حانت لحظة إعدامها، زفرتْ زفرة النهاية قائلة: "أَيَّتْهَا الخربة! كَمْ من الجرائم تُرتكب باسمك!" ومن فرط هزلية الرُفُض المُطلَق لِكُلِّ ما ينتمي لعصر ما قبل الثورة، قرَّرت الجمعية الوطنية تعديل التقويم "الجريجوري"، وتبنَّتْ التقويم "الجمهوري" في 1793. فبدأت السنة الأولى من العصر الجمهوري في 22 سبتمبر 1792 الموافق إعلان الجمهورية واعتدال فصل الخريف معًا! بل وبناءً على توصية أحد زُعماء الثورة بيو فارين أعاد شاعرٌ مُنافِقٌ للثورة يُدعى ديجلانتين تسمية الشهور، فصار فبراير فنوز، يوليو ثرميدور، وديسمبر نيفوز، إلخ... قبل أن يتمَّ إعدامه بثُمة التزوير! وبقي التقويم معمولاً به حتى أعاد نابليون التقويم العالمي في يناير 1806...

قُلْنَا أَنَّ لافوازِييه أَلَفَ كِتَابَه "مَبَادِي الكِيمِيَاء" فِي 1789. وعرفنا أَنَّ الثُّورَةَ قَدْ نَشِبَتْ فِي العَامِ نَفْسَه. وَكَانَ لافوازِييه قُبِيلَ الثُّورَةَ يَشغَل عِدَّةَ مَنَاصِبٍ فِي الدَّوْلَةِ بِحُكْمِ قِيَمَتِهِ العِلْمِيَّةِ. ولِأَسْبَابٍ وَاهِيَّةٍ، ثَارَ الرَّأْيُ العَامُ، مِنْ جُمْلَةِ مَنْ ثَارَ ضَدُّهُمْ، ضِدَّ لافوازِييه وَطَالَبُوا بِاعْتِقَالِهِ. ثُمَّ نَجَا، بَعْدَ أَنْ احْتَقَى بَعْضُهُمْ بِمَوْلَفَاتِهِ. وَسَرَعَانَ مَا عَادَتْ الشَّائِعَاتُ تَطْوِلُهُ، وَأَلْصَقَتْ الْاِفْتِرَاءَاتُ بِهِ وَعَوَمِلَ كَمُعَادٍ لِلشَّرْعِيَّةِ الثُّورِيَّةِ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ أَحَدَ أَبْرَزِ الْمُتَحَفِّظِينَ عَلَى النِّظَامِ البَائِدِ.<sup>23</sup> لَكِنِ الثُّورَارُ أَدَانُوهُ فِي 1794، وَأَعْلَنُوا أَنَّ الثُّورَةَ لَيْسَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى العُلَمَاءِ، لَكِنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَطْبِيقِ العَدَالَةِ، لِيَعْدِمُوهُ فِي مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ 8 مَايو! وَقَدْ عَلَّقَ عَالِمُ الرِّيَاضِيَّاتِ الفَرَنْسِي جُوزِيْفَ لَاجِرَاجِ عَلَى هَذِهِ المَأسَاةِ قَائِلًا: "لَمْ يَسْتَعْرِقْ قَطْعُ رَأْسِ رَجُلٍ مُفَكِّرٍ مِثْلَ لافوازِييه سِوَى بَضْعِ ثَوَانٍ. تِلْكَ الرَأْسُ العَبْقُورِيَّةُ الَّتِي لَنْ يَسْتَطِيعَ العَالَمُ الْإِتْيَانُ بِمِثْلِهَا عَلَى مَدَى قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ!"

قَتَلَتْ الثُّورَةَ الفَرَنْسِيَّةُ أَبَا الكِيمِيَاءِ الحَدِيثَةَ... أَعْدَمَتَهُ... ثُمَّ انْتَحَرَتْ!

---

هناك لوحة شهيرة للفنان الفرنسي جاك لوي ديفيد باسم "موت سقراط" تصور اللحظات الأخيرة في حياة الفيلسوف الذي ضحى بحياته في سبيل المبدأ، وأراد بها إيقاظ الأئس الخائعة وتحريضها على مقاومة السلطة المستبدة. وكان الفنان جزءًا من دائرة ضيقة من الأصدقاء تضمُّ مُفَكِّرِينَ وعلماء، من بينهم لافوازِييه، الذين كانوا يضغطون من أجل إصلاحات راديكالية في فرنسا الملكية!

## قاف قاف! (2)

ها قد عُدنا يا صلاح الدين!

قالها الجنرال الفرنسي هنري جورو أثناء الاجتياح العسكري  
لدمشق في الحزب العالمية الأولى.

إنه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي. أبوه من قرية  
كُرْدِيَّة نَاحِيَةِ أَدْرِيَّجَان، وأمه من عرب حلب.

إنه صلاح الدين الذي كان يجاهد في الشام، وعرف بأمر  
إبحار قُوات صليبية عَبَّرَ البحر الأحمر غَدْرًا لغزو الحَرَمَيْنِ  
الشَرِيفَيْنِ. فأمر نائبه العادل بالتصدي لهم. فأسرع العادل إلى قائد  
الأسطول المصري الفدِّ حسام الدين لؤلؤ، والذي تحرك في سُرعة  
مُذهلة في شتاء 1183، مُطارِدًا بقُواته الصليبيين في معركة  
بحرية خطيرة بالبحر الأحمر، ثم بَرًّا في جزيرة العرب، حتى نجح  
في إيقافهم على مسافة ليلة واحدة من المدينة المنورة. وقائلهم  
ببسالة شديدة، مُنتصِرًا عليهم، أسيرًا بعضهم، عائدًا بهم إلى مصر.  
ليأمر صلاح الدين بقتل الأسرى في مصر، على مَرَأى وَمَسْمَعٍ  
من الناس، حتى لا تُسَوَّلَ لأحدٍ نفسه بغزو قُدسِ أقداسِ المُسلمين  
مرة أخرى.

إنَّه صلاح الدين الذي على تَفَوَاهِ وَوَزَعِهِ وَعُمُقِ إِيمَانِهِ، لم يَجِجْ بيت الله مرَّةً واحدةً، لأنَّه لم يَسْتَطِعْ إليه سبيلاً، لانشغاله طوال حياته في الجهاد في سبيل الله. وفي السنة التي أتمَّ فيها انتصاره على الصليبيين وأنجز مُعَاهِدَةَ الصُّلْحِ معهم، مات قبل أن يَشُدَّ الرِّحَالَ إلى مكة. وكان عازماً على أداء الفريضة في ذلك العام!

إنَّه صلاح الدين الذي حَرَّرَ بَيْتَ المقدس بعد 88 سنة من احتلالها، مُنْتَصِراً في معركة حِطِّين بجيش من أبناء مصر والشام ومُتَطَوِّعِي جزيرة العرب، ثم مُتَصَدِّياً لجيوش الخلفاء الصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد.

إنَّه صلاح الدين الذي مات تاركاً في خزانته المُتَوَاضِعَةَ جِراماً واحداً من الذهب، وستة وثلاثين درهماً - وقيل سبعة وأربعين! -، ولم يترك داراً ولا بُسْتَاناً ولا أيِّ أملاك من أيِّ نوع!

إنَّه صلاح الدين الذي دخل مصر أوَّلَ ما دخل، وفي صُحْبَتِهِ ثمانية عشر طبيباً، ثمانية مسلمون، خمسة يهود، أربعة مسيحيون، وسامريٌّ واحد!<sup>24</sup>

إنَّه صلاح الدين الذي سنظلمه كثيراً، إنَّ أشاد التاريخ بتسامُحه مع غير المُسْلِمِينَ، وبيراعتِهِ في فنون القتال والخطط الحربية، دون

---

<sup>24</sup> السامرية طائفة تنتسب لبني إسرائيل، لكنها تطبق شعائر دينية مخالفة.

أن يرصد ولعه الشديد بالعلوم والثقافة... ففورَ تَوَلَّيه الوزارة بمصر في مَطْلَعِ حُكْمِهِ، عَمَدَ إلى إنشاء المدارس الفقهية الشافعية والمالكية والحنفية، لتتفقيه العلوم والعقول من الشَطَطِ الفاطمي الشيعي. وبَدَلْ ذات يوم فِدْيَةً لأحد عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ الأَسْرَى لَدَى الروم تُقَدَّرُ بِسِتِينَ أَلْفًا. وفورَ تحريره للقدس، كان أوَّلَ قرارٍ يصدره هو إنشاء مدرسة لتتقِّي العلوم! وكان يعتمد على العُلَمَاءِ بشكل كبير في تتقيف الناس. وإجلالاً منه لدورهم، أُعْذِقَ عليهم بالعطايا. وَحَصَّصَ لهم رَوَاتِبَ ضَخْمَةً قَارَبَتْ الثلاثمائة ألف دينار! وكان يحضر مجالسهم ودروسهم، ويزورهم في بيوتهم، ويُحَسِّنُ الاستماع إليهم، وَيُكَثِّرُ من استشارتهم، حتى أَنَّ كَاتِبَ ديوانه القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، قال فيه صلاح الدين: "لم أفتح البلاد بسيفي، وإنما برأي القاضي الفاضل". وكان لا يأتي أمرًا إلا من بابه. وبلغ من اعتماده على رأي القاضي الفاضل، أن امتنل لأمره بعدم الخروج للحجِّ حَوْفًا من رجوع الصليبيين إلى القدس المُحَرَّرَةِ. ولشِدَّةِ ثقته بالعلماء، كان يتخَيَّرُ مَبْعوثيه إلى الملوك والأمراء ممن اشتهرَ منهم بسِعةِ العِلْمِ وَحِصَافَةِ الرَّأْيِ.

"المَرءُ على دين خليله، فَلْيُنْظَرْ أَحَدُكُمْ مَنَ يُخَالِلُ"... صَدَقْتَ يَا

رسول الله.

وَلْيُنْظَرْ أَحَدُنَا مَنَ يُخَالِلُ حُكَّامَنَا اليَوْمَ!

## حلوة يا بلدي (2)

في طفولتي كانت مصر 26 محافظة. وفي طفولة أبنائي كبرت مصر، فصارت 29. وقبل أن تتَمَّ الثلاثين تماشيًا مع سنوات حُكْمِ رئيسها، قامت ثورة، فتوقَّفَ نُمُو حُكْمِها، وعادت مصر 27!... من بين محافظات مصر ما لاسمها معنى بديهي. فلدينا الشرقية والغربية شرقيّ وغربيّ الدلتا، البحيرة لكثرة الممرّات المائية بأرضها، الوادي الجديد أو كما أزدنا له أن يكون!، والبحر الأحمر دون حاجة إلى تعريف المُعرَّف. ومنها ما نعرف سبب تسميتها. الإسكندرية نسبة لـ الإسكندر، بورسعيد نسبة لـ سعيد، الإسماعيلية نسبة لـ إسماعيل. وبطرح هذه الأسماء من المجموع يتبقى لدينا 19 محافظة مُتَضَمِّنة محافظتين بالاسم نفسه، سيناء.

**القاهرة** العاصمة، ويُزجج بعض اللغويين الاسم إلى الفراعنة، "كاهي الأرض، رع" الشمس. بينما يُرَجِّح المؤرِّخون ارتباط الاسم بغزو **جوهر الصقلي** مصر، ووَضَعَ أساس لعاصمة جديدة في الشمال الشرقي للفسطاط، ببناء سور خارجي من الطوب اللبن يحيط بـ 340 فدّانًا. أجل، كانت القاهرة في مَهْداها 1.43 كم مربعًا مُحاطًا بالطوب النيّ! لكن الاسم الأول للعاصمة الفاطمية، لم يَكُنْ القاهرة بل المنصورية، تيمُّنًا بعاصمة مُلْك المعز لدين الله بالمغرب. ثم تزامن اسم القاهرة مع ظهور نجم في

السماء، قاهر الفُلك، أثناء بناء القاهرة في يوليو 969... ووصفها ياقوت الحموي بقوله: "هي أطيّب وأجلّ مدينة رأيّتها لاجتماع أسباب الخيرات والفضائل بها". وابن بطوطة: "هي أمّ البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، ومجمّع الوارد والصادر، ومخبط زحل الضعيف والقادر. وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجادٍ وهازل، وحليم وسفيه، ووضعٍ ونبيه، وشريفٍ ومشروفٍ، ومُنكرٍ ومعروفٍ. تموج مَوْج البحر بسكّانها. وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها. شبابها يَجِدُّ على طول العهد، وكوكبٌ تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قَهَرَتْ قَاهِرَتِهَا الأُمم، وتمكّنت ملوكها نواحي العرب والعجم وابن خلدون: "رأيتُ حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومخسر الأُمم، وإيوان الإسلام، وكُرسي المُلك". والوزن: "القاهرة الباهرة، أكبر مُدن العالم وأكثرها رَونقًا وبهاءً". والفرنسي فلوبيير: "حقًا، إنّ الشَّرْقَ يبدأ من القاهرة"... رينا يكرم أصلكم!

**الجيزة** امتداد القاهرة إلى الغرب، وتأسست وقت فتح العرب لمصر في 21 هـ. وتفاوتت الآراء بشأن أصل الاسم: يقول الحموي إنّ الجيزة في لغة العرب هي الوادي أو أفضل موضع فيه. ويقول المقرئ إنّ الجيزة هي الناحية والجانب، والجيز جانب الوادي، وهو المكان الذي تأسست فيه الجيزة. ويفسر أستاذ

التاريخ محمد أبو سعدة التسمية بـ "اجتياز النيل إلى الناحية الأخرى، بعد النجاح في ذلكِ حصن بابلون.

**القليوبية الضلع الأخير في مثلث القاهرة الكبرى.** ويرجع الاسم إلى قلوب المُنمّية إلى ولاية أتررب الفرعونية التي اشتهر سُكَّانها بتقديم يد العون إلى أحمس أثناء حربه مع الهكسوس. وسُمِّي المكان ككلِّ بالقليوبية في 1527، وتراوحت إداريًا بين إقليم وولاية وأمورية ومديرية. وظلَّت قلوب عاصمتها حتى حَلَّت بنها محلَّها في 1913. وفي 1960 تحوّلت القليوبية إلى محافظة.

**الدقهلية** قد تكون أهمَّ محافظات الدلتا شأنًا. تقع في الشمال الشرقي منها. وتطلُّ على البحر المتوسط في نهاية امتدادها. ومن الغريب أنّ اسمها مُشتقٌّ من قرية قديمة تُدعى دقهلة وهي كلمة قبطية الأصل، والأغرب أن دقهلة تقع حاليًا بمركز الزرقا محافظة دمياط! ومن المثير ألا يكون اسم المحافظة المنصورة كما عُرف الإقليم على مرِّ التاريخ، وأن تكون المنصورة بتاريخها البطولي تابعة اسمًا لقرية مغمورة لم يسمَعْ عنها أحد. وقد طالب الراحل الكبير أنيس منصور أكثر من مرّة أن يتّم تغيير اسم المحافظة التي ينتمي إليها إلى المنصورة. بل وهناك "جروب" على فيسبوك، باسم "معًا لتغيير اسم محافظة الدقهلية إلى محافظة المنصورة"، ووصفتي دقهلاوي الأب، أضُمُّ صوتي إلى أصوات المُستنكرين!



**المنوفية** أصلها الهيروغليفي "من نِفِر أي المقام الجميل. وأصلها القبطي بانوفيس، ثم تحوّلت إلى من نوفي ثم منوف في عهد قلاوون. ورغم سُمعتها المقرّنة بكونها مسقط رأس بعض ممّن لم يرُضّ عنهم شعب مصر في تاريخه الحديث، إلاّ أنّها كذلك أرض معركة تاريخية في مُنتهى الأهمية تُعرّف بمعركة الشهداء. واستشهد فيها ابنُ عمِّ رسول الله محمد بن الفضل بن العباس، أثناء قيادته للجيش الإسلامي الذي نجح في طرد البيزنطيين المُستعَلين للفتنة الناشئة عن اغتيال الخليفة عثمان بن عفان، والمُحاولين استعادة مصر. وقد قام أهالي المنوفية بمُساندة الجيش الإسلامي بعد سقوط الإسكندرية، واستشهد منهم كثيرون، لتُسمّى المعركة وكذلك المدينة بالشهداء. وفي نهاية القرن الثامن عشر جُجِدَ المنايفة مواقفهم البطولية، والتي سجّلها التاريخ في موقعة غمرين التي نشبت في أغسطس 1798 ضدّ قُوّات الحملة الفرنسية المُدجّجة بأحدث أسلحة عصرها، بينما سُكّن منوف يدافعون عن أرضهم بشجاعة مُنقِطعة النظير وليس في أيديهم سوى العصيّ والفؤوس. وقد سقط من أهالي المنوفية 500 شهيد، وغطّت الأرض الدماء. وفي مطلع القرن العشرين، نال بعض أهالي قرية دنشواي شرف الشهادة. وليس العيد القومي للمنوفية سوى الذِكرى السنوية لتلك الحادثة الأشهر في حياة المحافظة.

**كفر الشيخ** هي محافظة أقصى الشمال الغربي من الدلتا المُطلَّة بساحلٍ طويل على البحر المُتوسِّط. وتعني كلمة كفر حصنًا أو بلدة باللُّغة المصرية القديمة، وكذلك هو معناها باللُّغة العِبرية. وسُمِّيت كفر الشيخ نسبة إلى الشيخ **طلحة أبي سعيد التلمساني المغربي الأصل**، والذي قدم إليها منذ 800 سنة، والنَّفَّ حوله مئات المُريدين لطلب العِلْم. وعندما تُوقِي، دُفِنَ بالضريح المُقام بمدينة كفر الشيخ. ومن المُفَارقات أنَّ الشيخ **طلحة المجهول** نَوْعًا للمصريين هو شقيق السيد البدوي صاحب الضريح الأشهر بمدينة طنطا، والذي لم يَحْظَ بشرف تسمية محافظة باسمه!

**دمياط** تَعَدَّدت التسميات، والمحافظة واحدة. قيل أنشئت في العصر الفرعوني، ويعني اسمها مدينة الأرز الذي اشْتُهِرت بزراعته، وإقبال أهلها على أكله. وقيل أصلها دमत ن بتاح، أي مدينة الإله بتاح، وقيل أصلها تاميت أي بلدة الشمال، وبالقبضية تيميات. وقيل معناها الأرض التي تُنْبِت الكِتَّان. وقيل بل هي بلدة دماطي التي وَرَدَ ذِكْرُهَا في عصر الأسرة الفرعونية الـ11. وقيل أنَّها اللفظ السرياني دمت بمعنى القُدرة، ويُقصد به القُدرة على الجَمع بين الماء العذب والمالح، عند التقاء النهر بالبحر. وقيل تا محيت أي أرض الوجه البحري. وأيًا كان الأصل، فيبقى حاضر دمياط محسودًا من سائر المحافظات. فهي المحافظة الأقلُّ قُفْرًا، وهي المدينة التي تَنَمَّعَ بِمُعدَّل بطالة صفر، أو يكاد!

**السويس** كلماتٌ ليست كالكلمات. أبطالٌ ليسوا كالأبطال. في زمن الفراعنة كان اسمها كليزما. وأطلق عليها الهكسوس اسم مدينة الأبطال، هيروبوليس. فعندما هاجم الهكسوس مصر من جهة سيناء، كانت السويس بأهلها العقبة الوحيدة التي وقفت في طريقهم، فتصدّوا إليهم بكلِّ ما وصلت إليه أياديهم، مُدافعين عن مصر من غزاة الشرق. فاضطّروهم إلى الارتداد، ثم معاودة الهجوم من منطقة بديلة إلى الشمال من السويس، مُستكمّلين زحفهم على مصر. وتوارث أهلها البطولة جيلاً بعد جيلٍ، في كلِّ ثورات وحروب التاريخ، بل واستلهمت عيدها القومي 24 أكتوبر من المقاومة الشعبية ضد الصهاينة في حرب أكتوبر وتحطيم 45 دبابة، ثلاث منها في حديقة الخالدين! وقيل تغيّر اسمها إلى السويس في عهد **خمارويه بن طولون**. كما قيل تُكْتَب بالإنجليزية suez مقلوب كلمة zeus كبير آلهة الإغريق. وتعود التسمية إلى نهاية القرن الثاني عشر عندما أُطلقَ على البرزخ الذي يربط البحرين الأحمر والمتوسط اسم زيوس ومنه اشتُقَّ اسم السويس.

**مطروح** هي بؤابة مصر الغربية. وقيل أصلها مطيربح. وكان يَفِدُ إليها أبناء البدو للصيد البرّي حال مرور الطيور الآتية من الشمال هزّياً من برودة الجوّ شتاءً. كما قيل أن مطروح نسبة إلى رافع بن مطروح أو أبي يحيى بن مطروح البطليّن العربيّن اللذين ثارا على ملك صقلية؛ لاستيلائه على طرابلس في القرن

السادس الهجري حتى أخرجه منها. ولمحافظة مطروح حدود مُشتركة مع محافظة الجيزة، بالرغم من الخمسمائة كم التي تفصل بين مدينة الجيزة وميناء مرسى مطروح! وتتفرد مطروح بأنها المحافظة الوحيدة على مستوى الأرض التي تحتفظ في باطنها بـ 17 مليون لغم، بنسبة 15% من ألغام العالم كُلِّه، في مزيج قائم من تجاهل الحكومات المصرية على مدار 70 عامًا وفشل تراكمي في التفاوض مع أطراف المعارك الدائرة في صحارينا. وفي انتظار يوم نقول فيه بقلبٍ مُطمئنٍ: متروح مطروح!

سيناء هُما محافظتا الحدود الشرقية مع فلسطين المُختلَّة. أرض القمر أو أرض الفيروز. اسمها مُشتقٌّ من اسم الإله سين إله القمر في بابل حيث انتشرت عبادته في غربي آسيا. ثم وافقوا بينه وبين الإله تحوت إله الحكمة والكتابة والقمر الذي كان لعبادته شأنٌ في سيناء. وقيل أن سيناء في عصر الدولة الفرعونية الحديثة كانت تُسمَّى خاست مفكات أي مُدرجات الفيروز. وكانت الحملات المصرية تزور الأودية الغربية لها؛ كي تستغلّ مناجمها، حتى نفذت عروق معادنها، وأحجارها الكريمة. ومن المُخزن حقًا أن سيناء ذلك الممر لـ إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام من وإلى مصر، لم تزلْ بعد خاوية على عروشها، عامرة بزراعة المُخدِّرات والإرهابيين، موطئًا لتهريب السلاح والبشر، يُمُرُّ منها العدو قبل الحبيب. ولا زالت الكلمات الرئانة عن خطط

التنمية والتعمير في سيناء ترنُّ في أذن التاريخ وتُجَلِّل في فضاء الجغرافيا عبر عشرات السنين، كلُّما جدَّ جديدٌ، ولا جديدٌ يجدُّ!

**الفيوم** أولى محافظات الصعيد. أصل التسمية اختلف حوله المؤرِّخون. عُرف إقليم الفيوم في العصر الفرعوني بأرض البحيرة، لأنَّ بحيرة الفيوم القديمة كانت تُستعمل كخزان للمياه. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، أي في العصر اليوناني أُطلقَ عليها اسم Crocodilpolis أي مدينة التماسيح. ثم أُطلقَ عليها أرسينوي في العصر البطلمي تيمُّناً باسم أخت الملك بطلميوس الثاني<sup>25</sup>. ثم تغيَّر اسمها إلى بيوم أي مدينة المياه في العصر القبطي. ويقول المؤرِّخ جورج بوزنر أن بيوم ورَدَتْ في بعض النصوص الفرعونية بمعنى بحر أو بحيرة أو بركة ماء. وأثبتت الدراسات الجيولوجية أن أرض الفيوم كانت عبارة عن بحيرة كبيرة، استمرَّت مياهها في التناقص تدريجياً بفعل العوامل الطبيعية. ومن كلمة بيوم جاء اسم الفيوم. بينما يؤكِّد الأثري المصري بسام الشماع أن با يم قد تحوَّلت إلى فايم ثم فايوم أي الجسد المائي الكبير، ثم أُضيفت إليها أداة التعريف العربية. ويشير ياقوت الحموي إلى أن الفيوم في زمن يوسف عليه السلام كانت تعاني من نقص في الماء، فقَرَّرَ

---

بعد وفاة أرسينوي، رُفِعَتْ إلى مناصف الآلهة، وسُمِّيَتْ باسم Philadelphos أي السُّجَّة لأخيها. وفي فترة لاحقة شهدت الفيوم إقامة قرية Philadelphia، قيل أن تندثر وتظهر من جديد في نهاية القرن الـ17 على بُعد 60 ميلاً من الساحل الشمالي الشرقي الأمريكي!

أن يحفر ثلاثة خلجان تصل إلى الفيوم التي تتخفص أرضها عمًا حولها. وهكذا تفرَّق الماء في نواحيها ووصل إلى جميع مزارعها. وكان هذا تحديًا دخله يوسف بعد مؤامرة من بعض وزراء الملك لتسويبه. وعندما خرج الملك ووزراؤه إلى الفيوم، وكان ذلك بعد سبعين يومًا من العمل، نظر الملك إلى وزرائه وهو يثني على يوسف قائلاً: "هذا عمل ألف يوم فسُمِّيتُ بذلك الفيوم! كم هو مُحيرٌ ذلك التاريخ الذي لا يعرف منه المرء خياله من واقعه!"

**بني سويف** ثاني محافظات شمال الصعيد. عُرِفَت زمن الفراعنة باسم بوفيسيا، وفي القبطية باني سوف. وبعد الفتح العربي تحوَّل الاسم إلى منقوسية. وظلَّ قائمًا حتى القرن الخامس عشر. وقيل عُرِفَت باسم بني السيوف نسبة إلى واقعة مؤسفة جرَّت على أرضها، واستُخِدمَ فيها السلاح الأبيض بغزارة غير مُعتادة. كما قيل أن المحافظة نُسِبَت إلى قبيلة بني سويف العربية.

**المنيا** عروس الصعيد. وكانت عاصمة التوحيد في عهد إخناتون، ومقرَّ الحُكْم أيام حور محب، ونقطة انطلاق الجيوش إبَّان معارك التحرير لطرد الهكسوس. تطوَّر اسم المنيا من "منعت" اختصارًا للاسم القديم **منعت خوفو** الذي ورد في نقوش مقابر بني حسن بالمنيا وهو اسم مُرضِعة **خوفو**، إلى موني اي وتعني المنزل في اللغتين المصرية والقبطية. كما يعني لفظ منيا المحطَّة أو

البلدة. وممَّا يَجْدُرُ ذكره أنَّ محمدًا عليه الصلاة والسلام قد تزوَّج من إحدى بنات محافظة المنيا، السيدة مارية القبطية.

**أسيوط** أولى محافظات القسم الجنوبي من الصعيد. وكان الفراعنة يطلقون اسم سيوط أو سيوت أو ساوتي على هذه المنطقة من الوادي، ومعناه الحدود أو الحارس بالهيريوغليفية، لأنها كانت الحدَّ الفاصل بين مصر العليا ومصر السفلى. وكذلك معناها بالقبطية بلد المجد، وسياووت بمعنى المَحْمِيَّة. ويذكر المؤرِّخون أنَّ أقدم حضارة مصرية قد ظهرت في أسيوط قبل سبعة آلاف سنة، فيما يُعرَف بـ الحضارة الحجرية النحاسية، آخر عصور ما قبل التاريخ، حضارة البِدَّاري. والبِدَّاري اليوم هي إحدى مراكز أسيوط. وإن كانت البِدَّاري قد اشتهرت قديمًا جدًّا بالعاج والنحاس وبعض النقوش والتماثيل، فإنها قد اشتهرت حديثًا جدًّا بالأخذ بالنثار! وأن الأوان كي تأخذ أسيوط بثأرها من التخلف، وتستعيد ذاكرة الحضارات!

**سوهاج** هي أفقر محافظات مصر. ومنها بدأ البرنامج الكوميدي مشروع الألف قرية الأكثر فقرًا التابع للحزب الوطني المُنحَل. قيل أصلها مدينة سوهاي. وقيل أن سوهاي ملك فرعوني قديم من عصر ما قبل الأسرات. كما قيل أن أصلها "سَاهو بمعنى ابن المعبود. وأشهر مواليد سوهاج على الإطلاق هو مينا

مُوَحَّد القُطْرَيْن. عَبَّر سوهاج، ظَهَرَتْ أقدم دولة مُوَحَّدة في التاريخ.  
وسَيَطَّلُ أهلها في رباط إلى يوم الدين، ولو كره الكارهون!

قنا اسمها الفرعوني شابت، والإغريقي كينوبوليس، والقبطي قونة، والعربي قَنِي أي احتضن، إذ يحتضن النيل قنا عند ثنيتته، فيبدو كذراعين. هذا الحُضْن وهذه الوحدة تستعيدها قنا سنويًا عندما تحتفل بعيدها القومي في 3 مارس من كُلِّ عام، تخليدًا لذكرى انتصار أهالي قرية البارود الذين تَوَحَّدوا على هدف يجمع المُسلم والمسيحي، المرأة والرجل، الشيخ والطفل، إذ خرجوا عن بكرة أبيهم يهاجمون حملة بونابرت ويغرقون سُفُنَه في النيل!

الأقصر هي أَدَّتْ المحافظات. ومن الغريب أن تكون، رغم أن طيبة كانت عاصمة مصر القديمة في زمن دولتيها الوسطى والحديثة. وذكَّرها هوميروس في أشعاره وسَمَّأها المدينة ذات المائة باب، حتى بانَّتْ إحدى أشهر المُدن في التاريخ قاطبةً. وقيل أن أصل التسمية يعود إلى القرن الثالث الميلادي مع بناء قلعة رومانية حول المعبد الرئيسي في المدينة، والكلمة معناها تحصينات أو قواعد حصينة. كما قيل أن العرب عندما وفدوا إليها أطلقوا عليها اسم مدينة القصور لكثرة مبانيها وعظمة معابدها، وهو الاسم الذي حُرِّف فيما بعد إلى اسمها الحالي. كما كتب عنها الحموي: "الأقصر كأنه جمع قصر، جمع قلة، اسم مدينة على



شاطئ شرقي النيل بالصعيد الأعلى فوق قوص، وهي أزلية قديمة ذات قصور، ولذلك سُميت الأقصر

أسوان هي آخر محافظات مصر من جهة الجنوب. وعُرِفَتْ في اللغة المصرية القديمة باسم سونو بمعنى السوق، حيث كانت مركزًا تجاريًا للقوافل القادمة من وإلى النوبة. وقيل أنها تعود إلى اسم سين باللغة المصرية القديمة ومعناها البحيرة. وكذلك سمّاها النوبيون بيا سوان. وفي القبطية احتفظت باسم سوان. وعندما وصلها الفتح الإسلامي أُطلق عليها اسم أسوان.

وهكذا تصل رحلتنا إلى أقصى الجنوب. وقبل أن نغادر المقال، نتوقّف عند حلايب وشلاتين. وأذكر في صباي، أن تفجّرت مشكلة الحدود بين مصر والسودان، وذلك عندما أعطت السودان حقوق التنقيب عن البترول لشركة كندية في مياه البحر الأحمر المُقابلة للمُتَنَزَع عليه منذ ترسيم الحدود 1899. وبزّرت لأول مرّة أسماء حلايب وشلاتين على الحدود الجنوبية. ومن ساعتها، تتعامل مصر مع الأزمة بمُنتهى الحكمة والحِكمة والحزم والحيلة والحذر وكل ما يبدأ بالحاء. أيوه بما فيها تلك الحاء التي جاءت في بالك الآن! ولعلّ أهمّ ما فعلته مصر، أن أصدرت تعليمات فورية للقائمين على فقرة النشرة الجوية، فصرنا بحمد الله نعرف درجة الحرارة في حلايب مساء كل يوم!

## لا للإحباط (2)

قد يأتي التقدير في حياة المُبدِع. وقد يأتيه في خريف العُمُر.  
وقد يأتيه بعد رحيل العُمُر. وقد يأتيه لأنه انتحر. المُهمُّ أنه يأتي!

كان الرسّام الإسباني بابلو بيكاسو من بين المقبوض عليهم سنة 1911 للاستبّاه في سرقة لوحة الموناليزا الشهيرة لـ دافنشي من متحف اللوفر، بعد أن وُشّي به أحد أصدقائه الشعراء زورًا... وتمزُّ السنون ويدخل بيكاسو قائمة أعظم الرسّامين في التاريخ. ويتحوّل من مُتسكِّع مُشتبّه في سرقة لوحة من المتحف، إلى نجم شبّاك يحتفي به كلُّ زوّار المتحف نفسه. بل ويصير أوّل فنان في العالم تُعرَضُ لوحاته في متحف اللوفر، وهو على قيد الحياة!

— — — — —

وأما الهولندي فان جوخ فقد قطع جزءًا من شحمة أذنه في لحظة إحباط شديد ونوبة هياج عنيفة. ثم أهداها إلى عاهرة تُدعى راشيل كانت قد طلبتها منه في مُداعبة ماجنة، ليودّع بعدها في مصحّة نفسية حتى مات مُنتجِرًا في صيف 1890 عن عُمر 37 دون أن يبيع سوى لَوْحَةٍ واحدة من بين ألفي عمل فني. وقد بيعت هذه اللوحة The Red Vineyard قُبيل وفاته بأربعمائة فرانك في بروكسل!... ذاع صَيِّئُهُ تدرجيًّا بعد رحيله، حتى عدَّ أحد أعظم الرسّامين في التاريخ بحلول منتصف القرن العشرين. وليست أهمُّ

لوحاته زهرة الخشخاش التي شغلت الرأي العام المصري بعد سرقتها، وقُدِّرَت آنذاك بمبلغ 50 مليون دولار!... وقد كتب **فان جوخ** خلال الساعات التي سبقت انتحاره بالمصحة عددًا من الرسائل إلى أخيه، تضمّنت آراءه في الرسم والنقْد والمجتمع وفي نفسه. وتَمَّ تجميع هذه الآراء بعد وفاته في ثلاثة مُجلِّدات، حَتَمَهَا برسالة أخيرة يقول فيها: "حَسَنًا... ففي نهاية الأمر لن يتحدَّث عنَّا أحد سوى لُوحاتنا"... وقد أسهَبت في الحديث!

- - - - -

وأما صديق **فان جوخ**، الفرنسي **بول جوجان**، فقد ترك عمله وتفرَّغ للرسم في سن الخامسة والثلاثين دون أن يكون ذا صِيَت. وفي خلال عامٍ واحدٍ أصبح مُفلسًا. فباع منزله وانفصل عن زوجته وفقد اثنيْن من أبنائه. وعاش وحيدًا بانسًا في باريس... وفي 1888 انتقل إلى آرلي جنوبيّ فرنسا، حيث التقى بـ **فان جوخ**. وقام بتمويل إقامتهما شقيق **فان جوخ** تاجر اللوحات **ثيو**. كان **جوجان** يظهو الطعم، ويساعد صديقه في رسوماته. تأثّر كلاهما بالآخر فنيًّا ونفسيًّا، وأنتجَا خلال تسعة أسابيع أعظم لُوحاتهما على الإطلاق. أصيب **جوجان** بنوبات اكتئاب مُتكرِّرة، وحاول الانتحار. ثم غادر آرلي بعد دخول **فان جوخ** المصحة، مُسافرًا إلى جزيرة تاهيتي بالمحيط الهادي، قاضيًا سنواته الأخيرة، راسمًا عددًا كبيرًا من اللوحات مُستوحاة من جمال الطبيعة. ولم يفلح في التخلُّص

من الاكتئاب، فأدمن الخمر، وأصيب بالزُّهري، ويجزح مفتوق في كاحله. فعاني من آلام رهيبية، وكتب يشكو: "أنتظر هنا كفاراً في برميل وسط المحيط". وبعد فترة أصبح عاجزاً عن المشي، بعد أن أكل المرض ساقيه. ثم ما لبث أن فقد بصره حتى مات وحيداً مُفلساً مجهولاً في سن 55 في 1903... واليوم، جوجان هو رائد الفن الرمزي، وأحد أعظم رسّامي المدرسة ما بعد التأثيرية في التاريخ.



للتاريخ ذاكرة انتقائية عادلة. لا تحتفظ سوى بأسماء المُبدعين في قوائم الشرف. وعندما نطلُّ برؤوسنا، مُلقين نظرة على ملامح النوابع وأعمالهم المحفورة في الوجدان، سنسعد بمن حظي بالحفاوة في حياته، وسنسعد أكثر بمن نال المجد بعد رحيله.

فكما أن الجئة من نصيب الصالح أعمالهم عند البعث، ويتضاءل معها تكريم الدنيا، فكذلك يُكافئ التاريخ العباقرة بعد الممات ويُجدد البعث... وتلاشى معه مرارة العُبن في الحياة!

## قالوا في الأمثال (2)

لَيْسَتْ هذه أمثلاً. لكنها مُصطلحات دأبنا على استعمالها. وأن الأوان كي نعرف أصل الكلام.. فلِكُلِّ شَيْءٍ تاريخ، حتى الكلمات!

دُمُه أزرق يعود إلى الأرستقراطية الإسبانية في مرحلة ما بعد الأندلس، حيث كانت طبقة النبلاء تفتخر بأن يكون لها جلدٌ ناصع البياض لا يشوبه قرابة يهودية أو "بربرية" مُسلمة. وكان الجلدُ شديد الشحوب لدرجة تكشف العروق تحت الجلد. وكان نُبلاء العصور الوسطى كُسالى لا عمل لهم، اعتماداً على ثروتهم الموروثة. وكانت قلة الحركة وانعدام النشاط تؤدِّيان إلى نقصٍ في تغذية الدم بالأكسجين، وازرقاق الأنامل والأطراف. وهو ما جعل عامّة الشعب تصف دم النبلاء بالأزرق. واللون الأزرق بشكل عام سُمعته سيئة في ثراث العرب، رغم أنه أكثر الألوان ظهوراً في الطبيعة. يكفي أن ننظر إلى السماء، وإلى 71% من سطح الأرض. ومع ذلك، فإننا نقول "بيشتغل لينا في الأزرق"، أي يؤدينا بأفعاله. وقمنا بتغيير اسم العتبة الزرقاء إلى الخضراء في وسط البلد! ونقول "تابه أزرق أي شديد الخطورة والأفضل تجنّبه. ومن العجيب أنّ الناب الأزرق ارتبط حديثاً بتقنية المحمول Bluetooth! وتعود التسمية إلى مؤخِّد الدانمرك والنرويج الملك هيرالد بلوتوث في القرن العاشر؛ لارتباط شركات المحمول الرائدة

في التكنولوجيا بالدول الإسكندنافية. أما سِرُّ إطلاق بلوتوث على ملك الدانمرك، فيعود إلى اختلاف هيئته عن قومه. فكان ذا شعر داكن، وأنياب صُبِغَتْ بالأزرق نتيجة تناول فاكهة زرقاء اللون يوميًا! ويمتدُّ التأثير السلبي للون بقَوْلنا "يادي النيلة"، وهي زفرة يأس من الواقع، والنيلة صبغة زرقاء يصعب التخلص من آثارها!

**الطابور الخامس** مُصطلح يرمز إلى الأعوان السريين الذين يَمْدُون خلفاءهم بالمعلومات، ويزرعون الخلافات ويَزَوِّجون الشائعات بين الأعداء. ويعود استخدام التعبير إلى الحرب الأهلية الإسبانية التي نشبت في 1936 ودامت ثلاث سنوات. وانتهت بانتصار الجنرال فرانثيسكو فرانكو بدَعَم من النازيين والفاشيين، ليتولَّى حُكْم الجمهورية الإسبانية حتى وفاته في 1975، لتتحول بعدها الجمهورية الديكتاتورية إلى مَلَكِيَّة ديمُقراطية في إجراء تاريخي نادر الحدوث! وأوَّل مَنْ أطلق تعبير الطابور الخامس هو الجنرال إميليو مولا في تصريح إذاعي، في مَعْرِضِ حديثه عن زحف قُوَّاته إلى مدريد. وكانت قُوَّاته تتألَّف من أربعة طوابير عسكرية، ثم أشار مولا إلى طابور خامس يعمل مع حشوده، ولكن من داخل مدريد، قاصِدًا بذلك مؤيِّدي جانب فرانكو من الأهالي. وقد استعان بالمُصطلح الأديب الأمريكي هيمنجواي في مسرحيته الوحيدة التي كتبها أثناء قصف مدريد بالقنابل، وتُسَرِّت في كتاب سنة 1938 بعنوان "الطابور الخامس وال49 قِصَّة الأولى".

**غُصْنُ الزَّيْتُونِ** رمز عالمي للسلام. وقيل يعود إلى زمن الطوفان، عندما كانت سفينة نوح تمُخِرُ عُبَابَ البحار العاتية. ثم قام عليه السلام بإرسال طائر ليتأكد أنَّ الماء قد جَفَّ في الأفق. فكان الطائر يعود في كُلِّ مَرَّةٍ دون أن يكون معه دليلٌ على ذلك. وتكرَّرَتْ المحاولات حتى رجع الطائر ذات مَرَّةٍ حامِلاً في فمه غُصْنُ زَيْتُونٍ، في إشارة إلى الأرض القريبة. وكان ذلك إيذاناً بسلامة السفينة بَمَنْ عليها من جيل يَعْمُرُ الأرض من جديد.

**حِسْبَةُ بَرْمَا** يحترف المصريون حِسْبَةَ بَرْمَا في كُلِّ شَيْءٍ. في كرة القدم نفقد النقاط، ثم ندخل في حِسْبَةَ بَرْمَا كي نصل للبطولة، فلا نصل! وحِسْبَةُ بَرْمَا نعرفها كذلك في الاقتصاد والسياسة وإدارة الأزمات والحروب والانتخابات وفي كُلِّ أمرٍ يحتاج مناً إلى الحساب! ويعود أصل التسمية إلى قرية بَرْمَا بالغربية، عندما صدم شخصٌ سَيِّدَةً تحمل قفص بَيْضٍ. فالتَفَّ أهل القرية حول عربته، وقطعوا الطريق. اعترف الرجل بمسؤوليته، وأكَّدَ رغبته في تعويضها. فسألها الناس: "كم بَيْضَةٌ كانت بالقفص؟" فأجابت سيدة بَرْمَا: "لو أَحصَيْتُمُ البَيْضَ بالثلاثة، لتبقى بَيْضَةٌ. وبالأربعة، لتبقى بَيْضَةٌ. وكذلك بالنسبة للخمسة والستة. أمَّا لو أَحصَيْتُموه بالسبعة، ما تبقى شيئاً!" هُنَا أُخْلِى أهل بَرْمَا الطريق، وقاموا بدعوة الرجل الصادِمِ للمرأة والمصدوم من الفزُورَةِ على فنجان قهوة. وجلسوا تحت ظلال الأشجار لِقَائِ العُقْدَةِ. وبعد جهد جهيد، توَصَّلَ

المجتمعون إلى أن القفص كان يحوي 301 بيضة... دفع الرجل ثمن البيض، ونفذ بجلده من محافظة الغربية!

**غريب الأطوار** هو مُصطلحٌ يصف به بعض البشر بعضهم الآخر. شخصياً كثيراً ما سمعتُ بأذني مَنْ ينعتي به أيام الجامعة، وأثناء ركوب المواصلات، وعند الظهور في مناسبات اجتماعية مُختلفة! فهل تندرج غرابة الأطوار تحت القذح، أم تحت المدح؟؟ لا توجد قاعدة واضحة. لكن تاريخ المُصطلح يُصَبُّ في اتجاه غير حميد أو محمود! فحسب الرومان، فإنَّ القمر الكامل قد يتسبَّب في جنون الناس. ومن هنا اقترن تفاوتُ أطوار القمر بين بدر وهلال ومُحاق، بتباين طباع البشر بين عقلي واختلالٍ وجنون!

**كاني وماني** اشتهر بعد أغنية سعاد حسني الدُّنيا ربيع قفل لي على كَلِّ المواضيع! أصلها فرعوني، إذ تعني كاني السمن وماني العسل. وكان العامَّة يتوسَّلون إلى الكهنة لقضاء حاجاتهم، بعد أن يقدِّموا لهم قرابين السمن والعسل. وعلى ذلك فإنَّ لسان حال التعبير: لا تَقُلْ لي كاني ولا تَقُلْ لي ماني. أي لا تتوسَّل لي ولا تتصوَّر إنْ قدَّمت لي سمناً وعسلاً، سألتِّي طلبك في المُقابل. مافيناش كاني مافيناش ماني، كاني ماني ليه، ده الدُّنيا ربيع!

**سلفط وملقط** كان رَجُلٌ على سفر. وأراد أن يُودِعَ بلاصَّ عسل لَدَى صديقٍ له لحين عودته. وكان للصديق ابنٌ مَوْلَعٌ



بالعسل. فصار كُلُّ يومٍ يشرب قليلاً منه دون عِلْمِ أبيه. وعندما عاد الرجل من سفره؛ ليستردَّ أمانته، استقبله صديقه مُرحَّبًا. ثم غاب، وأتى بالبلاص، وسلَّمه إيَّاه بابتسامة تقول: لا شكر على واجب! استلم الرجل بلاصه، ثم لاحظ أن وزنه قد خَفَّ. فَتَحَهُ مُلقِيًا نظرةً على مُحتواه، فإذا به فارغًا. سأل صديقه الجالس أمامه عن العسل. فأجابه في اندهاش مُماتِّل: "لا أعرف، سأذهب أتَقَدِّدُ مكان تخزينه، لعَلَّه سَكِبَ". ذهب الرجل، ثم عاد دون أن يجد أثرًا للعسل. فكَّرَ صاحبه السؤال: "أما سال قط؟" فَرَدَّ: "لا". فعاد يسأل: "أما مال قط؟" ومن اضطرابه أجاب: "لا. لقد بحثتُ عنه في سال قط، ومال قط، فلم أجده!" وصارت عبارته مثلًا يُقال عند البحث عن المفقود في كُلِّ مكان يخطر على ذهن أو يجول ببال!

**طُز** كانت بلاد العرب تحت الاحتلال العثماني. وكانت الضرائب تُفرض على تجارتهم فيما عدا المِلْح. فكان الباعة إن مرَّوا على نقاط تفتيش عثمانية ببضاعتهم، وقبل أن يشرع الأتراك في التفتيش، يسارعون بقولهم: طُز، أي مِلْح بالتركية، قاصدين أنه لا يوجد معهم إلا المِلْح المعفي؛ كي يعبروا دون ضرائب. ومع الأيام صارت تُقال للمفتشين الأتراك بهدف السخرية من موسيقى الكلمة. وصارت الكلمة رُوِيْدًا رُوِيْدًا تحمل مردودًا نابغًا من سوء نية مُستعملها لا أصل معناها! والآن تستطيع أن تدخل أيَّ مطعم وتطلب حاجتك من الجرسون بكُلِّ هندام قائلاً: طُز في الأكل!

**الجأش، الفرائص، الأوداج** الجأش هو النفس أو القلب، ورباط الجأش هو الثابت عند الشدائد. والفرائص هي عضلة تقع بين الصدر والكتف، ومن ترتعد فرائصه هو الإنسان المصاب بالخوف، فتتوتر عضلة الفرائص وترتجف. والأوداج هي عروق الرقبة، وتتفخ أوداج المرء في مواضع عدة، عند بذل الجهد، وعند الغضب، وكذلك عند الكبرياء، وعند الفخر الزائف... وما أكثره!

**سَبَهَلَّة** قيل أصلها "سيبها لله"، أي دَعَا للموَلَى. ومن المُفْجِع أن تكون سبهلة هي الأمر الذي لا ضابط له ولا رابط. فيشوبه التسبب، ويتعرض للإهمال. والأفدح أن تقترن العشوائية بصنع الله، بينما يقترن نمو نباتات الصحراء دون مُعتنٍ بفعل الشيطان. فقول: هذا نَبَتٌ شيطاني ولا نقول: هذا زُرْعُ رَبَّاني!

**السُّنْطَة، أُونْطَة** الأولى إيطالية بمعنى مُستعد أو مُتهَيِّء، والثانية يونانية بمعنى حيلة وخداع.

**سِرِنْجَة** أصلها سرنكس وهي حورية جميلة في أساطير الإغريق، كان قد اشتهاها بان إله الرعي، وهو نصف إنسان ونصف ماعز. لكن سرنكس هربت منه، فلاحقها، وقبل أن ينال منها، تحوّلت إلى عيبدان من البوص. فأخذها بان وصنّع منها مزمارا يقبله بقمه وهو ينفخ! وعند اختراع الحقنة في القرن الـ15، سُمِّيتْ سرنجة، لوجه الشبه بينها وبين بوص مزمار الإله!

ألاجه في القرون الوسطى كان تُجَار مصر يجلبون أقمشة  
حريرية وقطنية من دِمَشق. واشتُهر صِنْفان: الأجه شامي، الأجه  
هندي. فنقول: آخر الأجه استحسانًا لأحدث ما وصل من بضاعة!

واحد اتنين سَرْجِي مَرْجِي سَرْجِي أو سَرْكِي كلمة شركسية،  
وهي مهنة يُسَجَل بموجبها الشركسي بيانات العَمَال وأعدادهم. بينما  
مَرْجِي يُقصد بها البُستان الذي يعمل به الأنفار بعد تسجيلهم.

حَمْرَاءة، مَرْمَزَة، شُوبِش، أباجورة، ماعون، حُرْكُك، زَقُط،  
بَشْبِش، دَشْدِش، مَأ، بَح، شي حا في المصرية القديمة: هروب  
من الوعد، إحصاء، مبروك، ابن الشمس، زكاة، حالاً، مركب رع،  
فَنَّت، هَسَم، نَطْر، انتهى، امش يا حصان نَحْرَك يا حمار!

له شَنَّة ورَنَّة شنو في المصرية القديمة هو الخرطوش  
المُسَجَل على جُدران المعابد، ويُدَوَّن بداخله أصحاب المقام الرفيع  
كالملوك. رن تعني العظمة. فيصبح المعني: ذو المقام العظيم!

اتَلَم تَتُنون على تَتُنن، والاتنين أُنُنن وأُنُنن! تَتُنون وتَتُنن  
بمعنى شابة واقندى باللُغة القبطية في لهجتي الشمال والجنوب.  
وتعني العبارة: يلتقي المتشابهون في السوء معاً!

دموع التماسيح هي أسطورة بكاء التماسح على ضحيته  
أثناء افتراسها. فعند الإمساك بها يُحْرَك فكّه العلوي - عكس سائر

الكائنات- فيضغط لهذا السبب على قنوات تفرز سوائل بروتينية  
مُخزَّنة فتتساب عبْرَ عينيه خلال المضغ!

**فلاح قراري** في زمن الاحتلال البيزنطي وُضِعَ نظامٌ لملاك  
الأراضي. ومن بينهم الفلاحون القراريون الذين قرَّروا بمحض  
إرادتهم التنازل عن أرضهم وطلب الحماية من الأغنياء. فصاروا  
مُستأجرين لما كانوا يملكونه مُسبقًا بموجب تلك الحماية، على أن  
يتكفَّل الحامي بالتزامات الأرض المالية.

**بوريه، دياولو، شملول، نانوس، عصلجة، ككعة، كسكسة،  
فرقرة، كضمة، شوطة، فرقلة، نخمة، ابن الإيه** في القبطية:  
شقاء، عفريت، خفيف الحركة، عظيم الجمال، عدم حركة، وزم،  
تراجع، سقوط، طي، وباء، سوط، تشئت، ابن العجل!

**فردة** ضريبة رعوس قرضاها محمد علي على الأهالي،  
وكانوا يعتبرونها جائزة ويناقشونها في سُخْطِ على المقاهي.

**حيص بيص** وقع في حيص بيص، أي تورط. حيص  
بمعنى الحيد. ولا محيص، أي لا مفر. أما بيص فهي الشدة. وفي  
القرن الـ11 اشتهر الشاعر العراقي سعد بن محمد الصيفي باسم  
**حيص بيص**. وله ديوان شعر بالاسم نفسه، مدَّح فيه الأمراء  
والفرسان!... فالحمد لله الذي أفلتنا من الحيص والبيص، وأكرما  
بتفسير ما هو مألوف في استعماله، مجهول في أصل معانيه!

## عزيز و.. عبد العزيز (2)

"سألتُ نفسي، هل أستشهد؟ ودار في ذهني شريط سريع. ماذا يحدث لضباطي وجنودي؟ والناس في الوطن، ماذا يقولون؟ وأسرتي كيف يقع النبا عليها؟ قُلتُ حسناً، يجيء الذين يزورون قبري. لا بُدَّ أنهم سيقومون لي تمثالاً هنا، أو على الأقلِ لَوْحَةٍ يكتبون فيها اسمي ويوم استشهادي. سيجيء ابني خالد أيضاً، وسيكون رجلاً، ويحني رأسه أمام هذا المكان، ويكون فخوراً. هنا استشهد أبي ودخل مع الأبطال".

من مُذَكِّرات البطل أحمد عبد العزيز

شارع البطل أحمد عبد العزيز بالمهندسين. هو أول شارع مرّت به ثورة يناير 2011 قداماً من مسجد مصطفى محمود. وهو الاسم الذي تسمّى به عددٌ كبيرٌ جداً من مواليد المصريين في الثلث الأخير من 1948، من بينهم خال كاتب هذه السطور المُدَوِّن اسمه المُركَّب في شهادة ميلاده: البطل أحمد عبد العزيز!

فمن ذلك البطل الذي اقترنت البطولة باسمه إلى يوم يُبعثون؟؟

وُلِدَ في نهاية يوليو 1907 بالخرطوم، حيث كان والده الأميرالاي محمد عبد العزيز مُنتدباً كقائد كتيبة بالجيش المصري بالسودان. وكان أحد شُرَفَاء الجيش الذين انحازوا للشعب في ثورة

1919. وسمح لولديهِ بالخروج من المدرسة، ولجنوده بالخروج من ثكناتهم، والمشاركة في المظاهرات، الأمر الذي أدّى إلى فصله من الجيش... وفي أثناء المظاهرات شاهد عمر شقيق أحمد الأكبر - وكان في الرابعة عشر - ضابطاً إنجليزياً، يدوس بقَدَمِيهِ عَلمَ مصر الأخضر في الشارع استهانةً بالثورة. هاجمه عمر في غضبٍ، فعاجله الضابطُ بضربةٍ وحشيةٍ بكعب بُندقِيتهِ على مؤخِرَةِ رأسه، ليسقط في الحال شهيداً... لم يتوقَّف أحمد عن الجهاد ضد الإنجليز رغم مقتل أخيه، أو زُبماً بسبب مقتل أخيه! ونجح رغم سِنِيهِ الصغيرة في قتل ضابطٍ مخمور في 1923، لِيَتَمَّ القبض عليه وإيداعه بالسجن. أُفْرِجَ عنه بعد ثلاثة أشهر ضمن عفو عام عن المحبوسين على ذِمَّةِ قضايا سياسية في لعبة التوازنات وصراع القُوَى مع سعد زغلول وأنصاره.

حصل على البكالوريا سنة 1925، ورغم أن ترتيبه جاء ضمن المائة الأوائل في المملكة، إلا أنه فَضِّلَ الالتحاق بالكلية الحربية ليحتلَّ فيها نَوْماً الترتيب الأول، ويعمل في سلاح الفرسان. ثم قام بتدريس التاريخ العسكري في الكلية، مُلهِياً حماس طُلابه بقصص عن الجهاد ضد المُحتلِّ من خارج المنهج ممَّا أغضب رؤسائه منه... كانت حياته مزيجاً رائعاً من التفوق العسكري وبطولات الفروسية والتدينُّ العميق، والأخلاق العالية، والشغف الشديد بالقراءة والبحث. وكان له إنتاج إبداعي فكري مُميِّز، ومن أعماله

"السياسة والحرب" وهو بحث تاريخي رفيع المستوى، وكذلك ألف بالاشتراك مع رفيق سلاحه عبد الرحمن زكي كتابًا بعنوان "النجاة من الموت في البحار والغابات والصحاري!"

-----

الحادث الفارق المِفْصَلِي في حياة أحمد عبد العزيز، دارت وقائعه على بُعد تسعة آلاف كم من منزله!

الزمان: مساء يوم 29 نوفمبر 1947

المكان: مبنى الأمم المتحدة بمدينة نيويورك

القرار: الموافقة على تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب، بعد انتهاء الانتداب البريطاني، على أن تبقى مدينتا القدس وبيت لحم تحت الوصاية الدولية. وصدر القرار بتصويت 56 دولة عضو في الأمم المتحدة، بتأييد 33 دولة على رأسها أمريكا وروسيا وفرنسا، وامتناع 10 دول وفي مُقَدِّمَتها بريطانيا والصين والأرجنتين، واعتراض 13 دولة ومن بينها الهند وتركيا ومصر.

رد الفعل: خطاب رسمي عاجل مُرْسَل من القائمقام أحمد عبد العزيز إلى الفريق محمد حيدر باشا وزير الدفاع الوطني، كتب فيه: "يشعر الشرق قاطبةً والمصريون عامةً وضباط الجيش خاصةً بالعطف على قضية فلسطين وعلى كفاح العروبة من أجلها. إنَّ الخطر الصهيوني يُهَدِّد الشرق الأوسط، وإذا استفحل أمره وقويت

شكيمته، فإنه سيَهَيِّدُ مصر بين سائر الأمم، وسيكون من الصعب القضاء عليه. ولذلك فإنني أحسُّ بالواجب الوطني يفرض عليَّ أن أتطوَّع فورًا لخدمة فلسطين

كان عبد العزيز أوَّل مَنْ قرَّرَ التطوُّع من ضُبَّاط الجيش. وهو ما أزنك القيادة المصرية، فلا رَدَّتْ طلبه بالرفض ولا سمحت له بالسفر. وظلَّ أمره مُعلَّقًا حتى زادت الضغوط على الحكومات العربية، وأعلن بعض شباب العرب صومهم، حتى تدخل جيوش العرب فلسطين، ممَّا حدَا بأمين الجامعة العربية للإعلان عن فتح باب التطوُّع، ليُسمَحَ لـ عبد العزيز بالسفر بعد أن أحال نفسه للاستيداع من الجيش برغبته، وكان وقتذاك برتبة عقيد (قائمقام). فجرى تعيينه قائدًا عامًا لكتيبة القوَّات الخفيفة الكوماندوز المتطوِّعين لتحرير فلسطين من عصابات بني صهيون.

في الفترة بين نهاية نوفمبر 1947 ومنتصف مايو 1948 - يوم الإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل -، شهدت مصر حالة من التوجُّد حول مطلب الجهاد وتحرير الأرض. واشترك في الزخم الثوري كلُّ طوائف الشعب، وعلى رأسهم الفنانين بقيادة تحية كاريوكا وشكوكو من خلال حفلاتٍ فنية يذهب دَخلها كاملاً لإعانة مُجاهدي ومنكوبي فلسطين، وكذلك النوادي الرياضية وفي



مَقْدَمَتها النادي الأهلي بقيادة وكيله، الصحفي الشهير الأستاذ  
فكري أباطة، عن طريق حفلات خيرية وجمَع تبرُّعات.

قام عبد العزيز برحلة استطلاع سرِّيَّة إلى فلسطين في مطلع  
أبريل 1948 فور تسلُّمه مهام منصبه. وحاول قَدْر استطاعته  
تنظيم المُتطوِّعين وإعدادهم للقتال في معسكر الهايكستب، بعد أن  
جمع ما نجح في الحصول عليه من السلاح والذخيرة من الجيش  
ومن مُخلفات الحرب العالمية الثانية.

كانت نواة أعداد المُتطوِّعين من المصريين 359 فدائيًّا - كان  
جَدُّ كاتب السطور مُنْسَبَ حملة تجميعهم! - منهم 112 ضابطًا  
وجنُديًّا، و 247 من الأهالي، وكذلك انضَمَّ إليهم 97 مُتطوِّعًا من  
ليبيا وتونس، ليصبح الإجمالي 456 تحت قيادة عبد العزيز أقدم  
رُتبة في قُوَّات الفدائيين... وفي الأوَّل من مايو تحرَّكت كتائبه  
تجاه العريش. وكانت تحت سيطرة الإنجليز. وهناك سعى للعثور  
على وسيلة بديلة لإدخال السلاح والجنود إلى فلسطين بعيدًا عن  
أعْيُن الإنجليز. وبالفعل نجح بالتحايل، ودخل فلسطين من آخر  
مكان يُمكن للإنجليز تصوُّره. سارت قُوَّات عبد العزيز بعربياتها  
العسكرية على شريط السكَّة الحديد من رفح وحتى خان يونس!...  
وعند الوصول إلى خان يونس وَجَّه لكتيبته نداءً يقول: "أُيُّها  
المُتطوِّعون! قبل أن نتحرَّك إلى جبهة القتال، يجب أن نؤمن تمامًا

بالغاية النبيلة التي نحارب من أجلها. إنَّ حَرْبًا هذه أهدافها هي الحرب المُقدَّسة. وهي الجهاد الصحيح الذي يفتح أمامنا أبواب الجنَّة. ويضع على هاماتنا أكاليل المجد والشرف. فلنقاتل العدو بعزيمة المُجاهدين. ولنعلِّمَ أنَّ أبناء وطننا ينتظرون سماع أخبار انتصاراتنا وأعمالنا المجيدة. ولنخشَّ غضب الله وحُكْم التاريخ إذا قصَّرتنا في أمانة هذا الجهاد العظيم ومن اللافت أن تلتقط كُتُب التاريخ إشارةً من المُخابرات إلى العمليات في تاريخ 7 مايو نقول: "تحرك أحمد عبد العزيز سعت 2300 مع قُوَّاته إلى خان يونس. ابتدأت قُوَّات شرق الأردن في الانسحاب من غزة إلى شمال الخليل. مصدر غير مؤكَّد أنَّ اليهود سيحتلُّون العوجة في ظرف 48 ساعة"... ثم في 10 مايو الساعة 1600: "من العمليات إلى العريش: أحمد عبد العزيز يحتلُّ عوجة فلسطين بكلِّ قُوَّته حالاً".

وكان عبد العزيز من القادة الذين يؤمنون بالمُخاطرة والمُبادرة، ويميل إلى الفِعْل، ولا ينتظر كي يَزُدَّ الفِعْل. وكان كثيرًا ما يندفع للاقتحام المُباشِر على رأس قُوَّاته غير آبهٍ بالموت. وعندما وَرَدَتْ معلومات عن مُستعمرة كفار داروم، كوَّنها مصدر إزعاجٍ كبيرٍ للعرب، قرَّر أن تكون هي أوَّلَى أهدافه. وكانت الخُطَّة تقتضي قيام المدفعية بِدِكِّ أبراج المُراقبة بقيادة كمال الدين حسين أحد الضبَّاط الأحرار فيما بعد، ثم نَسَفِ حقول الألغام والأسلاك الشائكة، ثم مُهاجمة المُستعمرة من الداخل... لم تؤدِّ المعركة الغرض، بسبب

قُوَّةَ التحصين والتأخُّر في الهجوم حتى بزوغ الفجر وصعوبة الاقتحام المكشوف تحت نيران العدو. لكن عبد العزيز نجح في مُحاصرة المُستعمرة ومنَع الإمدادات، وتمكَّن في اليوم التالي من استعادة الروح المعنوية لرجاله بالهجوم على قافلة مُحمَّلة بالجنود والعتاد. ونجحت قُوَّاته في الاستيلاء على 15 سيارة مُصَفَّحة وكميَّات كبيرة من الذخيرة والإمدادات، وقتل الجنود المُصاحبين للقافلة. وكانت فائدة هذا الاستيلاء الأوَّل على بعض ما يملك العدو عظيمة، إذ لم تُكُن قُوَّات عبد العزيز تمتلك سوى الأسلحة الخفيفة كالبنادق والرشَّاشات وعدد قليل من المدافع غير المُتطوِّرة، بالإضافة إلى عدد من السيَّارات غير المُصَفَّحة.

واقنع عبد العزيز بعد هذه البداية، أن يُعدِّل في إستراتيجيته، مُعتمِدًا على تكتيك حرب العصابات، واعتراض طُرُق القوافل المُصَفَّحة وإبادة جنودها، وضرب المُستعمرات بالمدفعية لإضعاف قُدَّراتها عن بعد. وكانت قُوَّاته على صِعْر حَجْمها المُنتاهي تُسبِّب إزعاجًا بالغًا لليهود، إلى الحدِّ الذي حرَّمهم من التجوُّل في صحراء النقب بالكامل خوْفًا من عبد العزيز، المُلقَّب بنمر فلسطين!

وفي 15 مايو حدث تغيير جذري على ساحة المعركة. فقد نزل العَلَم البريطاني وارتفعت رايات إسرائيل، وأعلن بن جوريون قيام الدولة الإسرائيلية، ونالت اعتراف أمريكا بعد 11 دقيقة! ولم يُعدِّ

أمام الدول العربية سوى دخول المعركة رسمياً بجيوش نظامية، لا بفدائيين لم تكن تدعمهم بإخلاص على أية حال! ومن الغريب أن أحمد عبد العزيز كان ضد التّدخّل الرسمي. وكان يؤمن بالحرب الخاطفة لثلاثة أسباب: أولاً: إنّ الجيوش بطيئة ذات عتاد مُهكّ ومرونة مُنعدمة. ثانياً: إنّ تّدخّل جيوش دول، سوف يعطي إسرائيل الذريعة سياسياً لاكتساب تعاطف عالمي، فضلاً عن دعم مادي وحربي من الحلفاء والأصدقاء وأثرياء اليهود في كلّ مكان. وهو ما حدث بالفعل! ثالثاً: إنه لم يكن يؤمن بصدق نوايا الحكومات العربية، ويعتقد أنها مدفوعة للاشتراك في الحرب دون إعداد حقيقي أو دعم فعلي للجنود على أرض المعركة... لكن عبد العزيز لم يكن أمامه سوى الانضمام ولو ورقياً للقوّات النظامية، حرصاً على عدم شقّ وحدة الصف. ونجح مبدئياً في تأمين الطريق للجيش المصري؛ كي يدخل فلسطين بمحاذاة ساحل المتوسط. وعندما كلّفوه بحراسة قوّات المواصلات، رفض تلك الإهانة لقدراته. وقرّر أن يتوغّل إلى الداخل لمساندة القوّات المصرية بتستيت انتباه العدو عنها... توجّه إلى بئر سبع، ونجح في احتلالها بعد معركة عنيفة في الطريق. واستقبل الأهالي عبد العزيز بالهتاف والأعلام بعد سيطرة الفدائيين على بئر سبع. وبدأ الانضمام التدريجي لبعض عناصر المُقاومة الفلسطينية والأردنية تحت قيادته. من مدينة الخليل أتاه وفدٌ يدعو للوقوف إلى جانب

الجيش الأردني للدفاع عن الخليل وبيت لحم. وبدأ بالفعل بالحركة دون تنسيقٍ مع الجيش النظامي الذي كان لم يَزَلْ يتحرَّك بمُخَاذاة الساحل. وبدأ عبد العزيز استعدادَه بزيارة قبر إبراهيم والصلاة، تأهبًا للدخول في معركة طاجنة مع الصهاينة عند مُستعمرة رامات راحيل المنيعة ذات الموقع الإستراتيجي في الطريق إلى القدس.

في مساء 26 مايو، وبينما كان جنود الهاجاناه في رامات راحيل نائمين مُطمئنين إلى مناعة حصونهم، بدأت قُوَّات عبد العزيز تتحرَّك في خِفة وبصُحْبَتها أفرادٌ من قُوَّات أردنية وعلى رأسهم البطل الأردني عبد الله التل الذي أدرك مهزلة العمل تحت إمرة الجنرال جلوب البريطاني الذي كان يقود الجيش العربي الأردني ضد حليفة بريطانيا إسرائيل! بدأت المدافع المصرية تُدكُّ الحصون، وشبَّت الحرائق في الأكشاك الخشبية، واندفع الفدائيون مُستغلين عامل المفاجأة عبر الأسلاك الشائكة لتفجير الألغام واقتحام المُستعمرة. وعند الخنادق والدُشَم التي كان يحتمي بها الصهاينة، بدأ اشتباك رهيبٌ في مُنتصف الليل، ولم يسعفهم استماتتهم في الدفاع عن المُستعمرة، فنجح الفدائيون في اعتلاء الأبراج والسيطرة على ميدان المعركة الذي فرَّ منه كلُّ مَنْ تمكَّن من الصهاينة في اتجاه مُستعمرة تل بيوت على مشارف القدس الغربية. ومع آذان فجر اليوم التالي، كان المصريون يُكثِّرون للصلاة فوق رامات راحيل!

كانت معركة رامات راحيل حاسمة في إكساب عبد العزيز سُمعة مُدَوِيَّة في الشارع الفلسطيني والعربي. وكانت الكفاءة المُنْقِطعة النظير التي أدار بها هذه المعركة مثار إعجاب الجميع. حتى أن محمد حسنين هيكل، وكان لم يَزَلْ بعد مُراسِلاً حربياً شاباً، انتبه لذلك الرجل، ونجح في نشر صورة شهيرة له في الصفحة الأولى بجريدة الأخبار، وهي الصورة التي عرَّفَت الوطن العربي به، ورَفَعَت معنويات الشعوب العربية فَضْلاً عن الجنود... كَتَبَتْ عن بطولاته الصُّخْف، وعن براعته في شَقِّ طريقه من خان يونس عبر غزة ويثر سبع والخليل وصولاً إلى بيت لحم مهد المسيح في أَقَلِّ من شهر واحد من القتال! وتزامنت انتصارات عبد العزيز مع نجاح القُوَّات المصرية النظامية في 7 يونيو في الوصول إلى مدينة إسدود على الساحل، ثم التقدُّم شَرْقاً في اتِّجَاه الخليل وبيت لحم، والالتحام بقُوَّات الفدائيين في لحظة تاريخية نادرة، تُعيد إلى الأذهان التقاء قُوَّات الحُلَفَاء المُنتصرين عبر شرق ألمانيا وغربها بعد دُخْر النازيين!

وفجأة... حدث ما هو غير مُتَوَقَّع بالمرَّة!

فقد أعلنت الأمم المتحدة الهدنة الأولى في 11 يونيو، مُعْطِلة تَوَعُّل المصريين والعرب، ومُتِيحة الفرصة للصهاينة لاستقدام مَدَدٍ من السلاح. وكانت المأساة أن تَشَدُّد الرقابة على الجانب العربي؛

كي تبقى الأوضاع على الأرض بلا تغيير أثناء الهدنة، قد واكبته تساهلٌ شديدٌ مع الصهاينة لاستعادة التوازن المفقود.

وبعد استئناف الحرب، بادرت إسرائيل بالهجوم الوحشي على اللد والرملة. وردَّ عبد العزيز بالهجوم على عسلاج التي كان اليهود قد استولوا عليها خلسةً أثناء الهدنة؛ لأهميتها في الإمداد التمويني للعرب. وبعد معركة عنيفة استعادها عبد العزيز بقواته الخفيفة وقام بتسليمها للجيش النظامي الذي فشل من قبله في اقتحامها!... وبحلول منتصف يوليو كان البطل المصري على مشارف القدس، يحتلُّ خطأً على هيئة نصف دائرة في مواجهة المدينة العتيقة. وكانت مقسمةً آنذاك إلى قُدسٍ شرقية قديمة تحت سيطرة العرب، وقُدسٍ غربية جديدة في امتدادٍ مُلتصِقٍ تحت سيطرة اليهود. وكانت القدس ككلٍ واقعة تحت الإشراف الدولي بموجب خطة التقسيم. وكان عبد العزيز على وشك تطوير الهجوم والزحف على القدس الجديدة... وفي 16 يوليو وصلت برقية مُحِبطة من القيادة العليا بالقاهرة إلى اللواء الماوي بك قائد الحملة النظامية بفلسطين، وجاء فيها أمرٌ مباشر بإبلاغ أحمد عبد العزيز أن يوقف إطلاق النيران ويسحب قُوَّاته على مشارف القدس إلى الخلف!

علَّقَ عبد العزيز غاضبًا من القرار في عبارة مُرعبة قائلاً: "لو لم تُحرَّر القدس الغربية غدًا، فلن تُحرَّر إلى يوم القيامة!"

جاء قرار وقف الهجوم بدعوى الاتفاق على الهدنة الثانية. وهنا يبرز دور الملك عبد الله الأردني المريب، وتساهل الحكومة المصرية الكنيب!

وعلى امتداد أسابيعٍ تالية، نجح عبد العزيز في موقعه الملائق للقدس الشرقية في الزود عنها ضد محاولات الصهاينة المستمرة لاحتلالها، حتى أن بن جوريون قام بعزل قائد منطقة القدس، وتعيين موشيه ديان بدلاً منه. وكانت براءة عبد العزيز أنه يدافع ببسالة عن القدس دون إمدادات تموينية أو سلاح بسبب الهدنة، في ظلّ تعزيز الصهاينة بالأسلحة الثقيلة أثناء الهدنة ذاتها! وفي 17 أغسطس تحركوا مُستهدفين القدس، ودارت معركة حامية بين عبد العزيز وديان، تَمَكَّن فيها عبد العزيز من إبقاء القدس تحت سيطرة عربية، رافعاً العلمين المصري والفلسطيني فوق أسوارها. ويشهد التاريخ أنه لولا البطل أحمد عبد العزيز لسقطت القدس الشرقية في أيدي إسرائيل منذ أغسطس 1948، ولما احتاجت إلى الانتظار حتى يونيو 1967!

وفي نهاية الأمر لجأ الصهاينة من خلال الأمم المتحدة للاتصال بالحكومتين المصرية والأردنية لترسيم خطوط الهدنة من جديد. في 20 أغسطس تسلّم عبد العزيز رسالة من مندوب لجنة الهدنة بالأمم المتحدة بشأن اقتراح بعقد لقاء مع موشيه ديان



والجنرال رايلي رئيس المراقبين بالقدس والصليب الأحمر. وفي طريقه للاجتماع، حاول الصهاينة اغتياله وتفجير سيارته، لكنه نجا. ثم عاودوا مُطالبتهم بالمقابلة مع المصريين. وطلب ديان لقاء عبد العزيز تحديدًا. وافق عبد العزيز على مَضَض، لكنه أصرَّ ألاَّ يصافح الجانب اليهودي، بل وأمضى ساعات المُفاوضات واقفًا؛ كي لا تجمعه جلسة واحدة مع الصهاينة. ويحتفظ له التاريخ بهذه الصورة المُؤتة للنظر، بوقفته مُتَجَهَمًا أمام طاولة المُفاوضات، بينما موشيه ديان أمامه جالسًا يقَلِّب في الأوراق!

شاركه عن الجانب المصري في المفاوضات اليوزباشي صلاح سالم المُوقَد إليه من قيادة الجيش النظامي. وفي وقت مُتأخَّر من ليلة 22 أغسطس انتهت المفاوضات، وأصرَّ صلاح سالم على العودة إلى حيث يقيم المواوي بك قائد الحملة في الليلة نفسها. استمهله عبد العزيز حتى الصباح، فرفض. فرافقه عبد العزيز في الطريق؛ كي يُطلِّع القيادة على تفاصيل ما جرى.

وهنا تتكتب النهاية السخيفة للبطل الأسطوري!

فعند إحدى نقاط التفتيش الخاضعة للسيطرة المصرية، اختلط الأمر على الحراسة المصرية التي تُؤمِّن الطريق، وأطلق أحدهم دَقَّةً من رشَّاشه نحو السيارة المُسرَّعة في الظلام. فشاء المَوَلَى أن يتلقَّها عبد العزيز في صدره ويموت بالنيران الصديقة على الفور!

تعددت التفسيرات بشأن الحادث. قيل أن عبد العزيز وسالم لم يكونا يعرفان كلمة سير الليل، لذا اشتبهت فيهما الحراسة. وإن كان صلاح سالم نفسه قد نفى ذلك فيما بعد، وأكد أن كلمة سير الليل كانت غرّة! وقيل أن بعض الفلسطينيين كانوا يقطعون الطُّرُق ليلاً على القوافل الإسرائيلية، وظنّوا السيارة الجيب تابعة لهم. وقيل أن فاروق قرّر التخلُّص منه خشيةً من نفوذه، إذا ما نجح في إنقاذ فلسطين، وعاد بطلاً ينقلب على الملك ويلتق حوله الشعب! وأياً ما كان الأمر، فالأرجح أنها رصاصة طائشة كما أبرزت صُحف صباح اليوم التالي... كان لوفاته صدى عظيم في الدول العربية التي نعتّه صُحفها وسَطَ ذهولٍ تامٍ وفجيرةً كبرى. كما نعتّه جميع مَحَطَّات الإذاعة العربية. وكذلك نقلت وكالات الأنباء العالمية خبر وفاته. وكتب عنه توفيق الحكيم مقالاً بليغاً بعنوان: هذا هو البطل! حَتَمَهُ بقوله: "هذا هو البطل. يُصَدِّرُ الأوامر ويُحَقِّقُ الهِمَمَ ويُشْعِلُ الحِمَاسَةَ ويُحَرِّكُ الجيوشَ أماً زوجته، فقد تلقت الخبر بثباتٍ غريبٍ، واكتفت بقولها: "عوّضَ اللهُ البلادَ خيراً!"

مِمَّا يُؤسَفُ له أنّ ذلك الحادث العارض الذي تسبّب فيه عسكري مغمور في لحظة ارتباك مُرَعِجَة، قد أثار على مَجْرِيَّات تاريخٍ بأكمله. فرغم أنّ الصهاينة كانوا قد استعادوا خطورتهم بعد الهُدنة الثانية، وتمّ استخدام آلاف المُتطوِّعين عبْرَ العالم مُدَجِّجين بأسلحتهم المُتقدِّمة، إلّا أنّ عبد العزيز كان قائداً فذاً. وكان

يتفاوض مع ديان من موقف قُوَّة. وكان على وشك السيطرة على القدس الغربية. وكان وجوده مَنَارَ اطمئنانٍ لجنوده، بل ولجنود سائر القوات العربية في مُختلف أركان فلسطين.

ورغم الحفاوة بـ **عبد العزيز حياً وميتاً**، ورغم قيام أهالي بيت لحم بجمع المال لإقامة مقبرة تليق به، إلا أن تكريمه لم يكن على قدر قامته وقيمته. فلا عملة سُكِّتَ باسمه ولا طابع بريدي صدر في ذكره، ولا تمثال له أُقيمَ في مصر. في عهد فاروق خافوا من تأثيره المُلمِّه على الثَّوار والمُعارضه. وفي عهد ناصر لم يشاءوا أن يُمجِّدَ الناس زعيماً أو بطلاً سواه.

وبعد 58 عاماً من حرب فلسطين، أُوزِدَتْ وكالات الأنباء خَبَرًا مُقتَضِبًا يشير إلى أعمالٍ استيطانية مُتواصلة في ضريح راحيل شمالي بيت لحم، وهو ما أدَّى إلى مُحاصرة النُّصب التذكارِي لقبر البطل أحمد عبد العزيز. أُحيط النُّصب بأسلاكٍ شائكة، بينما ارتفعت بجانبه الأسوار العالية وفتحات المراقبة التي يُشهرُ منها الجنود أسلحتهم... وكان اليهود قد سبق وأن أطلقوا رصاصاتهم على شاهد قبره أثناء حرب يونيو، وما زالت آثار الرصاصات باقية حتى اليوم، لكنَّها لم تكسره ميتاً، كما فشلت في كسره حياً في أكثر من 15 معركة حربية خلال ثلاثة أشهر!

-----

ويعد...

فإن كانت قد قامت ثورة في البلاد. فالمرء يأمل أن تصل الثورة للعباد. وبدلاً من أن يأتي رمضان عام الثورة حاملاً معه مسلسل الراقصة "سمارة"، ويتم تصنيفه إعلامياً على أنه مسلسل تاريخي، باعتبار أن شخصية الراقصة قد سبق تقديمها في السينما قبل أكثر من نصف قرن! وبدلاً من أن يهتف علينا شهر الصوم وفي جعبته مسلسل "شارع عبد العزيز"، أيًا كانت جودة المسلسل الذي لم أشاهده، وتعود تسمية الشارع إلى سلطان تركي عاصر الخديوي إسماعيل، وتحول الشارع مع الزمن إلى ما تحول إليه... نبتهل إلى المولى عز وجل أن يختار المنتجون أحد العريزيين في مقبل السنوات؛ حتى يخدم الفن المجتمع، ويكفر عن سيئاته من عري وهياقة واستهلاك للعقول في كل ما هو باعث على السقوط ومؤذٍ للانحطاط!

## السَّرِقَةُ الْمُسْتَحِيلَةُ!

في السابعة من عمري:

كان لي صديقٌ يَهْوَى الأشغال اليَدَوِيَّةَ، شَعُوقًا بِصُنْعِ أوستيك السكوبيدو. ذلك الشكل المَكُون من أليافٍ مُلَوَّنة، ويعشق الأطفال وَضَعَهُ حَوْلَ رُسْغِ اليَدِ؛ ليقوم مقام الساعة عند الذكور والغوايش لَدَى الإناث. وكان صديقي يعلم كَسَلِي في مُزَاوَلَةِ تلك الأشغال. وذات يومٍ، قَرَّرَ أن ينجز سكوبيدو خِصِيصًا من أجلي، وأن يهديني إيَّاه، رغبةً منه في استمالي للذهاب معه للسباحة، بدلًا من الإصرار على لعب الكرة في حَرِّ الصيف القاطن. قَرِخْتُ بالهَدِيَّةِ، ذاهبًا معه حيث يُريد، تاركًا السكوبيدو في إهمالٍ على منضدةٍ مُطَلَّةٍ على الحمام، دون أن أهتمَّ بوضعه داخل حقيبي المُلقاة على كُرسي مِلاصِقِ للمائدة. عُدنا إلى حيث أسيَّاننا، لأفاجأ بـ السكوبيدو وقد تَمَّتْ سرقتُه، طَمَعًا في زَهَاءِ ألوانه وبراعة عَقْدِهِ. غضب مني صديقي؛ لعدم اكتراثي بهديته. أقسمتُ له أنني لم أقصد. فقط لم أَتَحَيَّلْ أن مثل هذه البتاعة قد تكون مَطَمَعًا للنهب!

في العاشرة من عمري:

كانت لَدَيَّ نَظَّارَةُ شمس بلاستيكية، من النوع الفوسفوري المُنتَشِرِ كموضئة زاعقة في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي.

وبالبدء في تقسيمة كرة قدم بملعب كرة اليد بنادي الشمس الرياضي، كان لا بد من التخلي عن النظرة خوفًا من الكسر. وبالانتهاء من المباراة بفوز رائع، كنتُ على موعد مع خسارة مُرّعة... فقد سرق أحدهم نظّرتي الفوسفورية الخضراء من فوق الكرسي البلاستيك الأحمر في ملعب الهانديبول الرمادي!

في العشرين من عمري:

كان ثمن باكو المناديل الفاخر ثلاثين قرشًا. وكنتُ في الشتاء، حيث تضعف مناعتي وتختلُّ الإنفلونزا جسدي. ولمّا كنتُ أُجهزُ على مخزوني من المناديل التي أطيّقها بعناية داخل جيوبي، فُيبل الخروج من المنزل في طريقي للجامعة، فقد كان من الضروري أن أُعدّ العُدّة لإمدادات إستراتيجية إنقاذًا للموقف. وفي ذلك اليوم، اشتريتُ الباكو، واستعملتُ منديلًا واحدًا منه. لينتهي مصير الباكو المُكتنّظ في يد "عزقان أو بزدان في غفلة مُعتادة من "سرحان"!

في الثالثة والثلاثين من عمري:

ذهبتُ في عُمره، ماكنتُ في المدينة المنورة عدّة أيّام حول المسجد النبوي، مُنتقلًا إلى مكّة المُكرّمة، مُعتمِرًا في الطريق، مُشتاقًا للعبة المُشرفة. بادئًا في العُمره فور الوصول إلى الفُنْدُق المُلاصِق للحرم، تاركًا الشبشب في واحدٍ من الأماكن المُخصّصة لذلك. مُنتهيًا من العُمره، مسروقًا مركوبي، مركوبًا بالدهشة!

رُبَّمَا سُرِقَتْ مِنِّي وَمِنْكُمْ عَشْرَاتُ الْأَشْيَاءِ الْمُهَيْمَةِ وَغَيْرِ الْمُهَيْمَةِ.  
رُجَاجَةٌ مَاءِ بَجْنِيهِ وَرُبْعٌ أَوْ سَاعَةٌ يَدٌ بِمَبْلَغٍ وَقَدْرِهِ. مُتَلَّثٌ مُتَسَاوِي  
الْأَضْلَاعِ أَوْ تَلْيِفُونَ مَحْمُولٌ بِتَحْوِيشَةِ السَّنَةِ. بُرْنِيظَةٌ مَزْرَكِشَةٌ مِنْ  
الْخُوصِ أَوْ حَافِظَةٌ نَقُودٌ بِالْبِطَاقَةِ وَالرُّخْصَةِ. وَرُبَّمَا نَجَوْتُ وَإِيَّكُمْ  
مِنَ السَّرْقَةِ النَّاجِمَةِ عَنِ غَفْلَتِنَا مِائَاتِ الْمَرَّاتِ، بِسَبَبِ مُسَاعَدَةِ  
مِلْيَائِينَ الشَّرَفَاءِ، إِلَّا أَنَّنَا كَذَلِكَ تَعَرَّضْنَا لَهَا بِسَبَبِ سُلُوكِيَّاتِ آلَافٍ  
غَيْرِهِمْ... لَكِنِّي أَشْهَدُ اللَّهُ أَنَّ شَيْئًا بَعَيْنَهُ لَمْ يُسْرَقْ مِنِّي قَطْ - وَرُبَّمَا  
مِنْكُمْ كَذَلِكَ - مِنْذُ وُلِدْتُ فِي 1977. وَأَكَادُ أَقْسِمُ أَنَّهُ لَنْ يُسْرَقَ مِنِّي  
أَبَدًا إِلَى يَوْمِ أُبْعَثُ حَيًّا!

نَسِيتهُ فَوْقَ كُرْسِيٍّ عَلَى الْبَحْرِ. نَسِيتهُ فِي مِينِي بَاصِ 39  
الذَّاهِبِ مِنْ مَحَطَّةِ الْمَاطِظَةِ إِلَى جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ. تَرَكْتُهُ مِائَاتِ الْمَرَّاتِ  
عَلَى مَائِدَةٍ فِي النَّادِي؛ كَيْ أَحْجَزَ بِهِ الْمَكَانَ الْمُمَيَّزَ تَحْتَ ظِلِّ  
شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ، لِحِينِ عَوْدَتِي مِنْ دَوْرَةِ الْمِيَاهِ. نَسِيتهُ فِي مَطْعَمِ بِيْتَزَا.  
نَسِيتهُ فَوْقَ سَقْفِ سَيَّارَتِي الـ 128 الْبَيْضَاءِ أَمْ خَطِينَ حُمْرٍ، بَعْدَ أَنْ  
انْشَعَلْتُ بِإِغْلَاقِ السَّيَّارَةِ بِالْمِفْتَاحِ... بَلْ وَالْقَيْتَةَ عَمْدًا فِي الْجِرَاجِ  
أَمَامَ مَحَلِّ سَكْنِي، وَعَادَ إِلَيَّ غَضَبًا!

إِنَّهُ... إِنَّهُ... إِنَّهُ... أَلْ ك ت ا ب!

وَفِي تِلْكَ الْمَرَّةِ الَّتِي طَوَّحْتُ بِهِ فِي الشَّارِعِ، أَرَدْتُ أَنْ يَلْتَقِطَهُ  
جَارٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، لَرُبَّمَا فَكَّرَ فِي قِرَاعَتِهِ. وَكَانَ الْكِتَابُ مِنْ

تألفي. قَضَيْتُ أربع سنوات أكتبه. ولم أجدُ له قارئاً. ومن المُذهل،  
أُنِّي وبعد أن تَخَلَّصْتُ من نُسخة في حَيِّ بيتنا، فوجِئْتُ بمنْ يَرُنُّ  
جَرَسَ شَقَّتِنَا، ويعطيني الكتاب في يدي، بعد أن تَعَرَّفَ على  
مُلْكِيَّتِي له من اسمي "الملطوع" على غُلافه، مُبْتَسِماً في تواضع  
من قام بِعَمَلِ نبيلٍ لا يَسألُ عنه أَجْراً. وعندما سألتُه: "ولماذا لم  
تحتفظ به؟" أَجابني في دهشة واستنكار: "وأعمل بيه إيه؟!"

على رأيه، هيعمل بيه إيه يعني!

إِحْقاقاً للحقِّ، وإنصافاً للتاريخ، وأمانةً مع النفس والغير، أَذْكرُ  
أنَّ واقعة سرقةٍ واحدةٍ تَعَرَّضْتُ لها تَخُصُّ كِتَاباً. وكان ذلك عندما  
وَضَعْتُ قَلَمًا بين صفحاته؛ كي أُعَلِّمَ به المكان الذي تَوَقَّعْتُ عنده  
في القراءة، ذاهباً لشراء ساندويتش فراخ بانيه من الكافيتريا  
بالنادي. وبعودتي، وَجَدْتُ الكتاب مَقْلُوباً على وجهه، مَفْتُوحاً على  
صفحتي المُخْتارة. وأمَّا القلم... فقد اختفى!

لكنَّ السارق كان يتمتَّع بالذوق. فلم يَشَأْ أن يخناس القلم ويغلق  
الكتاب، فتضيع العلامة، وتتوه مني صفحتي. هذا حرامي يحترم  
الثقافة في بلدٍ يقدِّسها. فَسُرِقَ فيه كُلُّ الأشياءِ، إلآه. توافيها  
والثمين منها، ما عداه. فالعلمُ - وكما قال الببححاني لا يُكَيَّلُ  
بالبتجان!



## حمدي و شندي!

الْفَلَكَ عِلْمٌ وَاسِعٌ مُثِيرٌ مُشَوِّقٌ مُذْهِلٌ.

للغرب باعٌ طويلٌ فيه، استكمالاً لما أنجزه الإغريق، الذين بدّورهم وأصلوا ما بدأه قدماء المصريين وسائر حضارات الشرق القديم. وللفلك زاوية أكثر ضيقاً، تتناول حركة الأبراج وتأثيرها على حظوظ البشر وأمزجتهم وطبائعهم وفقاً ليوم الميلاد وساعته... وفي التاريخ المصري الحديث هناك شخصان لُقّبوا بـ "الفلكي أحدهما نال شهرة واسعة في العقدين الأخيرين، والآخر لا يعرفه سوى عددٍ محدودٍ جداً من المصريين على أحسن الفروض!"<sup>26</sup>

محمود حمدي الفلكي. عبد العظيم شندي الفلكي.

حمدي، من مواليد الرُّبع الأول من القرن التاسع عشر.

شندي، من مواليد الرُّبع الثاني من القرن العشرين.

حمدي، رائدٌ في عِلْمِ الفلك الأثري. له أبحاثه الفلكية المُبتكرة مع مطلع النهضة المصرية في زمن محمد علي، مُستطيعاً تحديد عُمُر الهرم الأكبر، ما لم يسبقه إليه أحدٌ من عُلَماء الغرب في

---

هناك ثالث لُقّب بـ "الفلكي"، هو إسماعيل الفلكي الذي زامل حمدي في بعثته، ولم يَحْطْ بمكانته العلمية الكبيرة رغم نبوغه وتوَلّيه مناصب رفيعة.

عصره، مُثيرًا إعجاب الفلكيين والأثريين على السواء. وكانت بداية مُوقَّفة لظهور علم الفلك الأثري في مصر، والمعني بربط الظواهر الفلكية والمعالم التاريخية، لإتمام القياسات الدقيقة. وهو علمٌ يبحث في سبر أغوار الماضي.

شندي، لا يَهْمُه الماضي. ولا يشغله سوى المستقبل. فهو فلكي أو مُنَجِّم إن شئنا الدقة. ويجتهد لقراءته والتنبؤ بما سيحمله العام الجديد. وبرع في تحرير باب حظك اليوم بالأهرام لسنواتٍ طوالٍ. وذاع صيته في جعبة الثمانينيات عندما أطلق حُرْمَة من التنبؤات، تحصن انهيار الاتحاد السوفيتي. وقيل أن له توقُّعات بشأن فضيحة بيل كلينتون وأحداث 11 سبتمبر. كما توقَّع أن تتألق فاتن حمامة في مُسلسلها وجه القمر.

حمدي، القمر لم يَغِب قط عن اهتماماته. وذلك عندما استغلَّ المرصد الفلكي الذي ألحقه محمد علي باشا بمدرسة المهندسخانة ببولاق أثناء تعيينه مُدرِّسًا للجبر بها، مُتعرِّفًا على الساعة الفلكية وآلات الرصد الحديثة، ملاحظًا سائر الكواكب والنجوم في سعادة. وقد رَشَّحَه تلميذه بالمهندسخانة على مبارك لبعثة إلى فرنسا كونه الأول على دُفْعته، بعد أن تم تعيين مبارك في سنِّ صغيرة ناظرًا لمدرسة المهندسخانة. وكان نابغًا مَوْلَعًا بالعلوم الرياضية مُتقنًا للغة

الفرنسية، مُترجمًا أوّل كتابٍ في عِلْمِ النفاضِل والتكامل من الفرنسية إلى العربية.

شندي، القنوات العربية تَلَفَّته في الساعات الأخيرة من رؤوس بعض السنوات الميلادية، وفي الأعياد ذات نسبة المُشاهدة الكثيفة؛ كي يُطَلِّع الجمهور على أسرار المُستقبل وما تحمله دهاليز الأيام من مفاجآت. فتحدّث عن الغزو الأمريكي للعراق أثناء الإعداد له. وفشل في تحديد توقيت الغزو ونتائجه. وتوقَّع أن يتخلّى صدام حسين عن الحُكم لابنه عُدَيّ. فقِيلَ عُدَيّ، وشنق أبوه! ورغم فشل العديد من تنبؤاته، ظلّ أحد نجوم القنوات الفضائية.

حمدي، الفضاء كان بين ما درسه أثناء حصوله على شهادته العُلّيا بعد وصوله باريس بأربع سنوات، مُنتقلًا بين العواصم الأوروبية، مُتمًا مجموعة من البحوث الفلكية والجيوفيزيقية، وناشرًا إيّاها في عددٍ من المجلّات العلمية. وتَمَّ تكليفه بطلبٍ مُشترك من عُلّماء أوروبا والخبديوي سعيد برصد كسوف الشمس وتسجيله. وكانت منطقة الكسوف الكُلّي تشمل كاليفورنيا في الغرب الأمريكي وحتى الجنوب الأفريقي عبْرَ المحيط الأطلنطي. فاختر حمدي مديرية دُنُقلة في شماليّ السودان كموقع للمرصد. وقام برصد الكسوف لحظةً بلحظة، وسجّله في تقريرٍ مُبهر أرسله إلى أكاديمية

العلوم بباريس؛ لتصير سُمعته بين أقرانه من العلماء في العالم كالجنيه الذهب.

شندي، ارتفاع أسعار الذهب وتأزم القضية الفلسطينية كانت بين تَوَقُّعاته الصحيحة. بينما أخفق في التنبؤ بنشوب حرب عالمية ثالثة لا أثر لها بعد، وبتلقي أمريكا ضربة عسكرية موجعة على ساحلها الغربي في 2003، وياغتيال بوش الابن، وبأن تتبدل أحوال العرب، فتصير أغنى الدول العربية هي... مصر!

حمدي، إلى مصر عاد في 1859، لِيُنْتخَبَ عُضُوًّا بالمجمع العلمي المصري<sup>27</sup>، ووكيلًا ثم رئيسًا للجمعية الجغرافية، وعضوًا في المجلس العالي للنظر في توسيع نطاق المعارف العمومية، ونائبًا عن الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي في فينيسيا، مُتَدَرِّجًا في المناصب حتى أصبح ناظرًا للأشغال في وزارة البارودي ثم ناظرًا للمعارف في وزارة نوبار، بعد فشل الثورة الغرابية.

شندي، ثورات عربية لم تأت قط بين قائمة نبوءاته. على العكس من ذلك تَوَقَّع أن تستمر الأنظمة العربية على حالها دون

---

ذلك المجمع الذي حرقه المصريون - أيًا كانت الاتهامات المتبادلة بشأن هويّتهم - ثم جلسوا يتباكون عليه بخُرقة رغم أنهم لم يعرفوا بوجوده أصلاً سوى بعد ذهابه!

أدنى تغيير يُذكر! في حين توقَّع أن تَحْكُم أمريكا امرأة مع نهاية العُقَد الأول من القرن الحادي والعشرين، وجاء تَوَقُّعه في العارضة وكاد أن يُسجَلَ أجمل أهدافه!

حمدي، أهُمُّ أهدافه في مصر تحقَّقت، بوضع أوَّل دراسة علمية لتخطيط معالم الإسكندرية القديمة بناءً على ما اكتشفه بنفسه في أعمال التنقيب. ومن أبرز مؤلَّفاته: "الكسوف الكلي للشمس في دُنُقْلة"، "التقويم العربي قبل الإسلام"، "حساب التكامُل والنفاضل"، "الحالة الحاضرة للمواد المغناطيسية الأرضية"، "التنبؤ بمقدار فيضان النيل قبل فيضانه" وهو ما اعتُبر مرجِّعاً أساسياً لتقديرات الريِّ في القُطْر المصري، وتَبَدُّة مُختصرة عن تعيين عروض البلاد وأطوالها" والذي أُلِّفه بناءً على طلب من محمد علي لتعيين المساحات المزروعة من الأرض لتحديد خراجها. كما قام برسم خريطة طبوغرافية لمصر بتكليف من الحكومة استغرقت عشرة أعوام من التصميم.

شندي، تصميم شكل باب "حظك اليوم بالأهرام تطوَّر على يَدَيْه على مدار عقدين من الزمان، مُسَهِّباً في الكتابة عن الحُبِّ والرزق والنجاح والفشل، حاشداً حوله مواليد الأبراج المُشتاقين لجزرة تفاعل صباحية. وله عدَّة مؤلِّفات من بينها بروج السماء، علم الكواكب وحياتنا اليومية، يوم وتاريخ ميلادك.

لَعَلَّ شَنْدِي هُوَ الْأَشْهَرُ بِيَابِهِ الْعَتِيدِ بِجُرِيدَةِ الْأَهْرَامِ. وَعِزَّاءُ  
حَمْدِي أَنَّ أَلْمَانِيَا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ تَمَثَالًا بِمَدِينَةِ شَتوتَجَارْتِ، وَأَنَّ  
الدَانِمَرَكْ قَدْ أَطْلَقَتْ اسْمَهُ عَلَى أَحَدِ شَوَارِعِهَا، وَأَنَّ بَلْجِيكَا لَدَيْهَا  
مَتْحَفٌ لِآثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَأَنَّ شَارِعَيْنِ فِي مِصْرَ يَحْمِلَانِ اسْمَهُ.  
أَحَدُهُمَا شَارِعُ الْفَلَكِي بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ امْتِنَانًا لِمَوْلُودِ الْغُرَبِيَّةِ عَلَى مَا  
قَدَّمَهُ لَهَا وَدِرَاسَتَهُ بِهَا فِي صِبَاهِ. وَالْآخَرُ هُوَ شَارِعُ الْفَلَكِي بِالْقُرْبِ  
مِنَ مِيدَانِ التَّحْرِيرِ، حَيْثُ يَقَعُ مَبْنَى الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ.

أَجَلٌ... شَارِعُ الْفَلَكِي الشَّهِيرِ الَّذِي كَانَ يَرْكُنُ فِيهِ الطُّلُبَةُ  
سِيَارَاتِهِمُ الْفَارِهَةَ فِي جِرَاجِهِ الْكَبِيرِ، وَالَّذِي شَهِدَ فَضْلًا مِنْ فِصُولِ  
مَعْرَكَةِ وَزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ أَثْنَاءَ الثَّوْرَةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي نَوْفَمْبَرِ 2011، هُوَ  
مَحْمُودُ حَمْدِي بِأَسَاءِ الشَّهِيرِ بِمَحْمُودِ الْفَلَكِي!

تَدُورُ الْأَرْضُ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا، وَطَبِئًا لِعِلْمِ الْفَلَكِ، عَكْسَ عِقَابِ  
السَّاعَةِ، وَلِأَنَّهَا "تَقَاوَحُ" فَإِنَّ الزَّمْنَ يَتَقَدَّمُ بِهَا لِلْأَمَامِ... وَتَدُورُ بِلَادُنَا  
مَعَ عِقَابِ السَّاعَةِ، إِيْمَانًا مِنْهَا بِالطَّاعَةِ وَالْإِمْتِنَانِ. فَيَزْدَهَرُ عِلْمُ  
الْفَلَكِ الْمِصْرِيِّ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، ثُمَّ يَتَقَهَّرُ وَيُنْخَسِفُ كَالْقَمَرِ  
بِلَا كَسُوفِ بَشَرِي فِي الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ!

فِي بِلَادِ الدُّنْيَا تَهْبِطُ مَسَابِرُ الْفَضَاءِ عَلَى أَسْطُحِ الْكُوْنِكِبَاتِ  
الطَّائِرَةِ، لِالْتِقَاطِ صُورٍ مِنْ خِلَالِ كَامِيرَاتِ مَرْكَبَاتٍ خَالِيَّةٍ مِنَ الْبَشَرِ  
تُوضِّحُ طَبِيعَةَ الصَّخُورِ. فِي بِلَادِ الدُّنْيَا يَحْدُثُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ تِلْكَ

الصخور الطائفة في الكون تتألف من المواد ذاتها التي التحمت منها الكواكب وتكوّنت، ما يُسهّل التعرّف على نشأة النظام الشمسي. في بلاد الدنيا يحدث ذلك؛ لأنه يُفترض أنّ كُوَيْكَبًا ضَخْمًا قد ارتطم بالأرض منذ ملايين السنين وقضى على كافّة أشكال الحياة آنذاك. فإذا ما هَدَدْنَا كُوَيْكَب في يوم ما، فسنبكون بحاجة لمعرفة المواد التي يتكوّن منها قبل أن نرسل صاروخًا ما لتفجيرِه!... هذا شأن الفلك في بلادهم، بينما في بلادنا يقتصر علمُ الفلك على دراسة أثر دخول كوكب زُحَل في مدار برج الدُّلُو على الزواج الميمون والمال المضمون والبيت المسكون، ونجاة الاتحاد سيد البلد من الهبوط للدرجة الثانية، وانفصال النجمة اللولبيّة عن رجل الأعمال الحديدي!

في بلادهم فلك.

في بلادنا ف عليك!

## وَلَمْ يَمُضِ الْمَاضِي!

هذه جَوْلَةٌ بين ربوع الماضي، بين أزمِنَةِ حضاراتٍ شَتَّى،  
نستخلصُ العِظَةَ، ونضيئُ جَنَابَاتِ العَدِّ المُبْهِمِ... فكلُّ مُسْتَقْبَلٍ في  
حاجةٍ إلى مُسْتَقْبَلٍ!

-----

دعا مَلِكُ حُكْمَاءَ مَمْلَكَتِهِ إلى اجتماعٍ عاجلٍ. ثم طلب منهم أن  
يجمعوا الحِكْمَةَ كُلَّهَا؛ ليتعلَّمها ابنه... عكفوا على ذلك. وبعد عامٍ  
جاؤه بـ25 مُجَلَّدًا. حين رآها المَلِكُ قال: "ما هذا؟ إنَّها فوق طاقة  
ولدي. اختصروها!"... غابوا، ثم عادوا بعد عامين بكتابٍ واحدٍ  
يحيوي خلاصة الحِكْمَةِ. قلبه المَلِكُ ثم قال: "ما يزال أطولَ ممَّا  
ينبغي. حاولوا إيجازه!"... اختفوا، ثم عادوا بعد ثلاثة أعوام، ومعهم  
ورقة صغيرة كتبوا فيها: "هذه العبارة أيضًا يُمكن اختصارها!"...  
كيف نحتقر عِظَمَةَ المعرفة، ثم نتطعُّ إلى معرفة العِظَمَةِ؟

-----

كان هناك بلدٌ يحكمه مَلِكٌ. وكان أهله يختارون حاكمًا لمدَّة  
عام، ثم يرسلونه إلى جزيرة يكمل فيها حياته، وينتخبون غيره. وفي  
يوم، أنهى مَلِكٌ فترته، وأركبه الناس فيلاً، ومنه إلى مركب، ومنها  
إلى الجزيرة. وبينما المركب عائدة، عثرت على شابٍ ناجٍ من  
سفينة غارقة. أنقذوه واحتفوا به وجعلوه مَلِكًا عليهم لمدَّة سنة. ولمَّا



اطَّلَعَ على تقاليد الحُكْم، طلب الملك الشاب زيارة جزيرة الملوك. وهناك وجد جُثث جميع الملوك السابقين وحيوانات مُتوحَّشة وغابات مُخيفة. ولمَّا سأل، قيل له أَنَّ الملوك يبطشون وينهبون ويستمتعون بعامهم، ويغفلون يوم الرحيل... زَهَدَ الملكُ في حُكْمِهِ، وأمر بتجميل الجزيرة وتأمينها بالتزامن مع إصلاح أحوال الناس في بلده. فلمَّا انتهى عامه، ودَّعَه قومه في حُزنٍ، وعاش بالجزيرة ملكًا بقيَّة عُمره... أيُّها الحاكم! انشغلْ بحاضرنا تأمَّنْ لمستقبلك!

- - - - -

تقول الأسطورة: كانت Echo وصيفة رثة السماء Hera. لكنَّها أساءت التفكير، فعاقبتها Hera بحرمانها من القدرة على الكلام، باستثناء تكرار ما ينطق به الآخرون. ثم حدث أن أحبَّت الشاب الوسيم Narcissus ابن إله النهر. لكنَّه لم يستجب لخبثها. فنَحَلَ جسدها ولم يبقَ منها سوى صَوْتها. ثم عاقبت Nemesis رثة الانتقام Narcissus المغرور، بأن جعلته يعشق صورة نفسه المُعكَّسة على صفحة النهر، حتى أصابه الهزال ومات وتحوَّل إلى زهرة نرجس. وهكذا هو واقعنا! تأبى الأغلبية ألا تكون سوى صدى صوتٍ، أتباع، قطعان، ببغاوات. والغريب أن الأغلبية المُحجَّمة عن إعمال العقل تقع في حُبِّ النرجسيين الذين يفكِّرون بالنبأية عنهم، ولا يرون سوى دَوَاتهم ولا يُعجَّبون سوى بأرائهم... هُدنة يا شباب! فلنكبت الصدى، ولنذبذبل النرجس، ولننحرَّر من الأسطورة!



للوصول للهدف بشكل إستراتيجي، كان الإغريق يختارون شخصاً له رأس ضخم. ويحلقون شَعْرَه، ويكتبون على رأسه رسالة مُهمّة. ثم يُتْرَكُ حتى يطول شَعْرَه، ويرسلونه إلى المكان المنشود. فإذا وصل، يُقَصُّ شَعْرَه مرّة ثانية. فنقرأ الكلمات المكتوبة، وتصل الرسالة!... وهذا يعني أنك كي تحقّق هدفك، تحتاج إلى وقت وآليّة آمنة وقناة صحيحة لإيصاله، دون تهوّر أو عنجهيّة أو تقليل من شأن المرسل إليه، أو بقية الذين يرسلون من حولك.



يقول ابن الجوزي في كتابه "الأذكياء" أنّ إبليس قد جاء إلى عيسى عليه السلام، فسأله: "ألست تزعم أنه لا يصيبك إلا ما كتب الله لك؟" فردّ عيسى: "بلى فقال: "فازم بنفسك من هذا الجبل، فإنّه إن قدر لك السلامة تسلم!" فقال المسيح غاضباً: "يا ملعون! إن الله أن يختبر عبده، وليس للعبد أن يختبر ربه!"... يا أهل مصر الكرام! كفانا حديثاً عن مصر المحروسة التي ندخلها إن شاء الله آمنين، ونخرج منها بعونه غانمين! سيحفظنا الله إن حفظناه واثقيناه! نحن لم نفعل شيئاً واحداً في اتجاه النجاة، في اتجاه النجاح!... لا الذي يحكم، ولا الذي يعارض، ولا الذين يتفرجون عليهم ويدعون الله بأن يضرب الظالمين بالظالمين

ويخرجهم من بينهم سالمين!... ليس الذي يرمي نفسه بيديه إلى  
الثَّهْلُكَةِ مُحْسِنِ الظَّنِّ بالله، بل هو مُسِيئُ الأَدَبِ مع الله!

- - - - -

في شأن حضارة الفُرس المُنْهارة، كانت الناس تبالغ في  
تصرُّفات شاذَّة. فقيل أنَّ الملك يزُجُّرُ الثاني قد تزوَّج بابتنته ثم  
قتلها. وفي ردِّ فعلٍ مُعاكِس، ظهر الفيلسوف ماني ضد النزعة  
الشهوانية. فدعا إلى العزوبية وحرَّم النكاح، راغبًا في قطع النسل  
ومُستعجلاً فناء البشرية! فقتله الملك بهرام قاتلاً: "إِنَّ هَذَا حَرَجٌ  
داعياً إلى تخريب العالم. فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن  
يتهيأ له شيءٌ من مُرادِه"... وهكذا هي الحضارات المُتداعية والأُمم  
المُخطَّطة لا تعرف الاعتدال في السلوك، إمَّا شهوانية وإما رهبانية،  
إما تأييد وإما تنديد، إما تصفيق وإما تليفق. مفتاح النجاح: "اعْدلوا  
هو أَقْرَبُ للتقوى". ومقياس الفشل: الرَّدُّ على تطرُّفٍ بتطرُّف!

- - - - -

يُحْكِي أَنَّ مَلِكًا هِنْدِيًّا أَسَاءَ إِلَى مَوِاطِنِيهِ بِأَن أَهْمَلَ مَشُورَتَهُمْ  
نَاسِيًّا أَنَّ حُبَّ الشَّعْبِ لَهُ أَرْسَى دَعَامَةَ عَرْشِهِ. فَتَقَدَّمَ أَحَدُ الحُكَمَاءِ  
مَحَاوِلًا أَن يَفْتَحَ عَيْنِي المَلِكِ، بِاخْتِرَاعِهِ لُعْبَةً تَكُونُ فِيهَا القِطْعَةُ الَّتِي  
تَمَثِّلُ المَلِكِ - رِغْمَ سَمَوِّهَا عَمَّا عَدَاهَا فِي الأَبْهَةِ - إِنْ تُرِكَتْ  
وَحدها تَنْجَرِّدُ مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ. وَمِنْ هُنَا نَشَأَتْ لُعْبَةُ الشَطْرَنْجِ... أَعْجَبَ  
المَلِكُ بِاللُعْبَةِ، وَدَعَا الحَكِيمَ أَن يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ. فَطَلَبَ حِفْنَةً

من أرزٍ، يُحَدِّدُ مِقْدَارَهَا بِأَنْ تُوضَعَ حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الْأُرْزِ فِي الْمَرْتَعِ الْأَوَّلِ مِنْ مَرْتَعَاتِ رَقْعَةِ الشُّطْرَنْجِ الـ 64. ثم يُضَاعَفُ فِي كُلِّ مَرْتَعٍ لَاحِقٍ عِدَدَ حَبَّاتِ الْأُرْزِ. فَوَافِقَ الْمَلِكِ، ثم سرعان ما اكتشف أن وَعَدَهُ يَقْتَضِي أَنْ يَدْفَعَ كُلُّ مَا يَمْلِكُهُ! انتَهَزَ الْحَكِيمُ الْفُرْصَةَ، لِيَقُولَ: "يُضِلُّ الْمَلِكُ إِنْ أُرْدَى مُسْتَشَارِيهِ، وَيَسْقُطُ إِنْ أَهْمَلَ شَعْبَهُ!"... مطلوب حكيم ينصح، ومطلوب حاكم يستنصح!

-----

سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَقَالَ: "الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالْفِئَةُ فِي دِينِهِ". وَكَرَّرَهَا. فَقِيلَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُكَ عَنِ الْعَمَلِ فَتَخْبِرُنِي عَنِ الْعِلْمِ!" فَقَالَ: "إِنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُكَ مَعَهُ قَلِيلُ الْعَمَلِ، وَإِنَّ الْجَهْلَ لَا يَنْفَعُكَ مَعَهُ كَثِيرُ الْعَمَلِ!" وَقَالَ: "وَيْلٌ لِأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ! يَتَّخِذُونَ الْعِلْمَ تِجَارَةً يَبِيعُونَهَا. لَا أُرِيحُ اللَّهَ تِجَارَتَهُمْ!" وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْعُلُومُ أَقْفَالٌ وَالْأَسْئَلَةُ مَفَاتِيحُهَا!" وَقَالَ عَلِيٌّ: "كَفَى بِالْعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لَا يَحْسَنُهُ، وَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ. وَكَفَى بِالْجَهْلِ ضِعْفًا أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ، وَيَغْضَبُ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ!" وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: "اطْلُبُوا الْعِلْمَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِالْعِبَادَةِ وَاطْلُبُوا الْعِبَادَةَ طَلَبًا لَا يَضُرُّ بِالْعِلْمِ!" وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ: "سُرُّ الْعُلَمَاءِ مَنْ يُجَالِسُ الْأَمْرَاءَ، وَخَيْرُ الْأَمْرَاءِ مَنْ يُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ!"... فَانِ الْأَوَانَ أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى الْعِلْمِ، وَأَنْ تَهْجَرَ التَّعَالِمَ!



عن أبي هريرة أنه قال: "قام رسول الله إلى الصلاة، وقمنا معه. فقال أعرابي في الصلاة: "اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً"!... ونام رجلٌ بمسجدٍ، فدخل آخرٌ يُصلي. فلما فرغ قال: "يا رب، أنا أصلي وهذا نائم!" فأفاق الرجل من غفوته وقال: "يا هذا. سل ربك حاجتك، ولا تُحرشه علينا"!... وفي كتابه "سِرُّ تأخر العرب والمسلمين كتب الغزالي: كُنْتُ يَوْمًا أَتَحَدَّثُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ ذِي بَالٍ، وَفِي الْمَجْلِسِ رَجُلٌ مَوْصُوفٌ بِالسُّلْفِيَّةِ، وَجَرَّتْ عَلَيَّ لِسَانِي كَلِمَةً لَمْ أَقْصِدْ إِلَى شَيْءٍ بِهَا. وَتَلَقَّتُ إِذَا الرَّجُلُ يَقْدِرُ أَنِّي سَأْتَوْرَطُ، وَكَشَّرَ عَنِ أَنْبِيَاهِ وَاسْتَعَدَّ لِلْفَنَكِ! غَيْرَ أَنَّ الْحَدِيثَ انْعَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ أُخْرَى، وَشَعَرْتُ أَنَّ الرَّجُلَ آسِيفٌ لِأَنِّي أَقُلْتُ مِنْهُ! قُلْتُ لَهُ: "فَلان!" قَالَ: "مَا تَرِيدُ؟" قُلْتُ: "رَأَيْتَكَ مُتَحَقِّراً لِلنِّزَالِ، ثُمَّ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ". قَالَ: "نَعَمْ، حَسْبُنَاكَ سَتَقُولُ مَا لَا أُوَافِقُ عَلَيْهِ". قُلْتُ: "إِنَّكُمْ تَتَرَبَّصُونَ بِالْخَطَا، لِتَأْكُلُوا صَاحِبَهُ، إِذَا فَاتَكُمْ شَعَرْتُمْ بِالْحُزْنِ. لَيْسَتْ هَذِهِ يَا صَاحِبِي خَلَاتِقُ الْمُؤْمِنِينَ!... وَهَذَا بِالضَّبْطِ هُوَ السَّائِدُ الْيَوْمَ. الْكُلُّ يَتَمَنَّى خَطَا مُعَارِضِيهِ حَتَّى يَكُونَ لِلتَّشَقِّي طَعْمٌ... يَطُولُ الْحَدِيثُ عَنِ أَخْلَاقِيَّاتِ مَا بَعْدَ الثَّوْرَةِ بَيْنَ الْمُتَصَارِعِينَ. لَكِنِ الْمَوْكَّدُ أَنَّ الثَّوْرَةَ لَمْ تَقُمْ، وَالشَّهْدَاءُ لَمْ يُضَحُّوا بِحَيَاتِهِمْ؛ كَيْ تَتَحَوَّلَ مِصْرٌ مِنْ عِزْبَةٍ فِي عَصْرِ الْمَخْلُوعِ إِلَى غَابَةِ فِي عَهْدِ الَّذِينَ خَلَعُوهُ!



تَوَلَّى أسامة بن زيد قيادة جيش المسلمين في الـ 18. أْبْدَعَ  
أينشتاين النظرية النسبية في الـ 26. اكتشف ابن النفيس الدورة  
الدموية الصغرى في الـ 29. جَهَرَ عيسى بدعوته في الـ 30. لَحَنَ  
سيد درويش النشيد الوطني في الـ 31. فتح الإسكندر الأكبر  
نصف العالم في الـ 33. قاد ناصر ثورة يوليو في الـ 34. ناضل  
كينج ضد العنصرية في الـ 35. كتب شكسبير هاملت في الـ 36...  
وفي وطن متوسط عُمر شعبه 24 سنة لا بُدَّ أن ينزل متوسط عُمر  
الحكومة والبرلمان والرئيس إلى ضعف هذا العُمر على الأكثر!<sup>28</sup>



قال معاوية لرجل من اليمن: "ما كان أَجْهَلُ قَوْمِكَ حين مَلَكُوا  
عليهم امرأة!"... فَرَدَّ عليه اليمني ساخراً: "أَجْهَلُ من قَوْمِي قَوْمُكَ  
الذين قالوا حين دَعَاهم رسول الله: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ  
عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"، ولم

---

رَوَى عن ابن عباس أنه قال: "ما بَعَثَ اللهُ نبيًا إلا شابًا، ولا أوتي العلمَ عالمًا إلا وهو  
شاب"... وأما العشرة المُبَشَّرُونَ بالجَنَّةِ، فقد سبقوا إلى الإسلام وهم شباب، بينما استنكف  
شيوخ قريش وحكماؤها عن اتِّباعه. فأسلم علي بن أبي طالب في الـ 9، وطلحة بن عُبَيْدِ اللهِ  
في الـ 14، والزبير بن العوام في الـ 16، وسعد بن أبي وقاص في الـ 17، وسعيد بن زيد في  
الـ 20، وأبو عُبَيْدَةَ بن الجراح في الـ 20، وعمر بن الخطاب في الـ 29، وعبد الرحمن بن  
عوف في الـ 30، وعثمان بن عفان في الـ 34، وأبو بكر الصديق في الـ 38.

يقولوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ، فَاهْدِنَا إِلَيْهِ!"... فإذا كان آفة العِلْمِ التَّسْيَانِ، فَإِنَّ آفةَ الْعِنْدِ الطُّغْيَانِ!

- - - - -

يقول أخذ مؤرخي العرب: "رَأَيْتُ رَأْسَ الْحُسَيْنِ بَيْنَ يَدَيْ ابْنِ زِيَادٍ فِي قَصْرِ الْكُوفَةِ. ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ ابْنِ زِيَادٍ بَيْنَ يَدَيْ الْمُخْتَارِ. ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ الْمُخْتَارِ بَيْنَ يَدَيْ مُصْعَبٍ. ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ مُصْعَبٍ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ الْمَلِكِ"... فُسئِلَ: "وَكَمْ كَانَ بَيْنَ أَوَّلِ الرُّؤُوسِ وَأَخْرَاهَا؟" قَالَ: "اِثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً"... وهكذا هو الحال في زمن الفتن... فمن بعد سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ بِالْأَمْسِ، وشباب الشُّهَدَاءِ الْيَوْمِ، فَإِنَّ الْكُلَّ يَنْتَقِلُ عَلَى الْجَاهِ. الْكُلُّ يَلْهَثُ وَرَاءَ السُّلْطَانِ. الْكُلُّ يَرْكُضُ وَرَاءَ أَهْدَافِهِ بِالْقُوَّةِ وَشَرِيعَةِ الْغَابِ. وَالْكُلُّ يُقَطِّعُ رَأْسَهُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ!... فَيَا رَئِيسَ الْجُمْهُورِيَّةِ، لَا تَكُنْ نَمُوذَجًا مَشِينًا فِي خَرْقِ الْقَوَانِينِ! وَيَا أَيْتَهَا الْمَعَارِضَةَ لَا تَصْبِحِي قُدُوةً مُخْزِيَةً فِي السَّعْيِ وَرَاءَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ! فَيَوْمَ الَّذِي يَسْقُطُ فِيهِ الْقَانُونُ، فَاَلْبَقَاءُ لِلْأَعْنَفِ! وَفِي الْيَوْمِ الَّذِي نَبِطُلُ فِيهِ دِيمُقْرَاطِيَّةَ الْإِنْتِخَابِ، فَكُلُّ الرُّؤُوسِ مَقْطُوعَةٌ!

- - - - -

قبل 1300 سنة، دَهَبَ بَعْضُ الرُّقِيقِ إِلَى الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ يَرْجُوهُ أَنْ يُكَلِّمَ النَّاسَ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ عَنْ فَضْلِ عِنَقِ الرِّقَابِ، فِي زَمَنِ انْتَشَرَتْ فِيهِ تِجَارَةُ الْعَبِيدِ وَعَلَّتْ مَكَانَةُ الْبَصْرِيِّ وَسُطَّ النَّاسُ. وَعَدَّاهُمُ الْإِمَامُ بِذَلِكَ. فَلَمَّا جَاءَتْ الْجُمُعَةُ الْأُولَى، قَامَ

للخطبة، فلم يتكلم في هذا. ولمَّا جاءت الثانية، قام للخطبة، فلم يفعل. وفي الثالثة تكلم، فأحسن الحديث في فضل عتق الرقاب، وأبهرَّ الناس ببلاغته وحِكمته وقُدْرته على الإقناع. فخرج أهل البلدة من المسجد، وأعتقوا كلَّ ما يملِكونه من الرقيق!... وفي المساء، جاءه الرقيق المحرَّرون يشكرونه ويتساءلون: "لماذا أبطأت علينا ثلاث جُمع؟" فأجاب: "لقد انتظرتُ حتى رزني الله مالاً، فاشتريتُ عبداً، وأعتقته لوجه الله؛ لكيلاً أنصح الناس بما لم أفعل!"... الذي يصلِّح الشعوب هو ما للقدوة الحسنَّة من قوَّة صامتة!



كان عمر بن عبد العزيز جالساً في حَضرة الخليفة سليمان بن عبد الملك. ثم دخل عليهما وقدَّ من مصر وفيهم ابن خُذامر الصنعاني. فسألهم سليمان عن أخبار أهل المغرب. فأخبروه بحكايات شتى، وأبى ابن خُذامر أن ينطق! فلَمَّا خرجوا، خرج وراءهم عمر يسأله: "ما منَعَكَ من الكلام؟" قال: "خِفْتُ والله أن أكذب أو أنقل ما لم تَرَهُ عيني أو تتحقَّق منه أذني فحفظها له عمر. ولمَّا تولى الخلافة، عيَّنه قاضي قُضاة مصر، فكان من أنزَّه من تَوَلَّوا المنصب!... يا ابن مصر الكريم! صارت الأكاذيب ملء الأرض والسماء. الكلُّ يُسَوِّه الكلُّ. بات الباطل جُندياً في خدمة الحقِّ والباطل معاً! كلُّ الصُّحفِ تُحَرِّف. كلُّ المواقع تُزَيِّف. لا تشارك. لا تتقل. لا توجِّح. ليس من الثُّبُل ولا من الفضل. امتنعوا!





قبل أن يبلغ العشرين، اتَّخَذَ الشَّافِعِيُّ لِنَفْسِهِ حَلَقَةَ يُحَاضِرُ فِيهَا  
بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... يَمُرُّ بِهِ مُفْتِي مَكَّةَ مُسْلِمُ بْنُ الزُّنْجِيِّ، فَيُثْنِي  
عَلَيْهِ: "أَفْتٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَنْ لَكَ أَنْ تَقْتِي"، دُونَ أَنْ يَخْشَى  
عَلَى مَنْزِلَتِهِ أَوْ مُنَازَلَتِهِ... وَيَتَزَوَّجُ، فَيَعْقِدُ قِرَانَهُ فَمِنْهُ مَكَّةَ سَفِيَانُ بْنُ  
عُيَيْنَةَ، دُونَ أَنْ يَغَارَ مِنْ شَعْبِيَّتِهِ أَوْ مَوْهَبَتِهِ... وَبَعْدَ عَقُودٍ، يَسْمَعُ  
عَنْ صَيْتِهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَكَانَ يَصْغُرُ الشَّافِعِيُّ بِـ 14 سَنَةً،  
فَيَحِثُّ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَنْهَلُوا مِنْ عِلْمِهِ قَائِلًا: "تَعَرَّفْ عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ  
الْقُرْشِيِّ، فَإِنَّ فَاتَكَ فَهْمَهُ، لَا تَجِدُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". يَقُولُهَا دُونَ حِفْذِ  
أَوْ عَدَاوَةِ ابْنِ الْكَارِ<sup>29</sup>... هَكَذَا هِيَ الْبَيْئَةُ الْمَنْشُودَةُ. يَفْرَحُ الْوَائِقُ  
بِنَجَاحِ غَيْرِهِ، وَيَحْتَفِي السَّوِيُّ بِتَفُوقِ قَرِينِهِ، وَيَسْعُدُ الْكَبِيرُ بِالصَّغِيرِ  
وَالصَّاعِدُ بِالْمُخَضَّرِ. السَّوَادُ مُؤَدِّ الصَّفَاءِ مُجَزِّ!



زَارَ الشَّافِعِيُّ ابْنَ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ، فَوَثَّبَ الْإِمَامُ أَحْمَدَ مِنْ فِرَاشِهِ، وَقِيلَ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ  
عَيْنَيْهِ، وَأَجْلَسَهُ مَكَانَهُ. وَلَمَّا قَامَ الشَّافِعِيُّ مُنْصَرِفًا لِيُرْكَبَ دَابَّتَهُ، أَسْرَعَ ابْنُ حَنْبَلٍ لِيَمْسِكَ بِرِكَابِ  
الدَّابَّةِ يَجْرُهَا، وَيَمْشِي مَعَهُ يُؤَدِّعُهُ حَتَّى يَبِيْتَهُ! فَبَلَغَ ذَلِكَ زَمِيلُ ابْنِ حَنْبَلٍ الْإِمَامَ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ،  
فَاسْتَنْكَرَ فَعَلَهُ قَائِلًا: "سُبْحَانَ اللَّهِ! اضْطَرَّكَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَمْشِيَ إِلَى جَانِبِ بَغْلَةِ الشَّافِعِيِّ؟"  
فَأَجَابَهُ ابْنُ حَنْبَلٍ: "لَوْ مَشَيْتِ أَنْتَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ لَانْتَفَعْتَ!"... وَكَانَ ابْنُ حَنْبَلٍ فِي  
أَوَّلِ أَيَّامِهِ يَقُولُ: "إِنِّي لِأَدْعُو اللَّهَ لِ الشَّافِعِيِّ فِي صَلَاتِي مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ  
لِي وَلِوَالِدَيْ وَدِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ... وَسَأَلُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَالِدَهُ: يَا  
أَبِي أَيُّ رَجُلٍ كَانَ الشَّافِعِيُّ؟" فَقَالَ: "كَانَ كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا، وَكَالْعَافِيَةِ لِلنَّاسِ!"

هل سمِعتَ عن حاتم الأصمِّ؟ هو أخذَ ألقابه علماء الإسلام قبل 12 قرناً. ولم يكنِ الأصمُّ أصمًّا! واشتهرَ بلقبه هذا، لأنَّ امرأةً جاءت تسأله مسألة في الدين، فخرج منها صوتُ ريحٍ، فحجَّلت، واحمرَّت وجنتاها، وكادت تُقِرُّ من أمامه. وهنا عالج حاتم الموقف، بافتعاله الصَّمَمَ قائلاً: "ارفعي صوتك. لم أسمع سؤالك، فلي مشكلة في أذناي"!... فرفع عنها الحرج، وجبَّتها الشعور بالفضح... ولي سؤال إليك يا مَنْ تقرأ: كم مرَّة شاركتَ في نشر فضائح تُخصُّ شخصاً أو تياراً تخالفه؟ كم مرَّة اتَّضح لك زيفُ ما تنقله؟ كم مرَّة اعتذرتَ عنه؟ كم مرَّة ترفعتَ عن التجريس، فكما تدين ثدان وكما تهين ثهان؟ كم مرَّة تعلَّمتَ ألا تطغى الكراهة على النزاهة؟

-----

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ". قرأتها على ظهر تاكسي. وتذكَّرتُ قصَّةً من "المستطرف في كلِّ فنِّ مستطرف": لمَّا مات خليفة للمسلمين، اجتمع الروم وقالوا: "الآن ينشغل المسلمون بعضهم ببعض، فلننَّيب عليهم احتدم النقاش، وانتهوا إلى أنَّها فرصة العُمر. فقال حكيمهم: "لا أرى ذلك صواباً". ولمَّا سألوه، قال: "أخبركم غداً". ولمَّا أتوه، وجدوه قد أحضَرَ كلبين عظيمين، ثم حرَّض كلَّهما على الآخر. فتناهشا، حتى سألت دماؤهما وأشرفا على الهلاك. وعندئذٍ، أخرج عليهما ذئباً. فلمَّا أبصره تألَّفَا، ووثبَا عليه فقتلاه! فلمَّا انتهت المعركة،

قال الرجل: "مثلكم مع المسلمين مثل ذئبٍ مع كلابٍ. لا يزال الهَرَجُ بينهم ما لم يظهر عَدُوٌّ لهم، فإنَّ ظهر نبذوا عداوتهم إلى عداوته!"... اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى أَنْفُسِنَا، أَمَّا أَعْدَاؤُنَا فَحَنِّ كَفِيلُونَ بِهِمْ!

- - - - -

في إْحْدَى لِيَالِي بَغْدَادِ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ 12 قَرْنًا، نَزَلَ الْخَلِيفَةُ هَارُونَ الرَّشِيدُ إِلَى السُّوقِ مُتَّكِرًا. يَقِفُ عِنْدَ مَحَلٍّ وَيَسْأَلُ الْبَائِعَ: "كَمْ سِعْرُ هَذَا الْخَنْجَرِ؟" فيقول: "درهمٌ فيرُدُّ الخليفةُ: "هذا كثيرٌ فيسأله البائعُ: "هل أنت من هنا؟" فيومئُ بالإيجاب. فيقول: "فأنت لا تعلم. يجب أن أدفع ضرائبي الباهظة، وثمان حماية الشرطة لي، والإيجار الذي يزيد كُلَّ فِتْرَةٍ دُونَ رَقِيبٍ، وَالْفُضَاةَ وَالْوَزْرَاءَ وَالتَّابِعِينَ وَكُلَّ مَنْ يَبِطِّشُونَ أَوْ يَسْتَنْزِفُونَ فيسأله هَارُونَ عَنِ الضَّرَائِبِ. فيضيف: "هل ترى قصور الخليفة الفاخرة المُرْصَّعة بالذهب؟ ما عَيْبُ قَصْرِ جِدِّهِ الْمَنْصُورِ؟ نحن ندفع له ثمن رفاهيته!" يسأله هَارُونَ: "وما العمل؟" يقول: "يخرج الخليفة للناس، يستمع إليهم، يسير بينهم فيطمئنهم باطمئنانه على نفسه". يعود هَارُونَ إِلَى قَصْرِهِ، وَتَكُونُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ حَدَثًا فَارِقًا فِي حَيَاةِ حُكْمِهِ!... أَيُّهَا الْحَاكِمُ: اقْرَأِ التَّارِيخَ، أَوْ تَصْبِحْ بِلَا مُسْتَقْبَلٍ!

- - - - -

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ، وَقَالَ: "إِنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلًا يَعْجِزُ عَنْهُ كُلُّ النَّاسِ". فَعَلَّقَ عَلَى كَلَامِهِ: "هَاتِ مَا عِنْدَكَ".

فأخرج الرجل عُلبه فيها كثير من الإبر، فغرس إحداها في الأرض، ثم أخذ يرميها إبرة إبرة، فتشبك كلُّ إبرة ببراعة في ثُقبِ الإبرة التي سبقتها. ثُمَّ وَقَفَ الرَّجُلُ مَرْهُوًّا بما فعل، وانتظر من الخليفة جائزة عظيمة... نَظَرَ له الرشيد مليًّا، ثُمَّ اتَّخَذَ قَرَارًا عَجيبًا! أَمَرَ بضرب الرَّجُلَ مائة جَلْدَةٍ عقوبة، مع مَنَحِهِ مائة دينار مُكافأة!... اندهش الحاضرون لموقف الخليفة. فقال لهم: "أَعْطَيْتُهُ مائة دينار تقديرًا له على حِدْقِهِ ومهارته، ووضَّيْتُه مائة جلدة لأنه بصرف ذكائه فيما لا يُفِيدُ!..." واليوم هذه هي آفتنا الكُبرى... طاقات جَبَّارَة لملايين الشباب... لكنها تُسْتَهْلَكُ في كُلِّ ما هو لامع كالإبرة، واخِرَ كالإبرة، مؤلم كالإبرة... دون خيوطٍ تُنْسِجُ ثَوْبًا... يَسْتُرُ وطنًا!



فقام مسيحي يُدعى بركتو يناقش مُسلمًا. وتطوَّر النقاش حتَّى نال من الإسلام شتمًا. فنهاه المسلمون، فلم ينته. أخذوه للقاضي، فقال له: "إِنَّ الذي يهين الإسلام يُعاقب ولو كان مُسلمًا، فكيف بغيره؟" فأصرَّ على بذاءاته وشتم القاضي والقرآن. فأمر القاضي بإعدامه. ذاع الخبر، وأتى آخر من حركة مُتطَرِّفة يُدعى إسحق، لينال من الإسلام ورسوله. حُدِّرَ، فلم يرتدع، حتى أُعْدِمَ كسابقه. تَكَرَّرَ الموقف عشرات المرَّات، بل وأصبح هناك من هؤلاء مَنْ يدخل أكبر المساجد وينتهك حُرْمَتَهُ بالنبُولِ والتَّبَرُّزِ وتلويث جُدْرانه بالأوساخ. وكان عقاب هؤلاء جميعًا القتل... لكنَّ العجيب

في الأمر أن هؤلاء المهاويس الأشرار قد دخلوا كُتُب تاريخ أوروبا بلقب عجيب هو "القديسين الشُّهداء"...! هذه صفحة من تاريخنا بالأندلس قبل 1200 سنة!... فماذا لو عَرَضْنَا عن بَرْتَكْتُو؟؟

-----

جَلَسَ أَحَدُ الْحُكَمَاءِ فِي حَضْرَةِ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ، يَحْكِي لَهُ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! كَانَ بِالْمَوْصِلِ بَوْمَةٌ، وَبِالْبَصْرَةِ بَوْمَةٌ! فَطَلَبْتُ بَوْمَةَ الْمَوْصِلِ خِطْبَةَ ابْنَةِ بَوْمَةَ الْبَصْرَةِ لِابْنِهَا! فَتَحَقَّقْتُ بَوْمَةَ الْبَصْرَةِ قَائِلَةً: "لَا أُحِبُّ خِطْبَةَ ابْنِكَ حَتَّى تَجْعَلِي فِي صَدَاقِ ابْنَتِي مِائَةَ ضَيْعَةِ حَرَبَةٍ". فَقَالَتْ بَوْمَةُ الْمَوْصِلِ: "لَا أَقْبِرُ عَلَيْهَا الْآنَ. وَلَكِنْ إِنْ دَامَ عَلَيْنَا الْمَأْمُونُ سَنَةَ وَاحِدَةً فِي الْحُكْمِ، انْتَشَرَ الْخِرَابُ، وَجَهَّزْتُ لَكَ الْمَهْرَ!"... كَانَ الْمَأْمُونُ يَسْتَمِعُ إِلَى الْقِصَّةِ فِي خَمُولٍ، ثُمَّ تَنَبَّهَتْ حَوَاسُهُ كُلُّهَا مَعَ نَهَائِهَا. فَمَاذَا فَعَلَ الْخَلِيفَةُ؟ لَمْ يَأْمُرْ بِإِعْدَامِ الْحَكِيمِ. لَمْ يَأْمُرْ بِصَيْدِ الْيَوْمِ. لَمْ تَأْخُذْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ. تَفَرَّغَ الْمَأْمُونُ لِلْمَظَالِمِ وَتَفَقَّدَ أُمُورَ الرِّعِيَّةِ. وَأَنْشَأَ الْمَكْتَبَاتِ وَالْمَعَامِلَ وَالْمَرَاصِدَ وَالذَّوَابِينَ. وَوَصَلَتْ حَضَارَةُ الْإِسْلَامِ لِأَعْلَى قِمَّةٍ لَهَا فِي التَّارِيخِ!... مَطْلُوبٌ حَكِيمٌ يَتَكَلَّمُ، وَمَطْلُوبٌ حَاكِمٌ يَتَعَلَّمُ!

-----

سُرَّ مَنْ رَأَى! مَدِينَةُ عِرَاقِيَّةٍ بَنَاهَا الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ الْمُعْتَصِمُ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ الْمِيلَادِيِّ. وَأَتَّخَذَهَا الْعَبَّاسِيُّونَ عَاصِمَةً لِمُدَّةِ 58 سَنَةً. وَكَانَتْ سُرَّ مَنْ رَأَى اسْمًا عَلَى مُسَمَّى فِي رَوْعَةِ مَبَانِيهَا وَرَهَاءِ

حدائقها وازدهار أسواقها. ولَمَّا انهارت الحضارة العباسية ونالت المدينة نصيبها من التَّدَاعِي والإهمال والخراب، صار اسمها ساء مَنْ رَأَى!.. واليوم نعرفها باسم سامراء، ويترك لنا التاريخ الباب مفتوحًا، ما إن كان الاستقافُ عائدًا إلى السرور أو إلى السوء!... بنو وطني! سيحاسبنا أحفادنا في يَوْمِ ما، على ما تفتقره أيادينا في أيّامنا هذه. فإمّا أن يُقَضَّ الشعب على بقايا نظامٍ كرهه مُتَعَلِّغٌ في سلوكه، ونبدأ حضارة جديدة لشعبٍ قديم، وإمّا أن نستنسخ الفساد والظلم والفسل والخيبة، ونهدم الأمل فوق رؤوس الحالمين... بأيدينا يُسَرُّ مَنْ يرى، وبأيدينا سنسيئُ إلى مَنْ سَيَرَى!

- - - - -

السيدة نفيسة؟ يُحِبُّ بعضنا الصلاة بمسجدها. ويسبئ بعضنا زيارة الأضرحة، فيحوّل الدعاء إليها إلى تشفيها بالدعاء إليهم! أمّا الذي ينبغي أن يعرفه المحبّون والمسيئون على السواء: استعانت المصريين بها يشكون ظلمَ الحاكم ابن طولون. خرجت إلى الطريق حيث يسير مؤكبه رافعة لافتة في احتجاجٍ سلّميّ. لمّا رآها عرفها، فترجّل عن فرسه، وأخذ العريضة يقرأها، فإذا هي: "مَلَكْتُمْ فَأَسْرَتُمْ. وَقَدَرْتُمْ فَفَهَرْتُمْ. وَخَوَلْتُمْ فَفَسَقْتُمْ. وَرَدَّتْ إِلَيْكُمْ الْأَرْزَاقُ فَقَطَعْتُمْ. هَذَا وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سِهَامَ الْأَسْحَارِ نَقَادَةٌ غَيْرَ مُخْطِئَةٍ، لَا سِيَّمَا فِي قُلُوبِ أَوْجَعْتُمُوهَا، وَأَكْبَادِ جَوَّعْتُمُوهَا، وَأَجْسَادِ عَرَيْتُمُوهَا. فَمُحَالٌ أَنْ يَمُوتَ الْمَظْلُومُ وَيَبْقَى الظالم. اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَإِنَّا

صَابِرُونَ - وَجُورُوا فَإِنَّا مُسْتَجِيرُونَ - وَاظْلَمُوا فَإِنَّا إِلَى اللَّهِ مُتَّظِمُونَ -  
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ بُهْتَ ابْنِ طَوْلُونَ وَكَادَ  
يَخِرُّ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ!

- - - - -

قبل نهاية الألفية الأولى، أتى المعز لدين الله، رائد دولته  
المنسوبة زورًا إلى فاطمة الزهراء، غازيًا مصر، فكان أول ما فعله  
هو الاحتفال بـ المولد النبوي بالحلوى التي استخدم في إعدادها 20  
قنطارًا من السكر وقُسمت على 300 صينية تُوزَّع على الناس في  
الأزهر، في محاولة منه لاستمالة قلوب المصريين "المُتدبِّين  
بطبَّعهم"!... وقُبيل نهاية القرن الثامن عشر، أتى نابليون بونابرت  
غازيًا على رأس حملته الفرنسية، فكان أول ما فعله هو الاحتفال بـ  
المولد، بإرسال 300 من الريالات الفرنسية وعددًا من الطبول  
والقناديل إلى منزل نقيب الأشراف لإقامة حفلٍ عظيم، في محاولة  
منه لاستمالة قلوب المصريين "المُتدبِّين بطبَّعهم"!... رجاءً، وفي  
مطلع الألفية الثالثة، لا تُحوِّلوا الدستور والشريعة والحكومة  
والبرلمان إلى مولد، لاستمالة قلوب المصريين "المُتدبِّين بطبَّعهم"!

- - - - -

حَدَّثَ بِالْفِعْلِ: كان هناك فتى حَمَّال بالأندلس يشتغل بنقل  
الأمِّعة بواسطة حمار. وذات مساءٍ مُقْمِرٍ، وبعد انقضاء عمل يومٍ  
شاقٍ، سأل زميلَيْه: "بِمَ تحلمان للمستقبل؟" ولمَّا كانا مُنْهَكَيْنِ، فلم

يُرَدًّا عَلَيْهِ. فتابع هو: "أمّا أنا، فأتمنّى أن أكون حاكمًا للأندلس  
وهنا استفاقا من الإعياء وعلّقا: "ههههه الأندلس!" لم يكثرث  
لاستكارهما، وسأل الأوّل: "ماذا تتمنّى أن أصنع لك لو صيرت  
حاكمًا؟" فقال هازئًا: "ضَعْنِي على ظهر حِمَارِي بالمقلوب ومُرْ  
جنودك بضربي وسأل الثاني، فقال باسمًا: "أعطني قَصْرًا كبيرًا  
وجوار حسانٍ ونَمْرُ السنون، وإذا بالخَمَال هو الحاجب  
المنصور أعظم ملوك الأندلس في تاريخها، والذي بلغت في عهده  
أكبر اتساع لها. ففعل بصاحبِيه ما أَرَادَا، وفعل لنفسه ما تَمَنَّى!...  
اخْلَمَ على نور القمر، وسِرَ في طريق حُلْمِكَ تحت شعاع الشَّمْسِ!

-----

قَبْلَ أَلْفِ عَامٍ، أَيْدَى الحَاكِمِ الفَاطِمِي العَزِيزِ بِاللَّهِ رَغْبَتَهُ فِي أَنْ  
يَأْكُلَ قَرَاصِيَا مِنْ نَوْعِ بَعِينِيهِ، يَنْمُو فِي أَنْطَاكِيَةِ السُّورِيَّةِ.<sup>30</sup> وَهَنَا  
انْتَفَضَتْ مِصْرٌ لِتَحْقِيقِ رَغْبَةِ فَخَامَةِ جَنَابِ دَوْلَةِ عَظْمَتِهِ. فَأَرْسِلَ  
طَلَبَ عَاجِلٍ مَعَ الحَمَامِ الزَّاجِلِ إِلَى بَعْلَبِكِ فِي لِبْنَانَ، حَيْثُ تَبَاعُ  
القَرَاصِيَا. وَمِنْ هُنَاكَ أُطْلِقَتْ 600 حَمَامَةٍ مِنْ بَعْلَبِكِ لِلقَاهِرَةِ، تَحْمِلُ  
كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا حَبَّتَيْنِ مِنَ القَرَاصِيَا فِي كَيْسِ حَرِيرِيٍّ مَرْبُوطٍ فِي  
رِفْقٍ إِلَى سَاقِهَا. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، قُدِمَتْ لِلسُّلْطَانِ طَاسَةٌ عِمْلَاقَةٌ  
فِيهَا 1200 حَبَّةٍ قَرَاصِيَا طَازِجَةٍ!... فِي صِلَتِهِمْ بِالحَاكِمِ، دَابَّ  
المِصْرِيُّونَ عَلَى التَّبْجِيلِ وَالتَّنْزِيهِ. فَإِذَا مَا قَامَ الحَاكِمُ بِوَجْهِهِ، سَبَّحُوا

---

قبل انتقالها تحت الحكم التركي في سنة 1939



بَحْمَهُ. وإذا ما أخفق، بَرَّروا له فشله... الحاكمِ واحدٌ من الناس،  
باختيار بعضِ الناس، في خِدْمَةِ كُلِّ الناس، دون تأليه وبلا تسفيه!

-----

"لقد صرْتُ بقرةً وينبغي ذبحي!" هكذا صرَّحَ أحدُ الأُمراءِ في  
لوئتهِ، مُمتنعًا عن تناول الطعام. عَرَّضوه على ابن سينا الذي  
استمع من حاشيته لِمَا أصابه، فتقدَّم إلى مريضه بشفرةٍ حادةٍ  
مُوهِمًا إيَّاه أنه يَهُمُّ بَذبحه. فلاحظَ استسلام الأمير لمصيره! وقُبِّل  
وصول الشفرةِ إلى رقبته، صاح ابن سينا: "هذه بقرة هزيلة، أعلفها  
أولاً حتَّى تسمن، ثم أذبحها". راقَتِ الفكرةُ للأمير الذي توقَّف عن  
صيامه، وبدأ يأكل بشرَاهة. وفي غضون ذلك، كان ابن سينا يَدُسُّ  
له في طعامه الدواء، حتَّى شُفي بعد أسابيع!... نحتاج إلى هؤلاء  
الذين يَفكِّرون خارج الصندوق، ويفعلون غير المألوف، فيحتالون  
على الجاهِلين بالعلم، وعلى الغاضِبين بالجلم، وعلى اللامباليين  
بالعمل، وعلى اليائسين بالأمل. نحتاج إلى عقلٍ يقهَرُ الجنون،  
وعَدْلٍ يُطمئنُ الظُّنون، وحبٍّ يَغلبُ الغِلَّ، وصبرٍ يأتي بالحلِّ!

-----

كَتَبَ الرَّحَّالَةُ الفارسي خسرو في زيارة لمصر قبل ألف سنة:  
"قُلْ أن يوجد للقاهرة شبيهة في الدُّنيا وحسبَتْ فيها 20 ألف دُكَّان  
جميعها ملكُ السُّلطان وموجَّزة بـ10 دنانير، والحمَّامات وغيرها من  
المباني لا يُحصى عدُّها ملكٌ له، لأنَّه كان ممنوعًا في القاهرة

التَمَلُّكُ لغيرِ السُّلْطَانِ وَكَتَبَ الفرنسي ماسبيرو في القرن الـ19:  
"كان كُلُّ شَيْءٍ في زمنِ الفراعنةِ من رجالٍ ومَتَاعٍ مِلْكًا لِلْمَلِكِ،  
وكان سائرُ رعيتهِ عبيدًا له. وكذلك كانت الأرضُ والتجارةُ من  
مُمتلكاته. فلا الزمنُ ولا الثوراتُ ولا الفتوحاتُ أمكنها أن تنتزعَ شيئًا  
من هذه الحقوقِ..." وهذا بيِّتُ القصيد! نجاحُ الثورةِ هو أن تكون  
مصرُ بتاعتك! فأنت لا ترمي الفَضَلاتِ على السِّجَّادةِ في بيتك،  
بينما ترميها على الرصيفِ في الشارع! ولا تفتحُ التكييفَ في بيتك  
سوى صيفًا، بينما تفتحه في شُغْلِكَ شتاءً لأنه ببلاش! وترفعُ قَعْدَةَ  
التواليتِ في بيتك، في حين تطرِطِشُ على كيفك في الحَمَّامِ  
العمومي!... الثورةُ ثروة!

- - - - -

في زمنِ الأيوبيين أَلَّفَ الأَسعدُ بنُ مماتي كتابَ "الفاشوشِ في  
حُكْمِ قراقوشِ" وكان قراقوشُ وزيرَ صلاحِ الدين الذي يديرُ شؤونَ  
مصرِ في غيابه. وَصَفَهُ الأَسعدُ بالظُّلمِ والحُمقِ. ومن اسمِ قراقوشِ  
اشتُقَّ كراكوزُ، ما يُطَلَّقُ على "خيالِ الظِّلِّ" في الشامِ، ثم تحرَّفتْ  
إلى أراجوز... وإذا كان الأراجوزُ قد اكتسبَ شهرتهِ عبرَ القرونِ،  
بما يَقدِّمه من نقدٍ لاذعٍ لأحوالِ مصرِ، غيرِ مُقتَصِرٍ على فقراتِ  
الفُكاهةِ والترفيهِ، فإننا اليومُ نعرفُ أراجوزَ كراكوزِ قراقوشِ في ثوبه  
المُتَجَدِّدِ... أراجوزُ يَحْكُمُ. أراجوزُ يعارضُ. أراجوزُ في الإعلامِ.  
أراجوزُ يُوجِّهُ العقلَ الجمعيَ من فَحِّ لَفْحٍ... وأمَّا الماريونيتِ الذي

عرفته مصر من 4000 سنة، فهو ما يُراد لهذا الشعب. أراجوز  
يُحْرِك ماريونيت. لن يسفر هذا سوى عن ملهاة!

-----

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَا      قَلَمَ أَرِ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا  
عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ \*      مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عُمْرِي سِينِينَا  
فَكَمْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَا عَرَفْنَا \*      بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعِيُونَا  
وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا      وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا  
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ دُفُونٌ \*      وَلَكِنْ بَعْدَمَا نَتَّفَعُوا دُفُونَا  
تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعَدُّوا \*      مِنَ الزُّهَادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا  
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ      وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّخْتِ الْبُطُونَا  
تَفَقَّهْتَ الْفُضَاءَ قَخَانَ كُلُّ \*      أَمَانَتَهُ وَسَمُوهُ الْأَمِينَا  
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرَ \*      سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا  
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ      بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْأَخْذِينَا  
وَقَالَ الْقَبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرَ \*      وَإِنْ سِوَاهُمْ هُمْ غَاصِبُونَا

أبيات ل البوصيري المولود 1213!... رشاوى موظفين، تزيح  
مسؤولين، ادعاء ملتحين، فساد قضاة، وحماقة صراع على  
وطن!... فهل نطمح في الخروج من التاريخ من باب الدخول!؟

-----

لَيْسَ أَهْمٌ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْصِفَ بِهِ الْمُوَرِّخُ هُوَ غِزَارَةُ الْعِلْمِ وَبِرَاعَةُ  
الْإِلْمَامِ. فَالْأَهْمُ أَلَّا تَسُوْقَهُ أَهْوَاؤُهُ، وَأَنْ يَكُونَ سَلِيمَ النِّيَّةِ شَاهِدًا

بالصِّدْق، ولو خسر فُرَّاه كُلهُم... أمامي الآن موسوعة وفيات الأعيان ل ابن خلكان وذيل تاريخ دمشق ل ابن القلانسي. يتحدّث الأول صد364 عن تولية عماد الدين زكي<sup>31</sup> ل نصير الدين جقر على المؤصل، ثم يصف جقر: "كان جبّارًا عسوفًا سفاكًا للدماء مُستحلًّا للأموال". بينما يذكره الثاني صد275: "كانت له أخبار في العدل والإنصاف، وتجنّب الجور والاعتساف"... ذلك الـ جقر رمزٌ للظلم وآيةٌ في العدل في أن واحد!... وإن كان الخلاف واريًا في أخبار الغارين، فإن مهزلة اليوم أن ترى الحقّ فتبطله، وترى الباطل فتحفه، دون أن يرمش لك جفنّ، أو تهج لك كيورد!

-----

قبل 730 سنة، وفي أثناء حملة عسكرية بالشام، أصيب السلطان المنصور قلاوون بمعص كلوي حاد، عولج على أثره بكفاءة عالية في البيمارستان النوري بدمشق<sup>32</sup>. فلما شفِي، أقسم المنصور أن يُنشئ ما يُماثلُه بالقاهرة لدى عودته. بُني البيمارستان المنصوري عام 1284. ونصّ دستور إنشائه على الآتي: "يقيم فيه المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم، ويُصرَفُ ما هو مُعدُّ فيه للمداواة، ويُفرَّق للبعيد والقريب، والغني والفقير، من غير اشتراطٍ لعوضٍ من الأعواض، بل لمحض فضلٍ

---

والد نور الدين محمود أستاذ صلاح الدين الأيوبي

نسبة إلى نور الدين محمود

الله العظيم لا تُريدُ علاجًا بالواسطة على نفقة الدولة بالخارج،  
نريد أن يغاز الحاكم على بلده وشعبه، ولا يفرقُ بين أحدٍ...  
الحضارة تعني أن تكون حاضرًا مُنتهيًا up to date!

-----

اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسُلْ فَمَا \* أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ  
وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِلْهُ فَمَنْ \* يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَدَلْ  
لَا تَقْلَنْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ \* كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ  
فِي أَرْيَادِ الْعِلْمِ إِزْغَامُ الْعِدَى \* وَجَمَالَ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ  
أَنَا لَا أُخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ \* قَطَعَهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقَبْلِ

أبيات ل ابن الوردي قبل 700 سنة. يتحدث عن أهمية العلم  
ويُذللُ الجُهدَ لتحصيله، ولو على حساب النوم والراحة. يتحدث عن  
الكفاح والجُهد وصولاً للمبتغى. يتحدث عن هزيمة قُوى الشرِّ بالعلم  
المقرون بالعمل الصالح. ويشير بعد كلِّ ذلك إلى الفارق الجوهري  
بين العالم والجاهل، بين العامل والعاطل، بين المثابر والمكابر.  
فهؤلاء الأوائل خِلافًا للأواخر لن يُقتلوا الأيدي، ولن يرضوا باتباع  
الحمقى، ولن يأمنوا لمُسْتَبِدٍّ.. وتبقى كلمة السير: الم عرفة!

-----

قبل 650 سنة، تعرّضت الإسكندرية لهجوم قبرصي دمّرها.  
وتراكمت الجُثث وظفر العدو بـ5000 أسير. ولمّا وصل الخبر إلى  
القاهرة، خرج القاهريون أفواجًا في جيشٍ عظيمٍ لنجدة الإسكندرية.

ولمّا كان النيل في موسم زيادته، فقد تعطلَّت مسيرة الجيش عبر النهر. وبوصولهم إلى البحيرة، جاءتهم الأنباء عن رحيل القُبرصيين بصُحبة الأسرى. عادوا للقاهرة بعد دفن القتلى ومُداواة الجرحى. ثم خرج النجّارون يقطعون الأخشاب، ويصنعون السفن لغزو قبرص لتخليص الأسرى. استمرَّت محاولات الغزو، وتعاقبت عشرة سلاطين على حُكم مصر، قبل أن ينجح الجيش بعد 60 سنة في الأخذ بثأر الإسكندرية وأسر ملك قبرص. فنزل آلاف القاهريين يبكون في الشوارع من شدّة الفرح في مظاهرة حاشدة احتفالاً بالنصر والتأر!... فما الذي جرى حتى يَحَقِّدَ الكلُّ على الكلِّ وَيَسْمَتَ الكلُّ في الكلِّ... مُدُنًا وأديانًا وأحزابًا وجماعاتٍ؟؟

- - - - -

قبل نحو 590 سنة كان يحُكم مصر سلطان مملوكي اسمه الأشرف برسباي. كان واحدًا من أفضل وأفسد وأظلم الحُكّام... وحدث أن ظهر الوباء بمصر، فتخوّف السلطان من عواقبه، وعقد مجلسًا بالقلعة حضره عددٌ من العلماء الذين أصدروا له فتوى بمنع النساء من الخروج من بيوتهنّ، متاجررين بالحديث الشريف عن الطاعون الذي يظهر في قوم فشا فيهم الرّنا. ولا قضاء على الوباء إلّا بالقضاء على الرّنا، ولا قضاء على الرّنا إلّا بالقضاء على النساء!... إذا، فسوء الأحوال المعيشية والمجاعات والأوبئة ليست من نظام الحاكم، بل من آثام المحكوم! وهكذا أمر السلطان رجاله

بَتَّبِعَ النِّسَاءَ وَضَرِبَهُنَّ حَتَّى يَلْزَمْنَ الْبُيُوتَ. وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ الْفَتْوَى مَا وَصَفَهُ الْمَوْزِعُ ابْنُ تَغْرِي: "حَلَّ بِالنَّاسِ مِنَ الْأَكْثَادِ وَالضَّرْرِ مَا لَا يُوصَفُ مِنْ تَرَائِدِ الطَّاعُونَ، وَتَعَطُّلِ كَثِيرٍ مِنَ الْبِضَائِعِ الْمُتَبَاعَةِ عَلَى النِّسْوَةِ لِامْتِنَاعِهِنَّ عَنِ الْمَشْيِ فِي الطَّرِيقَاتِ"... لَا يَجِدُ النِّفَاقَ وَالْفَسَادَ مَرْتَعًا لِلنُّمُوِّ إِلَّا بِتَوَافُرِ شَرْطٍ وَاحِدٍ فَقَط... الْجَهْلُ!

-----

هَلْ سَمِعْتَ عَنِ تَفْسِيرِ الْجَلَالِيِّنَ؟ هُوَ أَحَدُ أَهَمِّ تَفَاسِيرِ الْقُرْآنِ وَأَوْسَعِهَا انْتِشَارًا. بَدَأَهُ جَلَالُ الدِّينِ الْمُحَلِّي بِالْقَرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ بِتَفْسِيرِ الْكَهْفِ وَصَوْلًا إِلَى النَّاسِ، ثُمَّ تُوَفِّي... فَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِ جَلَالُ الدِّينِ السِّيُوطِيُّ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ، لِيَبْدَأَ بِالْفَاتِحَةِ وَيُنْتَهِيَ بِالْإِسْرَاءِ... اكْتَمَلَ الْعَمَلُ، وَلَمْ يَتَشَاخَرَ مُرِيدُو الْإِمَامَيْنِ عَلَى أَسْبَقِيَّةِ الْفَضْلِ، وَلَا إِذَا مَا كَانَ تَفْسِيرُ الْبَقَرَةِ أَهَمَّ مِنْ تَفْسِيرِ الْفِيلِ!... أَفْضَلُ مِنْ أَنْ "تَحْرِضَ النَّاسَ عَلَى الْكِرَاهِيَةِ، أَنْ تُحْضِرَ النَّاسَ لِلْحُبِّ... أَفْضَلُ مِنْ أَنْ "تُغَيِّرَ الْآخِرِينَ، أَنْ "تَتَغَيَّرَ مَعَ الْآخِرِينَ... أَفْضَلُ مِنْ أَنْ "تَسْتَبُّبَ" عَلَى مَا نَخْتَلِفُ فِيهِ، أَنْ "تَسْتَبُّبَ" فِيمَا نَجْتَمِعُ عَلَيْهِ... أَفْضَلُ مِنْ أَنْ نَفَارِقَ أَنْ نَرِافِقَ، مِنْ أَنْ نُكْفِّرَ أَنْ نُفَكِّرَ، مِنْ أَنْ نَتَفَاضَلَ أَنْ نَتَكَامَلَ... وَانْتَبِهُوا! إِنَّ "تَكْبُرَ الْمُنتَصِرِ هَزِيمَةٌ، وَإِنَّ "مُكَابِرَةَ" الْخَاسِرِ جَرِيمَةٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمُجْتَمَعَ الْمَغْلُولَ مَسْلُولٌ، وَأَنَّ الْجِدْقَ يَهْدُ، وَأَنَّ الصِّرَاعَ

ضِياع، وأنَّ الهدف واحد والبلد واحد والرَّبُّ واحد... وتأكِّد عزيزي  
المُساهم الصغير في الوطن الكبير أنَّ الغلَّيان المُستمرَّ بين  
الجميع لا يؤدِّي لشيءٍ سوى... للتَّبخر!

-----

يُخَي لنا الرَّحَّالة الأندلسي الأصل المغربي النشأة الحَسَن  
الوِزَّان مَشْهُدًا من رحلةٍ في صحاري أفريقيا. إذ قرأ قِصَّةً مُدَوَّنةً  
على شاهدِ قَبْرَيْنِ مُتَلاصِقَيْنِ تقول: "هنا يَرُقُّدُ رَجُلان، أحدهما عَنِّي  
يملك المال الوفير، والآخر فقير لا يملك سوى نِصْفِ قَدْحٍ من  
الماء. وكان كِلَاهُما ظَمَأًا تائِهًا. فنفاوِضا على بَيْعِ الماء. وطال  
الجِدالُ واخْتَدَّ واشْتَدَّ. ولمَّا وَصَلَا إلى اتِّفاقٍ يقضي بأن يدفع الغنيُّ  
عشرة آلاف دينار ذهبي مُقابل أن يبيع الفقير ماءه، وخطَّ كُلُّ من  
البائع والمُشتري نَحْو صاحبه، سَقَطَا مَعًا مَيِّتَيْنِ من العطش!"...  
نسأل الله تعالى غافِرَ الذَّنْبِ قَابِلِ التَّوْبِ ألا نكون - كشعبٍ - قد  
تأخَّرنا أكثر مما ينبغي، وأن يمنحنا المولى فُرْصَةً أخيرةً لبدايةٍ  
جديدةٍ يسود فيها الحُبُّ والإيثار والاحترام... والأرض لو عطشانة  
نرويها بدمانا، والأفضل من ذلك ألا نتركها تعطش أبدًا!

-----

هكذا بدأ السقوط... وُلِدَ تَقِيُّ الدين بن معروف في دِمَشق،  
ونشأ في مكة، وتعلَّم في القاهرة، وبرَّعَ نَجْمُه في الفُسطَطينية...  
وبأمر السلطان مراد الثالث حفيد سليمان القانوني، شرَّع تَقِيُّ



الدين في إنشاء مرصد القسطنطينية في 1575... وفي 1580  
أفتى شيخ الإسلام الجديد قاضي زاده بهدم المرصد، لأن في ذلك  
تجسسا على السماء! ونفذ الجند الانكشارية المتمردون على مراد  
قتلوا زاده، فاقتحموا المرصد وخطموا آلاته وطردهوا علماءه وهدموا  
بناؤه... وهنا وقف تقي الدين على أطلال المرصد قائلاً: "كان  
مرصدنا في القسطنطينية قصير العمر، وأرجو ألا يكون آخر  
المراصد التي تعرفها بلاد الإسلام ومن المؤلم أنه كان آخرهم  
بالفعل لقرون من التداعي!... ويك الأمة تقترى على دينها،  
وتحسب أنها تحسب صنعا!"

-----

لعل أهم ما يميز العيد الـ39 لأكتوبر، هو أن مصر تقرا! ألقى  
تظرة على فيسبوك. الجميع يتسابق للنش في التاريخ، لتكريم  
أبطال الحرب بالكتابة عنهم. وقريبا بإذن الله، سنتخلص من ميراث  
الاحتفال الهزلي بإستاد القاهرة وعزف الموسيقى العسكرية وانتظار  
كلمة الرئيس بطل الحرب والسلام. وأبعد من ذلك قليلاً، سيعتزل  
الشعراء والمُجنون والمطربون، وتكف عن الغناء والدنثة  
والدروسة، في ظاهرة اختفت من الدنيا منذ هذه الحكاية: في بلدة  
ما، اقترح أحد ضباط سلاح الفرسان فكرة ترقية خيول الجيش  
في الاستعراضات الموسيقية لإضفاء البهجة. ثم أصبحت الفكرة  
شائعة، ونال الضابط شهرة واسعة، إلى أن دخلت البلدة في حرب

وأرسلت فُرساتها للمعركة. فقام الأعداء بالعزف، وبدأت الخيول بالرفص؛ لينهزم الجيش خلال ساعة واحدة!... يا نعيي يا نشغل!

-----

قبل 230 سنة وفي إحدى مدارس ألمانيا، كان هناك طفلٌ مُشاكِسٌ خارق الذكاء. كُلَّمَا سأل مُدرِّس الرياضيات سؤالاً سارع الطفل بالإجابة، حارِماً زملاءه من التفكير. وذات مرّة، سأل المُدرِّس سؤالاً صعباً. ولمّا أجب عليه الطفل بسرعة، غضب مُدرِّسه وأعطاه مسألة تستغرق وقتاً؛ حتى يلهيه عن الحصّة ويتفرَّغ لأقرانه. فسأله: "احسب لي حاصل جمع الأعداد من 1 إلى 100". وبعد ثوانٍ، هتَفَ الطفل: "5050!". ... صَفَّحَهُ المُدرِّس مَشْدُوهاً مُتَسائِلاً: "كيف عرَفْتَ؟" فقال: "اكتشَفْتُ علاقةً بين 1 و99 ومجموعهما 100. وأيضاً 2 و98، و3 و97. وهكذا أَلَفْتُ قانوناً عامّاً للحِساب هو:  $n(n+1)/2$ ". دُهِّلَ المُدرِّس الذي لم يَكُنْ يدري أنه يَصنَعُ العالمَ الفَذَّ كارل فريدريش جاوس أحدَ أشهرِ عُلَماءِ الرياضِة في التاريخ... ستجج ثورتنا يوم نحتمي ب عمرو محمد مُخترع العرب كما نحتمي ب كارمن سليمان محبوبة العرب!

-----

ظَهَرَ مُصْطَلِحُ اليسار في 1789 قُبَيْلَ قيام الثورة الفرنسية. وذلك عندما اجتمع الملك لويس الـ16 بالقوى السياسية، فتصادف جلوس مُمَثِّلي الشعب على اليسار، وطبقة الأُنبلاء على اليمين...

وشهد الاجتماع صراعًا تصاعدتْ حدّته بعد ذلك، لتسفر عن قيام الثورة وسقوط الباستيل في يوليو 1789... ولا أميلُ شخصيًا إلى المُصطلحات الميَّنة. الوقوف في مُواجهة رئيس الجمهورية أفضل. فلا يحتاج الرجل إلى الألتفات يمينًا أو يسارًا، لتصنيف قومه بين مؤيِّدٍ ومُعارضٍ. وينقسم الناس إلى مطبّلاتية أو مشغلّاتية... فإنّ تُحسِنُ أشدَّ "على يديك، وإنّ تُخطئُ أشدَّك" من يديك... على برّه!

-----

من مَوْسوعة وَصَف مصر: "المصري يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع. لكنه ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من خيظته حتى يبدي همّةً ما كُنْتَ تظُنُّ في البداية أنها لَدَيْهِ. ولقد واتَّنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدّة مرّات أثناء حملتنا، وهو ما يبرهنُ على ما سبق أن قلناه من أنّ إصلاح مساوئ نظام الحُكم سوف يُوذِي بسهولة فائقة إلى أن يُردَّ لهذا الشعب كُلُّ الفضائل التي فقدها، بل التي لا يظنُّها هو نفسه كامنة فيه. كما أنّ ذلك سوف يُوقِظُ فيه كُلَّ مشاعر النُّبل والهِمة وعظمة الروح التي خنقناها مؤقَّتًا تلك الأنظمة الشيطانية التي يزرع تحت نيرها، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد بشكلٍ مُخزِنٍ خرج الفرنسيون من مصر قبل قرنين ومن العيب أن يبرعوا في وَصْفنا ويظنُّوا بَعْضنا يخطُّ من شأن بعضنا الآخر!

-----

كانت الجندية في مصر على قدر كبير من القسوة في عام 1840، بحيث أن بعض المطلوبين للتجنيد كانوا يعمدون إلى قلع إحدى أعينهم للتخلص من الخدمة. لكن محمد علي باشا فطن لتلك الحيلة، فعمد إلى إنشاء كتبتين في الجيش تتألف من العوران!... وأجدنا اليوم نهرب من مواجهة الواقع بفتح عين المنافسة، والاكتماء بعين المهاجمة... ولأن محمد علي مات منذ 162 سنة، فسندتفي بكتيبة التويتير، وهنيئاً للإخوان البرلمان!



دَرْسٌ من التاريخ: لَيْسَتْ مُهِمَّةُ حَاكِمِ مِصْرٍ بِالْيَسِيرَةِ وَلَا بِالْمُمْتَعَةِ... وَيُذَكَّرُ أَنَّ الْخَدْيَوِيَّ إِسْمَاعِيلَ فَعَلَ الْكَثِيرَ "أ" هَذَا الْوَطْنَ، لَكِنَّهُ كَذَلِكَ فَعَلَ الْكَثِيرَ "ب" هَذَا الْوَطْنَ. وَفِي النِّهَايَةِ، عَاقِبَتُهُ التَّارِيخَ عَلَى مَسَاوئِهِ، وَأَغْفَلَتِ الْأَجْيَالُ مَآثِرَهُ. وَمِمَّا يُعْرَفُ عَنْهُ أَنَّهُ تَوَسَّعَ فِي مَدَى شَبَكَةِ التَّلْجِرَافِ عَلَى خُطَى سَلْفِهِ سَعِيدٍ حَتَّى شَمَلَتْ مُعْظَمَ الْمُدُنِ الْمِصْرِيَّةِ بِلِ وَنَجَّحَ فِي إِيْصَالِهَا إِلَى السُّودَانِ وَالشَّامِ وَالْأَنْاضُولِ... وَكَانَ مِنَ الْمَفَارِقَاتِ أَنْ تَكُونَ آخِرُ رِسَالَةٍ يَتَسَلَّمُهَا إِسْمَاعِيلُ عَبْرَ أَسْلَاكِ التَّلْجِرَافِ هِيَ بَرَقِيَّةُ الْبَابِ الْعَالِيِ يَخْبِرُهُ فِيهَا بِعَزْلِهِ وَتَوَلِيَّةِ ابْنِهِ تَوْفِيقٍ. وَكَانَ فَحْوَى الْبَرَقِيَّةِ فِي 26 يُونِيُو 1879 بِاللُّغَةِ التَّرْكِيَّةِ يَقُولُ: "إِلَى إِسْمَاعِيلِ بَاشَا خَدْيَوِيٍّ مِصْرٍ سَابِقًا!" ثُمَّ كَانَ النَّفْيُ!... أَيُّهَا الرَّئِيسُ الْحَاكِمُ، إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ!



في أثناء معارك عُرابي ضد الإنجليز، انتشرت شائعة عجيبة طافقت مصر أن ثمة دجاجة قد وضعت بيضة مكتوبًا عليها "نصر من الله وفتح قريب". اعتقد فيها المصريون، وصاروا يُهللون ويكبرون، دون الالتفات إلى حاجة عُرابي الفعلية للدعم الحقيقي! ولما هدى الله بعضهم، ذهبَتْ جماعة إلى عُرابي، وقَرَّرتْ إهداءه ثلاثة مَدافع أُثْرِيَّة لا خَيْرَ فيها. لكنَّهم سَمُّوها: مدفع السيد البدوي، مدفع سيدي إبراهيم الدسوقي، ومدفع سيدي عبد العال... المُهم، انتهت المعارك بهزيمة الجيش واحتلال مصر ونفي عُرابي إلى سيلان... فلا فَحَسْتُ البيضة ولا دَافَع المدفع!... في كُلِّ نجاحات البشر عبر التاريخ، فِتْنَسُ عن: الإيمان بالهدف، العمل الجاد، احترام العِلْم، الإيجابية، التعاون الفَعَال، وسُرْعَة التَّأْيِيَّة... والنتيجة: يَدْخُل بعضهم التاريخ ويتركون للأخرين قراءته!

-----

الله حي عبَّاس حي!... هكذا كان يهتف المصريون احتجاجًا على عزْل آخر خديوي في مصر عباس حلمي الثاني، الذي خَفَضَ الضرائب وعَمَّم التعليم، فأَحَبَّه المصريون حتى خلعه الإنجليز ونفوه... ومَرَّتْ السنون، وصار النشيد أيقونة يُرَدِّدُها المصريون كُلُّما انتظروا الجديد السعيد الذي ينقذهم من العَمَّ الشديد... لم يَأْتِ عبَّاس قط رغم المُحاولات المُضْنِيَّة في ثورة زغلول ورُمُرته، وثورة ناصر ودُفَعته، ثم ثورة الشباب بإلهاج من

البرادعي وصُخبته... ولأنَّ الشعوب التي تنام وتحلم بـ عبّاس، لن يأتيها عبّاس سوى في المنام، فرُئِمَا علينا قراءة تصريحات المرأة الحديدية مارجريت ثاتشر في مُقابلة صحفية أُجريت معها 1984: "أريد تغيير بلادي من مُجتمَع ائكالي إلى مُجتمَع يعتمد على نفسه من أجل النهوض والمُضي، بدلاً من بريطانيا تجلس وتنتظر!"

-----

في إحدَى الحفلات الرسمية، التقى رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل بالأديب الأيرلندي برنارد شو. كان شو نحيلًا طويل القامة، بينما كان تشرشل سمينًا ضخم الجُثة. قال تشرشل مُداعِبًا شو: "إنَّ مَنْ يراك على هذه الحال، لَيَظُنُّ أَنَّ بريطانيا تشكو من مجاعة!" فنظَّر له شو في تأنُّ ثم علَّق: "وإنَّ مَنْ يراك يا سيدي، فسيعتقد أنَّك وحدك المسؤول عن هذه المجاعة!"... وأرسل الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي في طلب زاهد يُقال أنَّه مُستجاب الدعوة. فلمَّا حضَرَ، رجَّاه أن يدعو له بالخير. رَمَقَه الزاهد، ثم رَفَع يديه نحو السماء وقال: "اللَّهُمَّ أَقْبِض رُوحَ الحجاج!" فصرخ الحجاج في وجهه غاضبًا: "وَيْلَكَ، ما هذا الدُّعاء؟! فرَدَّ الزاهد في هدوء: "هذا الدُّعاء خَيْرٌ لك، حتى لا تكثر ذنوبك، وللناس، حتى لا يزداد عذابهم بك!"... نريد مُفكِّرين يحترمون الحاكم ولا يخشونه، وشيوخًا يَؤمُّون الحاكم ولا ينافقونه!

-----

هل تعلم ما الذكري السياسية الأهم التي تحنفل بها اليابان الشقيقة سنويًا؟ تحرص اليابان على إحياء ذكري استسلامها بالحرب العالمية في منتصف أغسطس من كل عام! لا تفعل ذلك من باب جلد الذات. بل تفعل؛ كي يتذكّر اليابانيون لحظات الانكسار لمدة 24 ساعة، في مقابل أسابيع وشهور من الشعور بالعزة... لا تحتاج الأمم المتحضرة إلى الرقص والغناء وعقد المؤتمرات وتغيير البروفيلات في ذكري أعيادها الوطنية، بينما تعيش أسوأ مظاهر الحاضر في باقي أيام السنة. لا تحتاج الأمم المتحضرة إلى التصارع على الماضي وتحقّر من شأن زعمائها أو ترفعهم إلى سابع سماء، في حين يعيش أغلب شعبيها اليوم تحت سابع أرض. تقرأ الأمم المتحضرة تاريخها؛ كي تتعظ؛ لا كي تتفاخر، كأحمق يقود سيارته للأمام أثناء النظر في المرآة الخلفية!

- - - - -

في أربعينيات القرن الـ20 زار الأديب الفرنسي جان كوكتو مصر، وأبذى ملاحظته ساخراً: "إن سائقي مصر يستعملون آلات التنبيه، لاعتقادهم في قدرتها على إطفاء إشارات المرور الحمراء!" ولما عاد إلى بلده، ألف كتاباً يرصد سلبياتنا برشاقة الشاعر وسخرية المسرحي عنوانه "معلش!" وأثار جدلاً كبيراً ومنع في مصر، إذ اعتُبر مهيناً للشعب المصري العظيم!... ومن اللافت أن المصريين يعانون من الخل السلوكي على مرّ الأجيال... فالقاهرة





وأمنحتب الأول مع منتوحتب الثاني، وهور محب مع إختاتون!  
فإنَّ تَصَوَّرَ مُرَاهِقًا أَنْ نِجَاحِ ثَوْرَتِهِ بِطَمْسِ مَعَالِمِ ثَوْرَاتِ الَّذِينَ  
سَبَقُوهُ، وَإِنْ أَمِنَ أَنْ ثَوْرَتِهِ لَيْسَتْ أَمْتِدَادًا لِكُلِّ الَّذِينَ ثَارُوا مِنْ قَبْلِ  
بِمَا أَحْسَنُوا فِيهِ وَبِمَا أَسَاءُوا، وَأَنَّ الشُّعُوبَ تَتَقَدَّمُ بِالنَّتَابِعِ لَا  
بِالنَّتَابِعِ، بِالْأَمْتِنَانِ لَا بِالْأَمْتِهَانِ، بِتَسْلَمِ الْعَصَا وَتَسْلِيمِهَا، لَا بِتَلْقِي  
الْعَصَا وَتَكْسِيرِهَا، فَلْيُذْرِكْ تَمَامَ الْإِدْرَاكِ، أَنَّهُ يُعَدُّ "الْبَشُورَةَ" لِأَجْيَالِ  
تَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ، فَتَمْسَحْ مَا فَعَلَهُ مِنْ عَلَي سُبُورَةَ التَّارِيخِ!

- - - - -

حَدَّثَ بِالْفِعْلِ!... ذَأَبُ مَوَاطِنُ بَلْجِيكِي طَوَالَ 20 سَنَةِ عَلَي  
عَبُورِ حُدُودِ أَلْمَانِيَا يَوْمِيًّا عَلَي دَرَجَتِهِ، حَامِلًا عَلَي ظَهْرِهِ حَقِيْبَةَ  
مَمْلُوءَةً بِالتُّرَابِ. وَكَانَ رِجَالُ الْحُدُودِ عَلَي يَقِيْنِ أَنَّهُ يَهْرَبُ شَيْئًا مَا.  
لَكِنَّهُمْ يُفْتِشُونَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، فَلَا يَجِدُونَ مَعَهُ سَوَى التُّرَابِ! وَبَعْدَ  
وَفَاتِهِ، اِكْتَشَفُوا سِرَّهُ. فَقَدْ عَثَرُوا فِي مُذَكِّرَاتِهِ عَلَي هَذِهِ الْعِبَارَةِ: "حَتَّى  
زَوْجَتِي، لَمْ تَعْلَمْ أَنَّنِي بَنَيْتُ ثَرَوَتِي عَلَي تَهْرِيْبِ... الدَّرَاجَاتِ إِلَي  
أَلْمَانِيَا"!... نَفْسِي الْعَالَمِ اللَّيِّ بِتَحْكَمِ وَالخُلُقِ اللَّيِّ بِتَعَارُضِ  
بِيَهْرُونِي. يَطْلَعُوا مَدَكِّينِ وَإِحْنَا اللَّيِّ مَشَ دَارِيَانِيْنِ. نَفْسِي يَكُونُ  
عِنْدَهُمْ حَاجَةٌ تَانِيَّةٌ غَيْرَ التُّرَابِ. نَفْسِي أَتَخَضُّ وَالْأَقْيَ رِيْسَ بِيِيدِعِ.  
نَفْسِي أَتَشَدُّ وَالْأَقْيَ مُعَارُضِ بِيَطْرَحِ حُلُولَ غَيْرِ تَقْلِيدِيَّةِ، مَشَ غَاوِي  
بِيُوَزُّ وَيَتَقَمِّصُ!... عَايِزُهُمْ يَخْدَعُونَا وَيَهْرَبُوا مَصْرَ لِلْعَالَمِ الْمُتَقَدِّمِ!

## العيادُ بالله...!

يحتفظ لنا التاريخ الإسلامي بأعجب الألقاب لملوكٍ وأمراءٍ ووزراءٍ. ومما يسترعي النظر أنها ألقابٌ نالوا بعضها في حياتهم وسعدوا بها أيّما سعادة، أو على أسوأ تقديرٍ لم يعترضوا عليها! ولقّبوا ببعضها الآخر بعد وفاتهم، وعُرفوا بها على مَرِّ العصور. منها ما هو مُبالغٌ في الهجاء، ومنها ما هو مُعالٍ في الثناء.

**الأخرس** هو ألب أرسلان بن رضوان السلجوقي. نال لقبه لثُمَّتَمَةٍ في نُطْقِهِ وإِعاقَةٍ في لسانه. ثاني سلاجقة حلب في مَطْلَعِ القرن الثاني عشر. تَوَلَّى السُّلْطَنَةَ بعد وفاة أبيه وهو في السادسة عشر. ساءت سيرته بعد أن تفرَّغ للمعاصي والمُوبقات غافلاً عن شؤون الحُكْم والبلاد... قُتِلَ.

**أمين الأماناء** هو الحُسَيْن بن طاهر الوُرْثان الوزير المصري أيام الحاكم بأمر الله في مطلع الألفية الثانية، المتوَلَّى خزانة بيت المال. نال لقبه لأمانته في الدُّنْيا. ضُربَ عُنُقُهُ لسببٍ غير معروف في رحلة له خارج القاهرة. دُفِنَ حيث ضُربَ.

**الأحول** هو سعيد بن نجاح الحبشي. ثاني ملوك دولة بني نجاح اليمنية في نهاية القرن الحادي عشر. تَوَلَّى الحُكْم بعد

اغتيال أبيه، ثم اغتال هو من اغتال أباه. ثم اغتيل من أنصار  
مُغتال أبيه الذي اغتاله هو!

**أمير الأمراء** هو فاتك بن عبد الله، المتوَلِّي حلب من قِبَل  
الحاكمِ بأمر الله في مطلع القرن الحادي عشر. ثم انقلب عليه  
الحاكمِ، فزَدَ أمير الأمراء بقطع الدُّعاء له على المنبر، ودعا  
لنفسه، وسكَّ العُملة باسمه. أرسل الحاكم جيوشه لزدعه، فأرسل  
أمير الأمراء لملك الروم يستجد به. مات الحاكم قبل تصادم  
الجيشين. خُلِع أمير الأمراء ممن خَلَف الحاكم. قتله عَلَامٌ هنديٌّ  
وهو نائم في فراشه.

**جمار الجزيرة** هو مروان الثاني بن محمد آخر خُلَفَاء الدولة  
الأموية في مُنتصف القرن الثامن. بدأ حياته حاكمًا لأذربيجان  
وأرمينيا وجزيرة العرب. اشتهر بحروبه وفتوحاته. استولى على  
عرش بني أمية بعد أن خلع إبراهيم بن الوليد. في أيامه، قَوِيَ  
العبَّاسيون في بغداد، وزحفوا نحو دِمَشق. وانتهت المعركة بهزيمة  
الجمار وفراره. لَحِقَ به من قتله حاملاً رأسه إلى أبي العبَّاس  
السفَّاح، لتتقرض الخلافة الأموية من دِمَشق إلى الأبد!

**شمس الشموس** هو خسرو شاه بن محمد الثالث آخر  
رُعماء الإسماعيليين الباطنيين في بلاد فارس في مُنتصف القرن  
الثالث عشر. ثامن من حَكَم قلعة الموت الفارسية الشهيرة منهم.

تَوَلَّى الحُكْمَ بعد أن حَرَضَ على قتل أبيه. اجتاح هولاءكو بلاده واتَّخذه أسيرًا. قتله أثناء استكمال الزخف المغولي لعدم الحاجة له. بمقتله انقضت الطائفة الإسماعيلية من قلعة ألموت، وغربت شمسها إلى الأبد.

**الظالم** هو عالم خان بن عبد الرحمن ثامن خانات خوقند بآسيا الوسطى في مطلع القرن التاسع عشر. استولى على طشقند. عمل على تحطيم الأسرة الأوزبكية. حارب الثبلاء ورجال الدين. أحاط نفسه بالمرتزقة. عاث في بلاده جورًا، حتى لقبه الناس بـ **الظالم**. ثار عليه قومه فقتلوه وولوا أخاه. فمات **الظالم** وعاش لقبه!

**علاء الدنيا والدين** هو كيقباد الأول بن كيخسرو الأول عاشر سلاجقة الروم في القرن الثالث عشر. ارتقى العرش بعد وفاة أخيه. نجح في توسيع ملكه بالإغارة على جيرانه. اهتم بالعمارة والتجارة. لقبه قومه بـ **الكبير** كذلك. ولم تشفع له ألقابه، فمات بالسُّم.

**المسلوخ** هو محمد الثاني بن عبد الله الأول خامس ملوك الدولة السعدية بالمغرب الأقصى في القرن السادس عشر. بُوع بمراكش بعد وفاة أبيه. تكبّر على رعيته وأمعن في تعسفه. تعرّضت بلاده لهجوم العثمانيين المجتاحين للشمال الأفريقي. انهزم فاستنجد بالبرتغاليين. نجح العثمانيون في دحر البرتغاليين

ومات مليكهم غريقاً، وكذلك محمد الثاني. انتشلت جثته وسلخ جُذُه وحشِي تيناً، وطيف به في مراكش. فلَقَّبوه بـ **المسلوخ!**

**رئيس الرؤساء** هو لقب لاثنتين من وزراء العرب. الأول: **علي بن الحسن بن أحمد البغدادي**. كان من أفضل الوزراء عدلاً وعِلْماً في منتصف القرن الحادي عشر. تَوَلَّى الوزارة لمدَّة 12 سنة في عهد القائم بأمر الله العباسي. قُتِل أثناء فتنة استيلاء شيعة فاطميين على بغداد. والثاني: **عمَّار بن محمد القاهري**. كان من وزراء الدولة الفاطمية بمصر في عهد الظاهر لإعزاز دين الله في مطَّع الألفية الثانية. ورغم لقبه الفخيم، عَزَلوه وقتلوه بعد أشهر قليلة من وزارته.

**المخلوع** هو لقب لأربعة من قدامى ملوك العرب. وتجدَّد ذِكْرُه مع خامسهم! أولهم: **المخلوع الأموي إبراهيم بن الوليد** ثالث عشر خُلَفاء بني أمية الذي خلعه حمار الجزيرة بعد سبعين يوماً. ثانيهم: **المخلوع الموحَّدي عبد الواحد الأول بن يوسف الأول** سادس ملوك الموحَّدين في المغرب الأقصى. تَوَلَّى الحُكْم في شيخوخته. انتقض عليه قومه وخلَّعوه بعد ثمانية أشهر. وقتلوه حَنَقاً في قصره. ثالثهم: **المخلوع النصري محمد الثالث بن محمد الثاني** ثالث أمراء الدولة النصرية بالأندلس. باشَر الحُكْم في حياة أبيه ثم تَوَلَّاه رسمياً بوفاته. وفي يوم عيد الفطر بعد سبعة أعوام

من ولايته، اتَّفَقَ عليه أخوه مع كبار رجال دولته، فخلعوه ونقلوه خارج غرناطة. ثم أمر أخوه بإغراقه في بركة! ورابعهم: المخلوع الحفصي يحيى الثاني بن محمد الأول ثالث ملوك الدولة الحفصية بتونس. بُويعَ له بالحُكْم بعد وفاة أبيه. رفع المظالم وأفرج عن المساجين وأجزل العطاء للجند. ثار عليه عمُّه، فخلع نفسه وباع عمُّه! وسرعان ما اعتقله عمُّه ودبَّحه مع بنيهِ!

الفاروق الأكبر هو العنبيُّ عن التعريف وعن الألقاب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. لكن الشيعة من بعده أعطوه لقبًا لم يطلبه، ولو تقبَّوه به في حياته، لرفضه! فلم يكن عليٌّ في حاجة لمزاحمة الفاروق عمر بن الخطاب على لقب يشتهر به. بل ويعمد الشيعة إلى تمييز علي بن عمر بصيغة التفضيل. فهذا فاروق، وذاك فاروق أكبر!

-----

وإن كان لبعض حُكَّامنا الفُدَّامِي ألقاب، فلبعضهم المُعاصِر نياشين وجوائز وميداليات! يَحْكُم رؤساء وملوك العرب عقودًا من الزمان، ويحمي العالم من حَوْلهم مَصَالِحِه الخاصة، فيحرص أكثر منهم على بقائهم في سُلطة الاستبداد فوق رؤوس العباد.

أحدهم، حَكَمَ بِلَدِه 29 سنة. وعزلوه قبل أن يكمل الثلاثين. تتأمل جوائزه ونياشينه، فتحتار فيه، ما إن كان نِصْفِ إلهٍ أو إلهًا

كامل الأوصاف. وإليك بعض ما ناله الرجل من تكريم دولي:  
الوشاح الأكبر لميدالية الصليب العظيم من إيطاليا 1982. جائزة  
رَجُل العام من المعهد الدولي في باريس 1983. الوشاح الأكبر  
لميدالية الكريزانتيم الرفيعة من اليابان 1983. ميدالية هنري  
الصغير من البُرتغال 1983. نوط من الدرجة الأولى لميدالية  
العَلم القومي من كوريا الديمقراطية 1983. جائزة رَجُل العام من  
مجلس التضامن الهندي 1984. وسام الصليب الأعظم من ألمانيا  
الفيدرالية 1985. ميدالية سارة فم السويدية 1986. وشاح فنت  
الدانمركي 1986. نوط جامعة كومبتيوتينس الإسبانية 1989.  
جائزة حقوق الإنسان الديمقراطية من مركز الدراسات السياسية  
والاجتماعية بباريس 1990. عضوية وسام هونوريس كوزا الدولي  
من المجلس الأكاديمي المكسيكي للقانون الدولي 1991. جائزة  
الأمم المتحدة 1994. دكتوراه شَرَفية بالإقرار بدوره الإقليمي  
والعالمي من بُلغاريا 1998. دكتوراه شَرَفية من جامعة جورج  
واشنطن 1999. دكتوراه شَرَفية من جامعة سانت جونس 1999.  
دكتوراه شَرَفية من جامعة بكين 1999. جائزة الأفروآسيوية من  
أجل السلام 2002. جائزة جواهر لال نهرو للتفاهم الدولي  
2002. درع اتحاد المُستثمرين في أفريقيا 2004. وسام جوقة  
الشرف من درجة قائد أكبر من اليونان 2007. جائزة ماستر من  
منتدى السلام المُتوسّطي 2008!

والآخر حَكَمَ وطنه ثلث قرن من الزمان، ثم فرَّ من عاصمة  
مُكِهِ للعلاج لدى الجيران، ثم عاد في ظروف غامضة، قبل أن  
يتنازل لنائبه. ومثل زميله الأول، ثَقَلَبَ في نياشينه وتكريماته،  
فنتدهش كيف قَدَّرَه العالم إلى هذا الحَدِّ: قِلادة الاستقلال أعلى  
وسام قطري تَقْدِيرًا لمواقفه القومية المُشْرِفة وِخْدَمَة قضايا الأمة  
العربية 2000. وسام الشاعر خوسيه مارتية أعلى وسام في كوبا  
2000. الدكتوراه الفخرية في الفلسفة من جامعة تشوسن بكوريا  
الجنوبية 2002. وسام الفارس الأعظم لـ فرنسيس الأول من  
الدرجة الأولى وهو أعلى وسام للمقام البابوي تكريمًا لدوره في  
تحقيق الوِخْدَة اليمينية وخدمة السلام الإقليمي والعالمي ونشر قيم  
التسامح والحوار بين الأديان والحضارات وإشاعة روح المَحَبَّة لما  
فيه خير ورخاء الإنسانية 2004. الميدالية المئوية للقيفا تَقْدِيرًا  
لدوره في رعاية الحركة الرياضية والنهوض بها في اليمن 2004.  
وسام مُنْتَدَى الأديان الثلاثة في بريطانيا تَقْدِيرًا لدوره من أجل  
تعزيز حوار الحضارات وتكريس ثقافة التسامح والاعتدال والتعايش  
السِّلْمِي 2004. وسام حوار الحضارات من مركز مجد روسيا  
القومي تَقْدِيرًا لدوره في تَبْنِي التواصُل بين الحضارات 2004.  
وسام كوريا العظيم أرفع وسام كوري يُمنَح لِرُعَمَاء الدول في سبيل  
تطوير علاقات الصداقة بين البلدين الصديقين 2005!

• • • • •



ذات يَوْمٍ، كان جحا جالسًا مع ملك النتار الجبَّار تيمورلنك.  
فحدّثه تيمورلنك قائلاً: "إنَّ ألقاب العرب تلك التي فيها اسم الله  
مثل الواثق بالله والمنتصر بالله تعجبي بشدة، فهلاًّ اخترت لي  
اسمًا مثل ذلك يا جحا؟" فكَرَّ جحا مليًّا، ثم نظر إلى ملك النتار،  
وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وقال: "أُبشِرُ يا مولاي. لقد  
وَجَدْتُ لك اسمًا مُناسِبًا... العياذ بالله!"

تُرى لو عاش جحا بيننا اليوم، فأَيُّ الأسماء يختار؟؟  
أستغفر الله أجازك الله حسبي الله استعنا على الشفا  
بالله... ولا حول ولا قوة إلا بالله!

### فضيلة الفضول (3)

الفضول هو قتيلة شَمْعَة التعلُّم.

الكاتب الأمريكي ويليام آرثر وارد

ولولا الفَتِيلَة لما أضاءتْ شَمْعَة، ولما احترقتْ في سبيل المعرفة. لولا الفَتِيلَة لدخل الطلاب معالهم وفصولهم، وخرجوا منها حميرًا يحملون أسفازًا، لأن الذين لا يسألون ولا يعترضون ولا يناقشون، هُم بالضرورة الذين لا يعلمون أو يتعلَّمون!

العام 1737، شهد حَدَثًا نادرًا.

ففي 2 مارس 1737، وبعد 95 عامًا من وفاة الإيطالي الفَذِّ جاليليو، نَقَّرَزَ نقل رُفاته في احتفالٍ مَهيبٍ إلى مَدْفَنٍ كبير في سانتا كروتش بفلورنسا، وتشييد صَرْحٍ عظيمٍ فوق لَحْدِهِ. وكان جاليليو قد دُفِنَ في رُكْنٍ مُتواضعٍ من كنيسةٍ جانبيةٍ بغير جنازة رسمية ودون السماح له بالدفن في مقابر الأسرة بأمر من الكنيسة في روما. وفي اعتذار تاريخي شهير، تَحَلَّتْ الكنيسة عن اعتبار كُتُبِه المنشورة في 16 مُجَلَّدًا مُحَرَّمَة، وسمَحَتْ بنشرها وتداولها.

رُبَّمَا يعرف الجميع قِصَّةَ جاليليو المُولود في 18 فبراير 1564 في بيزا، في اليوم نفسه الذي تُوفِّي فيه مايكل أنجلو في روما!... فقد كان الزأي العام بقيادة الكنيسة يقول بأنَّ الأرض كي

تدور لكائنات بحاجة إلى ملاك في مركزها كي يُحَرِّكها! وعندما ثار قومه ضده لإصراره على مبدأ دَوْران الأرض وعلى صِحَّة النظام الكوبرنيكي نسبة إلى البولندي كوبرنيكوس، سافر إلى روما؛ ليُقدِّم التماسًا للكنيسة الكاثوليكية؛ كي تعترف بما توصل إليه العُلم الحديث. وخطبها: "إنني لا أؤمن أنَّ الإله نفسه الذي متَّحنا الحواسِّ والعقل والإدراك، لا يسمح لنا أن نستعملها!... إن الإنجيل يقول لكم كيف تدخلون الجَنَّة، لكنه لا يقول كيف هي السماء!" فقدموه للمحاكمة، التي حكمت بهزطقتة ومُخالفته الصريحة للكتاب المُقدَّس، على أن يتمَّ سجنه ويقوم على سبيل التكفير عن ذنوبه بقراءة مزامير النَّدامة مرَّة كلَّ أسبوع لمُدَّة ثلاث سنوات متواصلة!

تَبَّرًا جاليليو من آرائه وأكَّد أنَّ إيمانه لا يتزعزع وأنه يلعن الهزطقات التي نطق بها وبمقتها. وأنه سيبلغ عن كلِّ هزطوقي يُرَدِّد مثل هذه الخُرْعِبات في مُقبل الأيام! وعاش بعد ذلك في بيته سجينًا منبوءًا ممنوعًا من استقبال أصدقائه. ثم فقدَ بصره وهو يُرَدِّد في يأس: "إنَّ هذا الكون، وهذه الأرض، وهذه السماء التي كبرت أبعادها مئات ألوف المرات أكثر مما اعتقده حُكماء العصور السابقة، بمُساعدة ما قدَّمْتُ من براهين واضحة، قد بات مقصورًا بالنسبة لي، على الفضاء الصغير الذي تملأه حواسي الجسمية". ومات وهو يهذي في إصرار مكتوم: ولكنَّها تدور!

كان **جاليليو** كائنًا فضوليًّا من الدرجة الأولى. وكان غزوه للسماء بتلسكوبه الشهير راجعًا إلى تلك الخِصْلَة الحميدة التي تُمَيِّزُ العلماء: حُبُّ الاستطلاع. فتقول كُتُبُ التاريخ أنَّ صانع النظَّارات هولندي يُدْعَى **هانز ليبرشي** قد أمسك بعَدَسَتَيْن ووضعهما مُتوازيتَيْن، وعندما نظر من خلالهما إلى قُبَّةِ كنيسة قريبة، وجد القُبَّةَ وكأنَّها على بُعْدِ أقدام منه. ابتسم الصانع لاكتشافه، وطاف يُكْرِزُ حكايته على أهل بلدته. وبعد أسابيع، بَلَغَتْ القِصَّةُ مَسَامِعَ **جاليليو** في إيطاليا، فراح يبحث في مَحَلَّاتِ بيع النظَّارات في مدينته، حتى عثر على العَدَسَاتِ المطلوبة، وصنَّع أوَّلَ تلسكوب بوضع العَدَسَتَيْن في الطرفين المُتقابلَيْن لأنبوب من الرصاص... وكان هذا هو الفارق بين صانع النظَّارات الذي لم يُفَكِّرَ فيما هو أبعد من ذلك، وبين **جاليليو** الذي فَكَّرَ فيما هو أعلى من ذلك!

-----

في العام ذاته الذي اعتذرت فيه الكنيسة لـ **جاليليو**، 1737، كان إيطالي آخر قد وُلِدَ في مدينة بولونيا، لينال نصيبه من العلوم والمعارف... إنه أستاذ الفيزياء في جامعة بولونيا **لويجي جالفاني**، الذي اكتشف مُصادفةً أحد آثار التيار الكهربائي وهو أثر الكهرباء على الخلايا الحيَّة. ففي 1780 كانت امرأته المُصابة بداء السِّلِ مُلْزَمةً باتِّباع نظام تغذية خاص. وكان يُعَدُّ لها يوميًّا الطعام المطلوب. وذات يَوْمٍ، وبينما كان يُعَلِّقُ فَخْذَيَّ ضَفْدَعٍ بعد غسلهما

بكلّابات نحاسية على قضيب حديدي، لاحظ أنّ قَدَمَي الضُّفدع تتحرَّكان، كَمَنْ تعرَّض لصدمة كهربائية. فاعتقد أنه قد حرَّض الكهرباء المُنبثقة عن الدماغ والموجودة في الأعضاء. ومع أنه أخطأ في تفسير التجارب واستخلاص النتائج، إلا أنه أرسى قواعد الفيسيولوجيا الكهربائية.

أمّا زميله أليساندرو فولتا أستاذ الفيزياء بجامعة بيزا، فقد اعترض على استنتاج جالفاني. وافترض أنه يكفي جعل معدنين مختلفين يَحْتَكَّان؛ لينشأ تيار كهربائي دون أن يكون للضُّفدع وعضلاته دخل في المسألة. وقد أدّى هذا الخلاف العلمي الراقى، والذي على أثره ابتكر فولتا مُصطلح الجلفانية، تَقْدِيرًا لصديقه الذي فارق الحياة قبل أن يصل فولتا إلى اختراعه بعامَين، وكناية عن التيار الكهربائي المباشر الناشئ بفعل كيميائي، إلى صُنْع أوّل بطارية كهربائية بمعرفة فولتا. حيث قام بإمرار تيار كهربائي خلال سلك بَعْمَس قضيبين من معدنين مُختلفين في محلول ملحّي. ومثلت بطارية فولتا أوّل مولد لتيار كهربائي من صُنْع الإنسان... دخل فولتا التاريخ، ودخله جالفاني. ولعب الفضول دوره المُعتاد في الكشف عن عطايا الله للإنسان من علوم تسهّل عليه الحياة، ومن عقول تجيد الربط والاستنباط.

يبقى أن نحَيِّ جالفاني بشأن أمر لا دخل له بالفيزياء والكيمياء، ولا علاقة له بالبطارية والكهرباء. كُلُّ التحيّة للعالم الإيطالي المرموق على رعايته لزوجته المريضة، وإعداد الطعام اليومي لها. فإن كانت الجلفانية معروفة لأرباب الفيزياء الحديثة، إلا أن الجلفانية الإنسانية لا تغيب عن كُلِّ ذي فطنة. فمهما علا شأن العالم، ومهما شغلته أبحاثه، يبقى دوره كراعٍ لأسرته أهمّ أدواره وأروعها أثرًا!

-----

التربية الحقّة هي فن إيقاظ الفضول الطبيعي في عقول الصغار، لإشباعه في وقت لاحق.

الروائي الفرنسي أناتول فرانس

ولا نعرف الكثير عن طفولة العلماء والفلاسفة، ولا من أيقظ فضولهم في عقولهم، لكننا نعرف بالتأكيد كيف أشبعوه لمّا كبروا!

تخرّج ألكسندر فليمنج المولود بإسكتلندا في 1881 من كُليّة الطب بلندن بامتياز في 1906. وتخصّص في العلوم البكتريولوجية مُنشغلًا بدراسة التعقيم، حائزًا على عضويّة الجمعية الملكيّة للجراحين، حاضيًا بالأستاذيّة في الجامعة.

لدى التحاقه بالجيش مع بدء الحرب العالمية الأولى، شاهد عن قُرب الآثار المدمّرة للعقاقير المُستخدمة لتطهير الجروح التي كانت

تؤدي الخلايا أكثر ممّا تؤذيها الميكروبات نفسها. وآلمه عذابات الجرحى ووفاة معظمهم نتيجة تلوّث إصاباتهم وانتقال العدوى. فعكف على مواصلة أبحاثه، محاولاً الظفر بمُضادّ للبكتيريا غير مؤذٍ للجسم البشري. وبعد ثلاث سنوات من انتهاء الحرب تقدّم في أبحاثه وتوصّل إلى مادّة أطلق عليها اسم لاسوزيم يفرزها الجسم. لكنّها لم تكن فعّالة في القضاء على الميكروبات الضارّة. واستمرّ فليمنج في جَلِّده وصبره ومثابرتة، حتى ساهمت الخلطة السحرية إياها المكوّنة من قانون الصّدفَة المُستحقّقة، المدعومة بفضيلة الفضول الإيجابي، في الظفر بواحدٍ من أهمّ مُنجزات القرن.

وصَلنا إلى 1928، حيث كان فليمنج يجري أبحاثاً في معمله على بعض الفطريات. ثم لاحظ أنّ الطبق الذي يحتفظ فيه بالبكتيريا ليُتاح له تتبّع مراحل تكاثرها، قد طاله العفن بعد أن تركه مُعرّضاً للهواء. وبدلاً من أن يلقي به في أقرب صفيحة زبالة، دفعه فضوله أن يفحصه تحت المِجهر؛ ليعرف سرّ العفن. فوجد أنّ مساحة العفن الخضراء قد خلّت تماماً من البكتيريا التي كانت تشغل باقي الطبق. بل كانت البكتيريا تدوب حول فطريات العفن وتُصاب في مقتل، الأمر الذي دفعه إلى الاستنتاج بأنّ الفطريات تفرز مادّة قاتلة للبكتيريا. وبالبحث، اكتشف أنّ العُصن الأخضر المُسمّى بنسليوم نواتم يفرز في أثناء نموه مادّة تمنع تكاثر البكتيريا وتبطل مفعولها. وسرعان ما أطلق على هذه المادّة اسم

البنسلين، وتأكّد بالتجربة بأنّها لَيْسَتْ سامةً للإنسان أو الحيوان... نشر فليمنج أبحاثه في 1929، ولم يلتفت إليها أحدٌ في أوّل الأمر. لكنّه صرّح في الدوائر الطبيّة أنّ اكتشافه من المُمكن أن تكون له فوائد مُذهلة في المُستقبل. غير أنّه لم يستطع أن يبتكر طريقةً تساعده على استخلاص البنسلين أو تنقيته من وسط العفن.

ثم جاء الفرج في العام التالي على أيدي اثنين من الفضوليين، الباحثين الأسترالي هوارد فلوري والألماني إرنست تشين. إذ اطّاعا على بحث فليمنج بشأن البنسلين، وتحمّسا لإعادة محاولة استخلاصه. وبعد عشر سنوات من التجارب، تمكّنا أخيراً من استخراجهِ وتجربته على حيوانات المعمل. وفي 1942 بدأ استخدامه بخدرٍ على المرّضى، بمساعدة زوجة فلوري الطبيبة، وأثبتت نجاحاً مُبهراً... وسرعان ما أُبذت حكومتا بريطانيا وأمريكا اهتمامهما البالغ بالعقار الجديد، خاصة مع اتّساع نطاق الحرب العالمية الثانية، واشتداد الحاجة إلى مُضاد فعّال للجروح. فتسابقت الشركات الطبيّة في الدولتين على استخلاص البنسلين بكميّات ضخمة ووسائل أقلّ تعقيداً. وبدأت في إنتاج نصف طن شهرياً وطرحه في الأسواق العالمية؛ ليستفيد مُصابو الحرب، ويصبح في مُتناول المدنيين قُبيل انتهاء الحرب في 1945. أنقذ البنسلين باكتشافه في التوقيت الرائع حياة عشرات الألوّف من البشر. كما وجدوا له فاعليّة في علاج الزُّهري والدفتيريا والغرغرينة والسُّلّ.



وفي 1944 أنعمَ ملك بريطانيا جورج السادس على فليمنج وفلوري بلقب سير. الأوّل لاكتشافه البنسلين، والثاني لجعله عقارًا ذا مفعول مُثْمِر. ثم حصدا معًا مكافأة الامتياز من الجمعية الأمريكية لصانعي العقاقير، ثم حاز فليمنج على تقدير البابا بيوس الثاني عشر الذي أثنى عليه على المأ لتقديمه خدمة جليلة للبشرية. وفي 1945 حصل الثلاثي فليمنج وفلوري وتشين على جائزة نوبل في الطبِ مُتَوَجِّين جُهْدًا جبّارًا على امتداد 16 عامًا. فلا كان الباحثان سينجحان في استخلاص البنسلين، لولا اكتشافه على يد فليمنج. ولا كان فليمنج سيستفيد باكتشافه، لولا نجاح الباحثين في تيسير استخدامه!... واعتبارًا من أربعينيات القرن العشرين، صار البنسلين بمثابة صفحة جديدة في تاريخ الطبِ البشري، كمطهر قوي مضمون النتائج خالٍ من الأعراض الجانبية، مُساهمًا في إنقاذ حياة الملايين عبْر العقود.

وفي إحدى لحظات التَّمَنُّع بشهوة النجاح المُنْقَطِع النظر، نَظَرَ فليمنج إلى الوراء في ارتياح، ثم قال في سخرية عالم متواضع: "لو كان مُختبري في رُوعة المُختبرات النظيفة الحديثة التي رُزتها، لما كُنْتُ قد اهتديتُ إلى البنسلين قط!"

رحم الله السير ألكسندر فليمنج الذي أنقذه فضوله من الفشل في تحقيق مُبتغاه، وأنقذنا فضوله من جروح لا تَبْرأ وعدوى لا تَهْدَأ!

### قاف قاف! (3)

ثمانية قرون، إحدى عشرة محاولة حصار، منذ عهد عثمان وحتى سلاطين آل عثمان! وظَلَّتْ عَصِيَّةً هي، حتى جاءها هو!

هو محمد الثاني الشهير بـ الفاتح المولود في 1432، المُنَوَّلِي الحُكْم حَقًّا لأبيه مراد الثاني... وكي يفتح القُسطنطينية، فقد أقدم على ما لم يفعله أحد في حِطِّ الحروب قط! لم يفتحها لأنه أمر بصبِ مدافع عملاقة لا مثيل لها في العالم، أو لأنه دَرَسَ كُتُب الحِجَل الميكانيكية وعكف مع عُلمائه على ابتكار منجنيق هائل، أو لأنه أنشأ أربعة أبراج مُتَحَرِّكة وأوَّل مدفع هاون في التاريخ!... بل فَتَحَهَا بأعزب تَمُوِه عسكري وأعجَب فكرة عِلْمِيَّة تشهدُها البشرية! فقد وَصَلَ بِسُفُنِهِ إلى مَضِيق البوسفور، ووجد البيزنطيين قد سدَّوه بسلاسل ضَخْمَة تمنعه من المرور. فأتَّخَذَ قرارًا مُثِيرًا بأن سَحَب سُفُن أسطوله إلى البَرِّ، وقام بنقلها على ألواح خشبية ضَخْمَة مدهونة بالزيت والشحم لمسافة 3 كم على أرضٍ يابسة غير مُمَهَّدة، وصعدَ بها قِمَّةَ الجبل، ثم هبط بالأسطول إلى البحر من وراء السلاسل، ليواجِه عَدُوَّهُ بحركة التَّنَافِ عبقريَّة! ثم رَحَفَ بجيشٍ جرَّارٍ فاق رُبع مليون مُقاتِل، تَصَحَّبَهُم المَدافع، مُفْتَحِمًا أسوار المدينة المنيعَة، مُتَّخِذًا عاصمة لدولته، مُطلقًا عليها إسلام بول، أي دار الإسلام، وهي ما تغيَّرَتْ لاحقًا إلى إسطنبول.

ومن الجدير بالذكر أنَّ أهمَّ أهدافه بعد فتح القُسطنطينية، كان فتح روما! وبدأ بالفعل في الإعداد لذلك، مُسقطاً عدداً من المُدن والقلاع في الطريق، مُتمكِّناً أثناء سنوات حُكمه الثلاثين من قيادة 25 معركة حربية ناجحة، مُضاعفاً مساحة الدولة العثمانية ثلاث مرَّات... وأخيراً يَدُسُّ له أحدُ أطبائه السَّمَّ في الطعام، وهو على مشارف شبه الجزيرة الإيطالية؛ ليلفظ أنفاسه في ربيع 1481، وتلتقط أوروبا أنفاسها. ويأمُرُ البابا سيكتوس الرابع بإقامة صلاة شكر ثلاثة أيام ابتهاجاً بالنبأ السعيد!

وكمهَدِّنا بصلاح الدين، لن يفوتنا أن نذكر نشأة محمد الفاتح مُتتلمذاً على أيدي مجموعة من كبار عُلماء عصره مثل الشيخ آق شمس الدين والشيخ الكوراني. وهو ما أعانه على دراسة العلوم الشرعية وقراءة كُتُب التاريخ والرياضيات والحرب والفلك والصيدلة. كما تَمَكَّن من إتقان سبع لغات هي: التركية، الفارسية، العربية، اللاتينية، اليونانية، الإيطالية، والصربية، الأمر الذي مكَّنه بعد تولَّيه الحُكم من التباحث مع سُفراء البعثات الدبلوماسية الأجنبية دون الاستعانة بمُترجمين. وقد وصف محمد شيخه آق شمس الدين قائلاً: "احترامي لهذا الشيخ الجليل غير اختياري. أنفعل عنده. تَهتَرُّ يدي بين يديه. أمَّا باقي الشيوخ، حينما يأتون إليَّ تَهتَرُّ أيديهم بين يدي". وكان آق أستاذاً مهيباً لا يخشى سوى الله. يأتي السُلطان لزيارته، فلا يقوم له، بينما يذهب هو لزيارة السلطان،

فِيهِبُ وَاقْفًا تَوْقِيرًا لَهُ، حَتَّى يُجْلِسَهُ بِجَانِبِهِ. وَقَدْ لَقَّبَهُ الْمُؤَرِّخُونَ بِـ  
"الْفَاتِحِ الْمَعْنَوِيِّ لِلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ"! كَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إِغْفَالُ أَنَّهُ كَانَ مَنْ  
أَقْنَعَ الْفَاتِحَ مِنْذُ طُفُولَتِهِ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ: "لَتُنْفَخَنَّ  
الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ

كَمَا عُرِفَ الْفَاتِحُ بِرِعَايَتِهِ لِلْحَضَارَةِ وَالْأَدَبِ. وَكَانَ شَاعِرًا مُجِيدًا  
لَهُ دِيْوَانٌ، قَامَ الْمُسْتَشْرِقُ الْأَلْمَانِي ج. ياكوب بَنْشَرَه فِي بَرَلِين  
1904. وَكَانَ دَائِمَ الْمُطَالَعَةِ، مُصَاحِبًا الْعُلَمَاءَ، مُصْطَفِيًا بَعْضَهُمْ  
فِي الْمَنَاصِبِ. وَمِنْ شِدَّةِ وِلْعِهِ بِالشِّعْرِ، عَهَدَ إِلَى الشَّاعِرِ شَهْدِي  
تَأْلِيفَ مَلْحَمَةٍ تُمَجِّدُ التَّارِيخَ الْعُثْمَانِيَّ عَلَى غِرَارِ الشَّاهِنَامَةِ الَّتِي  
نَظَّمَهَا الشَّاعِرُ الْفَرْدَوْسِيُّ لِتَمْجِيدِ الْفَرَسِ. وَكَانَ يُقَدِّمُ رَائِيًا سَنَوِيًّا  
لِلشُّعْرَاءِ فِي الْهِنْدِ وَفَارِسَ اسْتِحْسَانًا لِمَا يَكْتُبُونَهُ، دُونَ انْتِظَارِ  
لِقَاصِدَاتِ نِقَاقٍ. وَكَانَ إِذَا سَمِعَ بِعَالِمٍ، جَدًّا فِي أَثَرِهِ لِاسْتِقْدَامِهِ وَإِعَانَتِهِ  
عَلَى أبحاثِهِ، مِثْلَمَا فَعَلَ مَعَ الْفَلَكي السَّمَرْقَنْدِي. وَاهْتَمَّ بِبِنَاءِ  
الْمَدَارِسِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ، وَجَعَلَ التَّعْلِيمَ وَالْعِلَاجَ بِالْمَجَّانِ.  
وَكَانَ يَشْرَفُ عَلَى تَطْوِيرِ التَّعْلِيمِ، وَيَضَعُ بِنَفْسِهِ الْمَنَهِجَ  
وَالْإِمْتِحَانَاتِ، بَلْ وَيَحْضُرُ دُرُوسَ الطُّلَبَةِ فِي زِيَارَاتٍ مُفَاجِئَةٍ،  
وَيَجْلِسُ بَيْنَهُمْ لِسَمَاعِهَا!

كَانَ مُحَمَّدُ الْفَاتِحِ نَمُودَجًا لِلْقَائِدِ الطَّمُوحِ، الْمُتَطَلِّعِ لِمَا خَلْفَ  
أَسْوَارِ الْمُدُنِ وَالْقَلَاعِ، الشَّغُوفِ بِمَا وَرَاءَ آفَاقِ الْعُلُومِ وَالْأَدَابِ!

### حلوة يا بلدي (3)

جَوْلَتْنَا هَذِهِ الْمَرَّةَ مَعَ بَحَارٍ وَمُدُنٍ وَقُرَى وَأَحْيَاءٍ وَتَوَارِيخٍ وَطَرَائِفَ تَرْتَبِطُ بِأَسْمَاءِ ذَاتِ أَصُولٍ تَحْتَاجُ لِقَلِيلٍ مِنَ النَّبِشِ وَالنَّكْشِ!

**البحر الأحمر** له اسم إغريقي هو سينوسي أرتويوسي. ومنه اشتُقَّ اسم أريتريا المُشْرِفَةَ عَلَيْهِ وَالْمُسْتَقَلَّةَ عَنِ إِثْيُوبِيَا فِي 1993. وَكَذَلِكَ اسْتَهْرَ بِبَحْرِ الْقُلُزْمِ. وَالْقُلُزْمَةُ ابْتِلَاعُ الشَّيْءِ. وَسُمِّيَ الْقُلُزْمُ لِأَلْتِهَامِهِ فِرْعَوْنَ وَجَيْشِهِ أَثْنَاءَ مُطَارَدَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ. وَجَمَعَ الْمَصْرِيِّونَ كُلًّا مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْمَتَوَسِّطِ تَحْتَ اسْمِ "وَاخ وَرْت" أَي الْأَخْضَرِ الْعَظِيمِ. وَافْتَقَرَ الْأَحْمَرُ إِلَى مَوَانِي، حَتَّى شَبِّدَ مِيْنَاءَ طَوَا أَوْ الْقُصَيْرِ حَالِيًّا فِي عَهْدِ مَنْتُوْحَتَبَ قَبْلَ 4 أَلْفِ سَنَةٍ. أَمَّا التَّسْمِيَةُ بِالْأَحْمَرِ، فَلَهَا أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ: الطَّحَالِبُ الطَّافِيَةُ ذَاتِ الصَّبِيغَةِ الْحَمْرَاءِ وَالَّتِي يَنْعَكِسُ ضَوْءُ الشَّمْسِ عَلَيْهَا أَثْنَاءَ الْغُرُوبِ. وَجُودُ سِلَاسِلِ جَبَلِيَّةِ حَمْرَاءِ دَاكِنَةٍ عِنْدَ شَوَاطِئِهِ، مُتَّقِيَةٌ بِظِلَالِهَا عَلَى سَطْحِهِ. وَكَذَلِكَ قَرْصِيَّةٌ أَنَّ الْاسْمَ قَدْ أَتَى مِنْ قَبِيلَةِ جِمَيْرِ الْيَمِينِيَّةِ.

**البحر المتوسط** هو بحر الروم أيام سطوة الرومان على العالم القديم. وباللاتينية Mediterraneus أي في وسط الأرض. وعند قدامى العرب هو البحر الشامي. وفي لغات أوروبا هو البحر المتوسط لتوسطه القارات الثلاث. ولدى الأتراك هو البحر الأبيض

لكثرة زَيْدِ أمواجه ورِغَاويه التي تكسب صخوره بياضًا ظاهرًا. وهكذا اتَّحد اسمه لَدَى العرب تحت عنوان البحر الأبيض المُتوسِّط!

لكثيرٍ من مُدُننا أصولٌ فرعونية وقبطية. ومن الثابت أنَّ الإغريق دخلوا مصر، فَوَضَعُوا لِمُدُنِهَا أسماء غير أسمائها بترجمتها أو تحريفها. ومن الثابت كذلك أنَّ الأسماء اليونانية لم تَكُنْ شائعة بين المصريين. واقتصرَتْ على كُتُبِ المُستعمرين. ومن الثابت أخيرًا أنَّ العرب الذين قهروا البيزنطيين، لم يقترَبوا من أسمائنا، وأنصَهَرُوا مع الأقباط، وساد الإسلام دون عِبَتِ بالتُّراث، لا على مستوى المعابد الفرعونية أو الكنائس القبطية ولا فيما يَخُصُّ الأعياد والعادات، ولا أسماء المُدن. لم يفعلوها لأنَّ الإسلام أكبر من المظاهر وأسمَى من الصغائر ولا يُقْتَسَمُ في الضمائر! بل إنَّ أحمد كمال باشا أوَّل مصري يُعَيِّنُ مُديرًا للمتحف المصري جَمَعَ 13 ألف كلمة مصرية دَخَلَتْ العربية. وسنشير إلى بعض الأماكن المُرتبطة بِحَدَثٍ أو طُرْفَةٍ، بَعْضِ النظر عن أصلها.

**حلوان** لم تهنأ حلوان طويلاً بوضعها الأدبي كُمحافظة. لكن حلوان التي فقدت لقبها كُمحافظة، لا تقلُّ مكانةً عن سائر المُحافظات... في اللغة، الخُلوان بضمِّ الحاء هي الهبة، والحلوان أن يأخذ الرجل من مهر ابنته لنفسه، وربما يعود أصل تعبير حلوانة في سلوانة إلى شىءٍ من ذلك! أمَّا حلوان، فهي مدينة

فرعونية ضاربة في جذور التاريخ، حتى أنّ أوّل سدّ مائي معروف أنشئ بوادي خوف في عصر ما قبل الأسرات. وفي عهد الرومان عاد الاهتمام بها، واسمها في أيّامهم لبيان ومعناها الحمام. وتتبدّل أحوالٌ وأجيالٌ، وتظهر حلوان مُجدِّداً على المسرح بنهاية القرن السابع، عندما قرَّرَ والي مصر الأموي عبد العزيز بن مروان أن يرحل عن الفسطاط مُتَّجِهاً جنوباً لانتشار الطاعون بالعاصمة. ووقع اختياره على أطلال مدينة لبيان. فأمر بإعادة تخطيطها واتّخاذها عاصمة مؤقتة. وأنشأ فيها القصور وعُرس البساتين... وقبل اتّخذت اسمها من حلوان العراقية المُشتهرة بمياهها الكبريتية وحدائقها المُثمرة... وفي حلوان تَرَى أحد أعظم مُسلمي كلِّ العصور، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز بن مروان!

**الجَمَالِيَّة** تعود التسمية إلى بدر الدين الجَمَالِي وزير الخليفة الفاطمي المُستنصر بالله. وكان مملوكاً أرمنيّاً اشتراه والي دِمَشق. ثم دارت الأيام، حتى صار هو نفسه والياً على دِمَشق ثم عكا. وتزامن صعود نجمه مع واحدةٍ من أكبر مجاعات مصر في التاريخ، وتلاها طاعونٌ أطاح بثُلث سُكّانها! وسادت الفوضىّة بزعامة الأمراء المغاربة والأتراك، ولم يبقَ أمام الخليفة سوى الاستعانة بوالي عكا المعروف بالشدّة والقُدرة على فرض النظام. وصل الجَمَالِي وجنوده إلى القاهرة في تَكَنُّم شديد. فنزل هو في حارة برجوان، وأقاموا هُم في القليوبية. ثم فكَّر في مكيدة للتخلُّص

من مُشعِلِي الفِتْن. فبعث إليهم برسائل يرجو فيها دَعْمهم لبطشه بالمُفسِدِين! ثم دَعَاهم لوليمة على شَرَف التعاون المُرتَقِب. وكَلَّف كُلَّ جُنْدِي لديه بقتل واحدٍ من الأُمراء لدى انصرافه. ففُطِعَتْ رؤوس أُمراء الفساد وأُرْسِلَتْ في شِوَالٍ عَظِيمٍ إلى الخليفة الذي أُنْعَمَ عليه بالوزارة ولَقَبَهُ بـ السَيِّدِ الأَجَلِّ أمير الجيوش ناصر الإمام المُستَصرِي! فاستَهَلَّ الجَمَالِي وزارته بإعادة الانضباط للقاهرة، وزيادة رُفْعَتِها وبناء ما تَهَدَّم. وقام بإصلاحات إدارية واقتصادية، واخْتَنَمَ أعماله بتشييد ثلاثة أبواب لم تَزَلْ شاهِدة على التاريخ: باب الفتح، باب النصر، وباب زويلة... وبوفاته، أطلق المصريون اسم الجَمَالِيَّة على الحَيِّ الذي نزل فيه أوَّل ما نزل بمصر.

**الدرب الأحمر**      وليس الاسمُ إلا تحريفًا لـ الدم الأحمر! وأمَّا الدم، فدماء المماليك التي سألت أنهارًا في مذبحه القلعة الشهيرة، في سيناريو اقتبسهُ محمد علي من بدر الجَمَالِي!

**ميدان لاطوغلي**      اسمه: محمد لاطاغ أوغلي. وظيفته: كتحدا مصر، أي رئيس وزراء. هو الرجل الثاني لـ محمد علي مُنْذُ 1810 وحتى وفاته في 1827. له بصمة واضحة في ترسيخ مفهوم الدولة الحديثة. فأنشأ المؤسسات الحكومية، وثبَّت أقدامها. وأعاد الاستقرار بعد عقودٍ من الفوضى. وكان له أسلوب خاص في تَتَبُّع المؤامرات وعمليات السطو. فكان أعوانه يَتَخَفُّون في أزياء



باعة جائلين، ويترددون على المقاهي والبيوت. ويُدَوِّنون ما يسمعون في تقارير، ويلقون بها في فتحة من باب بيت يُعْرَفُ ببيت قفطان. وكانت تقيم في البيت سيِّدة تجيد العربية والتركية، هي مُعَلِّمة محمد علي للُغَتَيْنِ مَعًا! ولم يَكُنْ الأعوان يعلمون لمن يكتبون التقارير، ولم تَكُنْ السيِّدة تعرف مُرْسِلِيهَا! وفي صباح كُلِّ يوم، تفتح السيِّدة التقارير وتُلَخِّصُهَا، وقبل الظُّهُر يرسل الكتخدا لها بغلة تحملها إلى القلعة، فنقرأ عليه المُلَخَّصات التي يبني عليها خَطُّه الأمنية لحِفْظِ الحَاكِمِ والمَحْكُومِ!... لكن أعرب ما يُمَيِّز ميدان لاطوغي في وسط البلد هو التمثال نفسه! إذ عَزَمَتِ الحكومة في عهد إسماعيل على صُنْعِ تماثيل لعدَدٍ من الشخصيات البارزة في مطلع القرن. ولمَّا لم نَعْنُرْ الحكومة على أيَّة صورة ل لاط أُوغلي، فقد كَفَّفَتْ مُحَافِظُ القَاهِرَةِ الدرمللي باشا بأن "يتصرَّف"! لَفَّ الباشا على أسرته ومعارفه، ولم يَجِدْ له صورة قط. وفي يَوْمٍ، كان الدرمللي يسير مع ثابت باشا وزير المعارف في خان الخليلي. فوقع نظر الوزير على سَقَّا يجلس في رُكْنٍ من الخان، فَتَسَمَّرَ أمامه. إذ كان يُمَاتِلُ لاط أُوغلي في القَسَمَاتِ بِشكْلِ مُذْهِلٍ. فأمر المُحَافِظُ السَقَّا أن يأتيه بديوان المُحَافِظَةِ في صباح اليوم التالي. وهناك ألبسوه ملابس لاط أُوغلي وقَلَّدوه سَقَّا، وألْتَقَطُوا له صورة! واستُعْمِلَتِ الصورة في نَحْتِ التمثال الذي نراه جميعًا في الميدان أمام وزارة العدل... تمثال محمد لاط السَقَّا أُوغلي!

شبرا.. في اللغة القبطية شبرو أي التل. ومن العجيب أن حَيَّ شبرا الذي نراه اليوم على ازدحامه وسوء تخطيطه، كانت له بداية مُختلفة كُلِّيَّة! ففي عهد محمد علي، أزعجه أن يرى القاهرة محصورة بين المُقَطَّم والنيل في مساحة ضاقَتْ بسكَّانها. فاختار مكانًا قصيًّا؛ كي يبني لنفسه قَصْرًا؛ أَمَلًا في أن يبني الناس من بعده بيوتهم بالقرب من قصره. وكان المكان النائي هو شبرا! ووَصَفَها الأديب الفرنسي نرفال: "زُرْتُ مَقَرَّ والي مصر. وهو مَقَرٌّ جميلٌ في شبرا، جعل منه جَنَّةَ الشرق. أما شارع شبرا فلا مثيل له في العالم!" وكتب عنها القنصل الإسباني تودا: "تُعَدُّ المكان المُفضَّل للنتزُّه للأوروبيين، وهي رائعة محفوفة بأشجار الحور. وفيها تتقابل سيدات القاهرة الأرسقراط يتباهين بخلبهنَّ في عربات تجرُّها الخيول، ويتنَسَّم الهواء العليل ويستمعن إلى نغمات الموسيقى تعزفها فرق قومية". وعندما عيَّن محمد علي مهندسين زراعيين تَعَلَّموا في بعثات أوروبية، وأرسل في استيراد شتلات فواكه لزراعتها في حدائق قصره، حَدَّثَ أن عاد أحدهم من فرنسا حاملاً معه شتلات شجر مُثمِّرٍ غير معروف. وكان اسمه المهندس يوسف أفندي والذي أراد مُجاملة والي مصر بتسمية الفاكهة الجديدة على اسم أحبِّ أبنائه إلى نفسه، طوسون. لكن محمد علي الذي تناول الفاكهة وأعجبته، رفض الاسم، وسَمَّاهَا على اسم الطالب المُجامِل، لِيُزْرَعَ اليوسف أفندي أوَّل ما يُزْرَع في شبرا!

**المنيرة** تُنسب إلى ما يُعرفُ تاريخياً بـ أفرح الأتجال... إذ انطلقت مواكب العُرسِ من مَوْضِعِ الحَيِّ في مُنتصف 1873، والذي ظلَّ مُنيراً لمدَّة 40 ليلة احتفالاً بعقدِّ قران أربعة من أبناء الخديوي إسماعيل، هم: توفيق، حسين كامل، حسن، وفاطمة... على أمينة، عين الحياة، خديجة، وطوسون. وهُم على التوالي أبناء: الخديوي عباس، الأمير أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا ولي العهد المُتوفِّي في حادثِ أتى بـ إسماعيل للحُكم، الأمير محمد علي الصغير ابن محمد علي الكبير، والخديوي سعيد... ولزواج الأمير حسن من الأميرة خديجة واقعة طريفة. فقد أُعجِب الخديوي إسماعيل بذكائها، ووَعَدَها بتزويجها من أحد أبنائه إن أظهرت نبوغاً في تعليمها بالمدرسة التي أنشأها لأميرات البيت العلوي. ثم حدث أن زار المدرسة لتتقدَّ حال الدراسة، فلمَّا وصل إلى خديجة سألتها: "إلى أين بلُغْتَ في حفظ القرآن الكريم؟"، فأجابته بسُرعة بديهية مُدهشة: "واذكُز في الكتاب إسماعيل إنَّه كان صادق الوعد". انفجر الخديوي في الضحك، وأمرَ بإقامة أفرح الأتجال!... ورغم أن الفرح ذاته قد أقيم بسرّاي الجزيرة -الماريوت حالياً- بحضور 5000 شخص<sup>34</sup>، إلا أن المنيرة اقترنت بالحادث السعيد بسبب الاحتفالات المُستمرَّة في مَوْضِعِ الحَيِّ المُقابلِ لحَيِّ جاردن سيتي، حيث قصر الوالدة باشا أم الخديوي إسماعيل والتي انطلقت منها

---

أخيا الحفل عبده الحامولي الذي مهَّد لظهور قوالب الغناء الحديثة بالقرن العشرين.

مواكب الزينة. ويحتفظ شارع القصر العيني المتاخم، بحارة مُتَفَرِّعة منه تُعْرَفُ بـ أفراح الأنجال حيث يقع مبنى روز اليوسف، والتي تغيّرت اسمها مؤخرًا إلى فاطمة اليوسف. أمّا تاريخ المنطقة نفسها، فيعود إلى الحملة الفرنسية في هيئة برك وبيوت مُتَفَرِّعة لأمرء المماليك. ثم نُقِدَ في غيط قاسم بك بالمكان نفسه حُكْم الإعدام على سليمان الحلبي المُتَّهم بقتل كليبر. ثم حَلَّ مَحَلَّ الغيط المعهد الفرنسي وكُلِّيَّة دار العلوم، بعدما عمَّر محمد علي المنطقة وأزال تَلَّ العقارب وزدَمَ البِرْك وعرَسَ أشجار الزيتون.

**بحطيظ** قرية بالشرقية، ويقال دُبِخَتْ فيها بقرة بني إسرائيل.

**صَفَتْ** قرية قُرب بلبيس، ويقال بها يبيعَت البقرة التي ذبحها بنو إسرائيل. وكان بها قُبَّة تُعْرَفُ بقُبَّة البقرة.

**زفتى** مدينة بالغربية، قيل يرجع أصلها إلى زيوس كبير آلهة الإغريق، وينطقونه زِفْس. كما قيل حَلَّ شَيْخٌ بِمَوْضِعِهَا، ولم يَكُنْ الناس يعرفون اسمه. وكان له فتى يعاونه، فصار يُكْنَى بـ ذي الفتى، ومنها إلى زفتى! وتتفرد زفتى بقيادتها ثورة من داخل ثورة، حيث أعلن يوسف الجندي فور اندلاع ثورة 1919 استقلالها وميت عمر لأسابيع عن مصر فيما عُرف بـ جمهورية زفتى!

**سمنود** بالغربية كذلك، يرتبط اسمها بأسطورة. فقيل أنّ أحد فراعين مصر كان يُدعى نود، وابنته طلخا. وقد حاول إجبار

الناس على عبادته، بينما انصرفوا هم عنه إلى عبادة إله الشمس رع. وهنا هداه تفكيره إلى محاولة حَجَبِ ضوء الشمس عن رَعِيَّتِهِ. فقام ببناء سقف فوق المدينة حتى تتوارى الشمس فلا يجد الناس سواه معبودًا! واشتهر بناؤه هذا بـ سماء نود، ومنه إلى سَمْتُود!

**بوصير** ببني سويف، وأصلها فرعوني بر أوزير، أي بَيْت أوزيريس أو مركز عبادته. وإليها ينتسب الإمام **البوصيري** صاحب أشهر قصائد المَدْح النبوي "تَهَجُّ البُرْدَة". وفيها قُتِل الخليفة مروان بن محمد المعروف بـ جِمار الجزيرة!

**أرمنت** أحد مراكز محافظة الأقصر، وعُرِفَتْ في النصوص الفرعونية بـ إيون مونت، أي قصر الإله مونتو، أو بر مونت أي معبد الإله مونتو، وفي الإغريقية هرمونتيس، وفي القبطية أرمنت.

**جمصة** مَصِيف على البحر المتوسط، يمتاز بانخفاض الرطوبة والرمال الناعمة وارتفاع نسبة اليود. واتَّخَذَتْ اسمها أيام الحملة الفرنسية، عندما مرَّ بها أحد القادة، ثم قال: "جيم سي بلاس J'aime ce place"، أي أنا أُحِبُّ هذا المكان. وهكذا أُحِبُّ المصريون جمصة، لولا أن نالها من الانحدار ما نال مصر منه!

**العريش** قيل سُمِّيَتْ كذلك لأنَّ إخوة يوسف عليه السلام، لَمَّا عَمَّ القَحْطُ في بلادهم، ساروا إلى مصر يلتمسون خَيْرَاتِهَا.

وكان لـ يوسف خُرَّاسٌ على أطراف مصر، فأمَسَكُوهم بالعريش. وكتب قائد الحرس إليه يقول: "إِنَّ أَوْلَادَ يَعْقُوبَ الكِنَعَانِي قَد وُردُوا، يريدون البلد للَقَحْط الذي أصابهم. فإلى أَنْ نَأْذَنَ لهم، عملوا لهم عريشًا يَسْتَنْظِلُونَ تحته من الشمس وهكذا جاءت التسمية!

**المساعد** لما وصل ابن العاص إلى العريش، وقَضَ رسالة ابن الخطاب بشأن فتح مصر لو كان قد دخلها، وقرر المُضَيَّ في مسيرة جيشه، ابتهج المسلمون لذلك، وكانوا في ليلة عيد الأضحى. فصدر الأمر من عمرو إلى قُوَّاته، بأن يعسكروا في هذا المكان للاحتفال بالعيد. فسُمِّي المكان بـ المساء عيد، ثم تحرَّف إلى المساعد.

**مراقية** تلك الموجودة بالساحل الشمالي، حيث المُصَيِّقِينَ والمُصَيِّفات، والمايوهات والبلاجات! فهل تصدِّق أَنَّها مَوْضِعٌ قائمٌ منذ ألف سنة أو يزيد؟ ذكرها الحموي في مُعْجَم البلدان منذ 800 سنة: "إذا قصد القاصِد من الإسكندرية إلى إفريقية (يقصد تونس)، فأوَّل بلد يلقاه مراقية ثم لوبية (يقصد ليبيا)..." بل وكان المُنتَسِب إليها يُلقَّب بـ المراقي، ومن هؤلاء المُنتَسِبِينَ بعض مشاهير المشايخ ورجال العِلْم والدين، قبل أن تعرف مراقية البنانا بوت!

**بورة** قُرْب دمياط، وتُنسَب إليها العَمَائِم البورية والسماك البوري. وتقول الأسطورة أَنَّ السمك البوري قد التَّهَمَ عضو ذكورة

أوزيريس بعد التخلُّص من جسده في الماء، ما تَسَبَّب في انعدام وجود هذا النوع من الأسماك في جَنَات الخُلْد بالعالم الآخر!

**أبو قير** يُنسبُ الحَيِّ إلى الأب كير، راهب مسيحي وُلِدَ بالإسكندرية واستُشهدَ في عصر الإمبراطور دقلديانوس بنهاية القرن الثالث، فيما يُعرَفُ باسم عصر الشهداء، حتى أنَّ التَّقويم القبطي يبدأ مع تَوَلَّى الديكتاتور الدموي الحُكْم في 284.

**كفر عبده** أخذ أُرقي أحياء الإسكندرية بالتنافُس مع لوران ورشدي. وشهدَ اسمه انتقالاً مُدهشاً من السويس إلى الإسكندرية! إذ حاصرَ الإنجليز في ديسمبر 1951 كفر عبده بالسويس بغرض إخلائه، حيث يَفْصِلُ وِابور المياه عن تكتاتهم، ويُهَدِّدُ أمن وتموين قاعدتهم بالسويس، بعد إلغاء معاهدة 1936 وتُصاعِدُ هجمات الفدائيين. اشتبك الكفر مع الإنجليز في معركة باسِلة، انتهت بِنَسْفِهِ بمدافع البوارج ودَكَهُ بقاذفات الجَوِّ وضَرْبِهِ بقنابل الدبَّابات وهُدْم 156 منزلاً وتسويتهم بالأرض! وفي اليوم التالي انتفض الإسكندرانية بالشوارع، ليصدر قرارٌ مُثير بتغيير اسم شارع اللبني حيث يسكن القُنْصُل بالإسكندرية لـ كفر عبده... لِيبقى الأبطال ويفنى الاحتلال!

**بابلون** حصنُ بابليون الذي سقط مع الفتح العربي. ولأصل التسمية قِصَّة تقترب من الخُرافة ولا تخلو من الطَّرَافَةِ! قيل أنَّ مقام آدم عليه السلام كان بالعراق. فلَمَّا قتل قابيل أخاه هابيل، كره آدم

قَابِيل، فَتَفَرَّ قَابِيلُ بِأَهْلِهِ إِلَى الْجِبَالِ. فَسَمِيَ الْمَوْضِعُ بِبَابِلٍ أَيْ  
 الْفُرْقَةِ. فَلَمَّا مَاتَ آدَمُ، وَتَبَّى إِدْرِيسُ، وَكَثُرَتْ ذُرِّيَّةُ قَابِيلَ فِي  
 الْأَرْضِ وَأَفْسَدُوا فِيهَا، وَخَالَطُوا أَهْلَ الصَّلَاحِ، دَعَا إِدْرِيسُ رَبَّهُ أَنْ  
 يَنْقِلَهُ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ نَهْرٍ مِثْلِ بَابِلٍ. فَأَتَى إِلَى مِصْرَ. فَلَمَّا سَكَنَهَا  
 وَاسْتَطَابَهَا، اسْتَقَّ لِمَوْضِعِ إِقَامَتِهِ اسْمًا مِنْ بَابِلَ، فَسَمَّاها بَابِلِيُونَ  
 أَيْ الْفُرْقَةُ الطَّيِّبَةُ! عَلَى كُلِّ حَالٍ، الْمُرْجَحُ أَنَّ إِدْرِيسَ نَشَأَ بِالْعِرَاقِ  
 وَعَاشَ بِمِصْرَ، وَأَنَّ لَهُ عِنْدَ الْمُؤَلَّى مَكَانًا عَلِيًّا بَنَصِّ الْقُرْآنِ... وَقَدْ  
 شَرَفَتْ مِصْرَ بِإِقَامَتِهِ بِهَا وَشُرْبِهِ مِنْ نَيْلِهَا أَيًّا كَانَتْ حَقِيقَةُ بَابِلِيُونَ!

فِي مِصْرَ مَنَاتِ الْمُدُنِ تَبْدَأُ بِمَحَلَّةٍ أَوْ مِنيَا أَوْ مِيتٍ أَوْ كَفَرٍ أَوْ  
 صِفْطٍ أَوْ شَرْمٍ. شَرْمٌ هُوَ الشَّقُّ فِي الْأَرْضِ أَوْ تَجْوِيفُ الْبَحْرِ عَلَى  
 غَرَارِ شَرْمِ الشَّيْخِ. صِفْطٌ كَلِمَةٌ قِبْطِيَّةٌ بِمَعْنَى سُورٍ، وَالْأَغْلَبُ أَنَّ  
 قُرَى مِثْلَ صِفْطِ اللَّيْلِ كَانَتْ مُحَاطَةً بِسُورٍ، وَأَنَّ تِلْكَ الْقُرَى مَا  
 صَغُرَ مِنْهَا وَمَا كَبُرَ، مَا بَقِيَ مِنْهَا وَمَا انْدَثَرَ، قَدْ دَامَ لَهَا اسْمٌ يَبْدَأُ  
 بِصِفْطٍ. وَأَمَّا كَفَرٌ وَمِيتٌ وَمِنيَا، فَذَاتُ أَصُولٍ مِصْرِيَّةٍ وَقِبْطِيَّةٍ  
 بِمَعْنَى بَلَدَةٍ، وَلَدِينَا آلَافُ الْمَدَنِ تَبْدَأُ بِاسْمٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ: كَفَرٌ شَكْرٌ،  
 مِيتٌ غَمْرٌ، وَمِنيَا الْقَمْحِ. وَأَمَّا مَحَلَّةٌ فَتَعْنِي الْمَوْضِعَ الَّذِي يُحَلُّ بِهِ.

حَلْوَةٌ يَا بَلَدِي... وَيَزْدَادُ بِهَاؤُوكَ كُلَّمَا عَرَفْنَاكَ. وَيَعْلُو شَأْنُكَ كُلَّمَا  
 اسْتَمْتَرْنَا مَعْرِفَتَنَا بِكَ فِي الْإِتِّجَاهِ الصَّحِيحِ، بَعِيدًا عَنِ الْكِرَاهِيَّةِ  
 وَالْفُرْقَةِ وَالْأَحْقَادِ وَالتَّعَصُّبِ!



### لا للإحباط (3)

عن الفلسفة قالوا: فُلَس.. و.. سَفَه!

فَأَمَّا إِنَّهَا فُلَس، فهذا مُؤَكَّد، إِنَّ وَضَعْنَا فِي الِاعْتِبَارِ أَنْ  
المُفَكِّرِينَ والأُدْبَاءَ هُمْ أَفْقَرُ المشاهيرِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ! وَأَمَّا إِنَّهَا  
سَفَه، فهذا مُخْتَلَفٌ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اسْتَهْلَكُوا أعمارهم فِي الكِتَابَةِ لِأَجْيَالِ  
مُتَعاقِبَةٍ تَقْرَأُ وَتَسْتَفِيدُ، فَلَا شُبْهَةٌ لِسَفَهٍ، وَإِنْ اسْتَنْزَفُوا حَيَاتِهِمْ فِي  
الْكِتَابَةِ، مِنْ أَجْلِ شَعوبٍ لَا تَقْرَأُ، فَهَذِهِ جَرِيْمَةٌ إِهْدَارِ لِلْفِكْرِ الْعَامِ!

-----

لَمْ يَكُنْ الشاعِرَانِ وَيْلِيَامُ وَرْدزُوورثُ وَالْفَرِيدُ تَتِيسونُ رَغْمَ شُهْرَتِهِمَا  
عَلَى قَدْرِ صَيِّتِهِمَا مِنَ الثَّرَاءِ. وَكَانَ مِنْ عَجَائِبِ الأَدبِ فِي القَرْنِ  
التَّاسِعِ عَشْرَ أَنْ يَسْتَعِيرَ كِلَاهُمَا البَدْلَةَ نَفْسَهَا مِنْ زَمِيلِهِمَا التَّالِثِ  
الشاعِرِ صَمُوئِيلِ رُوْجِرزِ، بَعْرَضِ الذَّهَابِ إِلَى قَصْرِ بَاكَنْجِهَامِ؛  
لِيَتَقَلَّدَا وَسَامَ الشاعِرِ لاورِيْتِ، أَرْفَعِ أَوْسِمَةَ الشِّعْرِ فِي بَرِيْطَانِيَا،  
رَافِعِينَ الشعارَ المُفَضَّلَ لِمَشَاهِيرِ الفِكْرِ: الصَّيْتِ وَلَا العِنْيِ!

-----

كَانَ دِيْفِيدُ مَاكُونِيلِ بَانِعًا مُتَجَوِّلاً. بَدَأَ حَيَاتَهُ بِبَيْعِ مَسْرَحِيَّاتِ  
شَكْسْبِيرِ. وَبِحِسِّ دَعَائِي، عَمِدَ إِلَى تَقْدِيمِ رُجَاجَةِ عَطْرِ صَغِيرَةٍ -  
أَعَدَّهَا بِنَفْسِهِ- بِالْمَجَّانِ لِكُلِّ مَنْ يَشْتَرِي وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ المَسْرَحِيَّاتِ،  
قَاصِدًا حَتَّى النَّاسِ عَلَى شَرَائِهَا. وَسَرَعَانَ مَا لَاحَظَ دِيْفِيدُ أَنَّ النَّاسَ

لم يشترتوا المسرحيات إلا كي يحصلوا على عِطْرِهِ المَجَّانِي. وَعِنْدَئِذٍ  
قَرَّرَ التَّخَلِّيَ عن بَيْعِ الكُتُبِ، وَأَقْدَمَ على بَيْعِ مُسْتَحْضَرَاتِ التَّجْمِيلِ!  
رَاجَتْ تِجَارَةٌ دِيفِيدَ بِشكْلِ مُذْهِشٍ، حَتَّى نَجَحَ في تَأْسِيسِ وَاحِدَةٍ من  
أكْبَرِ شَرَكَاتِ العِطُورِ، مُطْلَقًا عَلَيْهَا اسْمَ Avon. وَهَكَذَا لَمْ يُمْتَنِعْ  
شُكْسْبِيرَ عِيونَ قُرَّائِهِ وَأَذْهَانَهُمْ فَحَسَبُ، بَلِ امْتَدَّ تَأْثِيرُهُ إِلَى أَنْوْفِهِمْ!



مَرَّ بِهِ الإسْكَندَرُ الأَكْبَرُ في طَرِيقِهِ إِلَى قِصْرِهِ. وَعِنْدَمَا لَمَحَهُ  
جَالِسًا فِي العِرَاءِ، اقْتَرَبَ مِنْهُ مُتَرَجِّلاً من فَوْقِ فَرَسِهِ. وَسَأَلَهُ فِي  
احْتِرَامٍ بِالْغ: "سَيِّدِي الفِيلَسُوفُ، هَلْ فِي اسْتِطَاعَتِي مُسَاعَدَتِكَ فِي  
أَيِّ أَمْرٍ كَانَ؟" نَظَرَ لَهُ الفِيلَسُوفُ فِي لَامْبَالَاةٍ مُجِيبًا: "أَجَلْ،  
تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَحِيَ جَانِبًا، فَأَنْتَ تَحْجُبُ عَنِّي ضَوْءَ الشَّمْسِ!..."  
عَاشَ دِيوجِينُ زَاهِدًا، وَمَاتَ فَقِيرًا. وَعَلَى عَكْسِ تَبْجِيلِ الإسْكَندَرِ  
لَهُ، فَإِنَّ مِوَاطِنِيهِ قَامُوا بِنَقْيِهِ من مَسْقَطِ رَأْسِهِ سِينُوبِي، مُتَّهِمِينَهِ  
بِتَزْوِيرِ العُمْلَةِ، مُسْتَهِينِينَ بِفِكْرِهِ، مُحْتَقِرِينَ مَظْهَرَ البَائِسِ، حَتَّى  
لَقَّبُوهُ بِالكُتْبِ وَلَقَّبُوا أَتْبَاعَهُ بِالكَلْبِيِّينَ! تَقَبَّلَ دِيوجِينُ الإِهَانَةَ بِمَزِيحٍ  
مِنْ رَحَابَةِ الصُّدْرِ وَالكِبْرِيَاءِ. بَلِ وَقِيلَ أَنَّهُ مَنْ أَطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ  
التَّسْمِيَةَ قَائِلًا: "حَقًّا إِنَّا كِلَابٌ. لَكِنَّا كِلَابُ حِرَاسَةٍ، تَتَوَلَّى حِرَاسَةَ  
الأَخْلَاقِ والأَفْكَارِ!..." وَقِيلَ أَنْ يَمُوتَ، أَوْصَى بِأَنْ يُدْفَنَ كَالْكِلَابِ.  
لَكِنَّهُ دُفِنَ مُكْرَمًا كَمَا يَنْبَغِي لِفِيلَسُوفٍ مِثْلِهِ. وَشُيِّعَ جُثْمَانُهُ فِي جَنَازَةٍ

مهيبه، شاركت فيها مدينة كورينثيا عن بكره أبيها. لكنهم لم يشاعوا  
أن يخالفوا وصيئته، فصنعوا تمثالاً لكذب ووضعوه فوق قبره!

- - - - -

عندما تقدّم صمويل كليمنس لطلب الزواج من أوليفيا  
لانجدون، لم ترفضه. لكنها اشترطت أن يوافق والدها أولاً... كان  
أل لانجدون ينتمون إلى الطبقة البورجوازية الثرية بولاية نيويورك  
في أقصى الشمال الشرقي، بينما كان كليمنس رجلاً خشناً ينتمي  
لولاية ميسوري في الوسط. ولما لم تكن تجمعهما صلات مشتركة،  
اقترح عليه السيد لانجدون - والد العروس - أن يتقدّم بشهادات  
توصية من جيرانه ومعارفه؛ لدعّمه وإعلاء أسهم اختياره زوجاً  
لابنته. لم يتأخّر كليمنس عن حماه المنتظر. وهنا كانت المفاجأة.  
فكلّ الذين قدّمهم لتعزيده، اتفقوا على الحطّ من شأنه! فهو  
صعلوك في نظر بعضهم، غريب الأطوار في نظر بعضهم  
الآخر، مغامر متهور لا مستقبل له في نظر البقية الباقية! بل إنّ  
شهادتين من بين الشهادات كانتا تتوقّعان وفاته بداء التليّف في  
أقرب وقتٍ ممكن! استقبل السيد لانجدون هذه الآراء المزعجة  
بتروّ. ولم يعتمد عليها لقناعته الشخصية بعريس ابنته. فاستدعاها  
وأطلّعه على الموقف، ثم قال: "يبدو أنّ لا صديق لك البتّة!"  
فأجابه كليمنس في أسى: "هكذا يبدو!" فأردف لانجدون مُعقّباً:  
"ولا يهّمك. أنا من سيكون صديقك. فلتنزّوج ابنتي، كي أعرفك"

أكثر منهم!" ولم يخذله خدسه. فقد كان كليمنس نِعَمَ الزَّوْجِ الوفيِّ المَحِبِّ. ونال التقدير لا من أسرة زوجته فَحَسْبُ، ولا من المجتمع الأمريكي وحده، بل من البشرية جمعاء! إننا نتحدَّث عن صمويل كليمنس، أشهر أدباء أمريكا في القرن التاسع عشر، المُلقَّبُ بأبي الأدب الأمريكي في نظر بعض الناس، وأعظُمُ الساخرين الأمريكيان في كُلِّ الأزمنة. كليمنس المناهضُ للإمبريالية وللاستعمار الأمريكي للقارة الجنوبية، الداعِمُ للحقوق المدنية وحقوق المرأة والحركات العمَّالية. صمويل المُسمَّى باسمه عددٌ كبيرٌ من المدارس بالولايات المتحدة، وكذلك كوبري تذكاري، ومتحف كبير، بل وجُرم سماوي، فضلًا عن قرية تحمل اسمه في هايدلبرج بألمانيا. صمويل كليمنس المولودُ مع ظهور مُدُنَّب هالي في نوفمبر 1835، المُنتَبِيُّ لنفسه أن يموت مع عودة المُدُنَّب من جديد، والراجل بالفعل في اليوم التالي لِقَدم المُدُنَّب في أبريل 1910. وعندما عاد مُدُنَّب هالي للظهور بعد 75 سنة تالية، في ديسمبر 1985، قامت هيئة البريد الأمريكية بإصدار طابع خاص عليه صورته والمُدُنَّب هالي معًا!... إننا نتحدَّث عن صمويل لانجهورن كليمنس... الشهير ب... مارك توين!

.....

نَظَرْتُ إليه والدته العَطوف. وَقَدَّمْتُ له نصيحة مُهِمَّة تقول:  
تَعَلَّمْ كُلَّ ما تستطيعه. وَكُنْ كَتومًا قَدْرَ الإمكان. فلا تَلْفِتْ بذلك

نظر أحد إلى أنك... جَمَّازٌ!... هكذا كانت ترى والدة أعظم شعراء ألمانيا ابنها هاينريش هايتيه، الذي تأثر بشدة من انطباع أمه عنه. وكان مستواه كارثيًا في التعليم، وخاصة في اللغات. فلم يَكُن يفهم قواعد اللُّغة الألمانية، وتصريف الأفعال والإعراب في اللُّغات الأجنبية. رغم أنَّ أشعاره فيما بعد، سيقوم بتلحينها أشهر موسيقيي العالم!

وأما إميل زولا، الأديب الفرنسي المرموق، فقد تقدَّم في شبابه لامتحانات الالتحاق بجامعة السوربون. وهناك نجح زولا في مادَّتي العلوم والرياضيات، بينما رسب في الآداب، وقُشل في اختبار القراءة باللُّغة الألمانية. وبعد شهرين حاول الالتحاق بجامعة مارسيليا، وهناك فشل في الامتحان التحريري ولم يجرؤ على التقدُّم للشفوي. ويحتفظ لنا التاريخ برسالة من زولا إلى صديقه سيزان، يشكو فيها حاله قائلاً: "أنا جاهلٌ بكلِّ ما في الكلمة من معنى!..." ولقد نجح ذلك الجاهل فيما بعد في كتابة أزقِّ الروايات الأدبية، وصار زعيم المدرسة الطبيعية في الأدب!

تَمَتَّد حياة الأديب البارِع بشكل لا يُصدِّقه عقل. فيُضاف إلى عُمره أعمار قارئيه على مَرِّ العصور!

## مَنْ الَّذِي لَا يُحِبُّ فَاطِمَةَ؟!

ما سِرُّ هذا الاسم؟

ما سِحْرُ هذا الاسم؟

ما أَجْمَلُ هذا الاسم!

دائمًا ما تكونُ فَاطِمَةُ حَاضِرَةً حَاضِنَةً...!

يُهْدَى عليه الصلاة والسلام خُلَّةً من إستبرق، فينادي ابن عمه قائلاً: "اجْعَلْهَا خُمْرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ فَيَشْقَى عَلَيَّ أَرْبَعَةَ أَخْمِرَةٍ، وَاجِدْ لِي فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ، وَالثَّانِي لِي فَاطِمَةَ بِنْتِ أُسْدٍ، وَالثَّلَاثَ لِي فَاطِمَةَ بِنْتِ حَمْرَةٍ، وَالرَّابِعَ لِي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ."

لَيْسَ الْمَقَالُ عَنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ الرَّيْحَانَةِ ابْنَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الْمَوْلُودَةِ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، الْمُخْتَفَلِ بَوْلادَتِهَا مِنْ أُمِّهَا خَدِيجَةَ وَأَبِيهَا مُحَمَّدًا احْتِفَالًا لَمْ يَشْهَدِهِ الْعَرَبُ فِي مَوْلِدِ أَنْتَى مِنْ قَبْلِ، الْمُعْتَنِيَّةِ بِأَبِيهَا الْمُدَبِّرَةِ لَشُؤُونِ مَنْزِلِهِ بَعْدَ رَحِيلِ وَالِدَتِهَا وَزَوْاجِ أُخْتَيْهَا ثُمَّ رَحِيلِهَا حَتَّى لُقِيَتْ بِـ "أُمِّ أَبِيهَا"، الْمُنْزَوِجَةَ مِنْ عَلِيِّ الْفَقِيرِ بِمَهْرٍ عَجِيبٍ هُوَ ثَمَنُ دَرْعَةِ الْخَطْمِيَّةِ الْمُسْتَهْزَةِ فِي الْحُرُوبِ الَّتِي خَاضَهَا وَالتِّي اشْتَرَاهَا مِنْهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ بِـ 470 دِرْهَمًا، الْمَحْصُورِ فِي نَسْلِهَا ذُرِّيَّةَ الْمُصْطَفَى، أُمَّ أَحْفَادِهِ الْحَسَنِ

والحسين وزينب وأم كلثوم، المُبَشَّرَة من أبيها بأن تكون أوَّل مَنْ يلحقه بعد وفاته من أهله سَيِّدَةً لِنِسَاءِ الْجَنَّةِ، والمدفونة بالبقيع بعده بسنة أشهر، قبل أن تَنِمَّ عامها التاسع والعشرين.

لَيْسَ الْمَقَالُ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدِ زَوْجَةِ أَبِي طَالِبِ الْحَاضِنَةِ الثانية لِمُحَمَّدٍ بعد موت أمِّه ثم جدِّه، المُكْرَمَةِ إِيَّاهُ أَكْثَرَ مِنْ أَبْنَائِهَا طعامًا وشرابًا وكِسَاءً، حتى كانت تحرص على أن يسبقهم إلى الطعام ليبارك الله فيه، الداخِلة في الإسلام رغم بقاء زَوْجِهَا دون موقفٍ واضح، المُتَمَنِّة لِمُحَمَّدٍ الَّذِي رَدَّ الْجَمِيلَ لَهَا وَلِعَمِّهِ بعد وفاته بأن تَوَلَّى رِعايَةَ ابْنِهَا عَلِيٍّ، المُهاجِرَةِ إلى المدينة مع طلائع المسلمين، والمُتَوَقَّاة فَيَدْخُلُ عَلَيْهَا النَّبِيُّ بِأَكْبَرِ يَقُولُ: "رَحِمَكَ اللهُ يَا أُمِّي. كُنْتُ تَجُوعِينَ وَتَشْبَعِينِي. تَعْرِيْنِ وَتَكْسِينِي. تَمْنَعِينَ نَفْسَكَ طَيِّبًا وَتَطْعَمِينِي. تَرِيدِينَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ وَالْدارِ الْآخِرَةَ". ثم يأمر بأن تُغَسَّلَ ثَلَاثًا، وَيُخَلَقَ قَمِيصُهُ وَيُلْبَسُهُ إِيَّاهَا، وَيُحْفَرُ فِي الثَّرَابِ بِيَدَيْهِ دَاعِيًا: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ، وَلَقِنَهَا حُجَّتَهَا، وَوَسَّعَهُ عَلَيْهَا بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ" ثم يُكَبَّرُ أَرْبَعًا وَيَدْخُلُهَا اللَّحْدَ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ وَأَبُو بَكْرٍ يَسَاعِدَانِهِ.

لَيْسَ الْمَقَالُ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْخَطَّابِ الَّتِي أَسْلَمَتْ قَبْلَ أَخِيهَا عمر ضمن الأربعين الأوَّل من المُسْلِمِينَ. وَتَصَدَّقَتْ لَهُ فَيَضْرِبُهَا وَيَعْتَدِي عَلَى زَوْجِهَا أَتَاءَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. ثم تجبره على الوضوء قبل

أَنْ يَمَسَّ الصَّحِيفَةَ. فَيَقْرَأُ سُورَةَ طه، وَيَذْهَبُ لِيُشْهِرَ إِسْلَامَهُ، وَيُعَزِّرَ  
الإِسْلَامَ بِأَحَدِ الْعَمَرَيْنِ. وَفِيهَا كَتَبَ ابْنُ الْخَطَّابِ:

وَقَدْ ظَلَمْتُ ابْنَةَ الْخَطَّابِ ثُمَّ هَدَى \* رَبِّي عَشِيَّةً قَالُوا: قَدْ صَبَا عُمَرُ  
وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ زَلِّي \* بظَلَمِهَا حِينَ تَنَلَى عِنْدَهَا السُّورُ  
لَمَّا دَعَتْ رَبَّهَا ذَا الْعَرْشِ جَاهِدَةً \* وَالذَّمْعُ مِنْ عَيْنِهَا عَجَلَانٌ يَبْتَدِرُ  
أَيُقِنْتُ أَنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ خَالِقُهَا \* فَكَأَدَ تَسْبِقُنِي مِنْ عِبْرَةٍ تُرْرُ  
فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُنَا \* وَأَنَّ أَحْمَدَ فِيْنَا الْيَوْمَ مُشْتَهَرُ

لَيْسَ الْمَقَالُ عَنْ فَاطِمَةَ أَوْ فَاخِتَةَ أَوْ أُمِّ هَانِي ابْنَةِ عَمِّ رَسُولِ  
اللَّهِ، وَالَّتِي تَرَبَّتْ مَعَهُ فِي بَيْتِ أَبِيهَا، وَكَانَتْ تَدْفَعُ عَنْهُ أَدَى  
الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهَا، وَالَّتِي حَاوَلَ النَّبِيُّ خُطْبَتَهَا قَبْلَ أَنْ يُوحَى  
إِلَيْهِ، وَاعْتَدَرَ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ. ثُمَّ طَلَبَهَا لِلزَّوْجِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا،  
فَاعْتَذَرَتْ هِيَ لَهُ، مَعَ مِثْلِهَا إِلَيْهِ، بِكَثْرَةِ عِيَالِهَا وَحَشِيَّتِهَا أَنْ تُضَيِّعَ  
حَقَّهُ أَوْ حَقَّهُمْ. وَفِيهَا قَالَ مُحَمَّدٌ: "خَيْرُ نِسَاءِ زَكَاةٍ الْإِبِلِ نِسَاءُ  
قَرِيشٍ، أَخْنَاهُ عَلَى وُلْدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَزْعَاهُ عَلَى بَعْلِ فِي ذَاتِ يَدِهِ".  
وَقَالَ: "قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرَبْتَ، وَأَمْنَا مَنْ أَمَّنْتَ".

وَلَا عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ حِزَامِ زَوْجَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ - بَعْدَ  
وَفَاةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ - وَالَّتِي كَانَتْ تُكْنَى بِأُمِّ الْبَنِينَ. وَقَدْ اسْتَشْهَدَ  
أَوْلَادُهَا الْأَرْبَعَةَ تَحْتَ رَايَةِ أُخْيَاهِ الْحُسَيْنِ فِي كَرْبَلَاءَ... وَلَا عَنْ  
فَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حَبِيشِ الْمُسْتَهْرَةِ بِجَرَاتِهَا فِي النِّقَاشِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ  
حَوْلَ الْإِسْتِحَاضَةِ، أَيْ نَزْوِلِ الدَّمِ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الْحَيْضِ الْمُعْتَادَةِ.



فيشرح لها ولمن في حالتها الطريقة المثلى في التطهر والموعد المناسب لأداء الفرائض. وفيها قالت عائشة رضي الله عنها: "نعم النساء نساء الأنصار. لم يمنعهن الحياء من أن يسألن عن أمور دينهن"... ولا عن فاطمة بنت الإمام علي التي سقت التراب في وجه رجلٍ جاء ينافقها في سيرة أبيها... ولا عن فاطمة بنت أسد الله حمزة التي اختار النبي لها زوجها... ولا عن فاطمة بنت سيد الشهداء الحسين التي أخلت بني أمية بكبريائها وتماسكها. ولا عن فاطمة بنت عبد الملك التي أمرها زوجها الخليفة عمر بن عبد العزيز بأن تقدم كل ما لديها من مالٍ وجواهر ليبت المال. فلما مات زوجها، وتولى الخلافة بعده أخوها يزيد بن عبد الملك، قال لها: "أعلم أن عمرك ظلمك. وسأرد إليك ما أخذه منك. فأبنت قائلة: "لا والله ما كنت لأطيعه حيًّا وأعصيه ميتًا!"

وليس المقال عن الأميرة فاطمة ابنة الخديوي إسماعيل، والتي أنفقت مشروع إنشاء الجامعة المصرية - الذي انعقد أول اجتماع له في بيت سعد زغلول، وأشرف على بدء تنفيذه قاسم أمين من التعتُّر في مطلع القرن الماضي، بسبب عقبة التمويل وصعوبة دفع إيجار مبنى الجامعة. فجاء تبرُّعها بسنة أفدنة لإقامة مبنى خاص بالجامعة. وهبت مجوهراتها الثمينة التي بيعت بنحو 70 ألف جنيه، لتحمّل كامل تكاليف البناء، ونفقات حفل وضع حجر الأساس. وأوقفت إيراد آلاف الأفدنة المقدّر بأربعة آلاف جنيه

سَنَوِيًّا لصالِح ميزانية الجامعة. ولقد كُتِبَ على حَجَرِ الأساس:  
"الجامعة المصرية، الأميرة فاطمة بنت إسماعيل، سنة 1332  
هجريّة". ووقف أخذهم ينشد قصيدة لـ شوقي بك ومنها:

وَبَارَكَ اللهُ فِي أَسَاسِ جَامِعَةٍ \* لَوْلَا الأَمِيرَةُ لَمْ تُصْبِحْ بِأَسَاسِ  
يَا عَمَّةَ النَّجَاحِ مَا بِالنَّيْلِ مِنْ كَرَمِ \* إِنَّ قَيْسَ بَحْرُكُمِ الطَّامِي بِمِقْيَاسِ

-----

كُلُّ فَاطِمَةٍ مِنَ الفَوَاطِمِ تَسْتَحِقُّ مَقَالًا وَحدها، وبعضهنَّ قَلِيلٌ  
عليهنَّ مُجَلَّدٌ!

لكنَّ المَقَالَ عن فاطمة أُخْرَى... كالزهراء، أبوها هو محمد بن  
عبد الله، وشتان الفارق! كزوجة أبي طالب، مِعْطَاءة. كابنة  
الخطّاب، صبور. كابنة أبي طالب، ذكِيَّة. ك بنت حزام، لقبها أمُّ  
البنين. ك بنت أبي حبيش، جريئة. كابنة علي، شديدة. كابنة  
الحُسَيْن، مِقْدَامة. كزوجة الخليفة، وقيّة. وكابنة الخديوي، أنشأت  
جامعة!

تونسية الأصل من القيروان، مغربية الإقامة في فاس... هي  
فاطمة الفهري المولودة في القرن التاسع والمُتَوَفَّاة في 880.  
انتقلت في طفولتها مع أهل بيتها إلى عُدوة القرويين بالمغرب تحت  
حُكْم إدريس الثاني. تزوجت صغيرة. وتزوّجت صغيرة. وورثت عن  
أبيها وزوجها مالا وفيرا.

قَرَّرَتْ فاطمة أن تنفق ثروتها على العِلْم وأن تُسَخِّر حياتها كُلِّها لتحقيق هذا الهدف. كان بالقرويين مسجد صغير مُتِهالك. أعادت بناءه وضاعفت حجمه بشراء الحقول المُحيطة به. وطوّرت نشاطه لتُحوِّله من جامع إلى جامعة... أقدم جامعة في العالم!<sup>35</sup>

ومن ذاكِرة التاريخ أنَّ فاطمة ظَلَّتْ صائمة ناذرة لله الأ تفتقر يوماً واحداً، حتى تَمَّ البناء في 1859! وكانت تشرف بنفسها على إنشاء المركز التعليمي، وأمرت العَمَّال بالأ يأخذوا ثُرًا أو مواد بناء من غير الأرض التي اشترتها. فحفروا يستخرجون من أعماقها الرمل الأصفر والأحجار والجِص. ثم حفروا بئرًا ليشرب العمال ويستغلُّوا ماءه في وضع الأساس. انتهى البناء في رمضان سنة 245 هجرية، لتؤدِّي فاطمة صلاة سُكْر في باحْتِه، هي أوَّل ما أدَّى الناس من صلاة في جامع القرويين.

لم تُكُنْ الدراسة قاصِرة على علوم الدين. بل ضَمَّتْ الجامعة موادًا أدبية وعلمية مثل علوم اللُّغة والجُغرافيا والتاريخ والرياضيات والمنطق والكيمياء والفلك والطب. وسرعان ما أصبَحَتْ جامعة القرويين أشهر مكان لتلقِّي العلوم في بلاد المغرب، بل وإمتدَّ

---

تسبقها جامعة أون المصرية التي تأسست في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وأكاديمية الموزيون بالإسكندرية في القرن 3 ق.م ومعهد نانجينج الصيني في القرن 3. لكن هناك من يرى أنَّ جامعة القرويين أوَّل جامعة تنطبق عليها المفاهيم الجامعية الحديثة المُتعارف عليها.

صَيَّنَهَا إِلَى الْجَنُوبِ الْأُورُوبِيِّ، مَا أَدَّى إِلَى جَذْبِهَا لكَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ آنَذَاقِ، لِنَفْرَاضِ الْجَامِعَةِ شُرُوطًا صَارِمَةً لِلاتِّحَاقِ بِهَا وَالانْتِظَامِ فِي أَرْوَاقَتِهَا، حَتَّى يَتِمَّ غَرْزَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَرَفَعِ مَسْتَوَى الدِّرَاسَةِ. وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الشُّرُوطِ حِفْظُ الْقُرْآنِ وَإِتْقَانُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَحَدُّ أَدْنَى مِنَ الْإِحَاطَةِ الْعَامَّةِ بِالْمَعَارِفِ.

اشْتَهَرَتِ الْجَامِعَةُ بِالْمُنَاطَرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَبِتَجْهِيزَاتِهَا مِنْ أَدْوَاتِ فَلَکِّيَّةٍ وَأَسْطُرَلَابَاتٍ وَمَعَامِلٍ. وَرَغْمَ فَخَامَةِ الْجَامِعَةِ وَزُوعَةِ مَبَانِيهَا، فَلَمْ يَكُنْ طَلِبَةُ جَامِعَةِ الْقُرُوبِيِّينَ يَدْفَعُونَ رِسُومًا مُقَابِلَ الدِّرَاسَةِ، بَلْ كَانُوا يَتَقَاضُونَ إِعَانَاتٍ نَقْدِيَّةً لِلطَّعَامِ وَالسَّكَنِ، وَيَقِيمُونَ فِي مَبَانٍ مُخَصَّصَةٍ لِلطَّلِبَةِ فِي مُحِيطِ الْجَامِعَةِ.

وَكَانَتْ رِئَاسَةُ الْجَامِعَةِ تُسَنَدُ إِلَى قَاضِي مَدِينَةِ فَاسِ الَّذِي كَانَ يَمْنَحُ الْأَسَاتِذَةَ الْكِرَاسِيَّ الْعِلْمِيَّةَ. وَكَانَ يِعَاوَنُ الْقَاضِيَّ عَدَدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْأَقْسَامِ فِي وَظِيفَةِ عُرْفَتٍ بِالْقَيْمِ. وَتَرَاحَتْ مُدَّةُ الدِّرَاسَةِ بِالْجَامِعَةِ لِلطَّلِبِ الْوَاحِدِ بَيْنَ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ وَخَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا. وَكَانَ كُلُّ طَالِبٍ لَهُ حَقُّ اخْتِيَارِ أُسَاتِذَتِهِ حَسَبِ مَوَادِّ تَخْصُّصِهِ. وَمِنْ أَشْهُرِ الَّذِينَ تَخَرَّجُوا فِي جَامِعَةِ الْقُرُوبِيِّينَ مُؤَسِّسُ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ، التُّونِسِيِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلْدُونِ، الشَّاعِرُ الْفِيلَسُوفُ الْأَنْدَلُسِيُّ لِسَانَ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ، وَكَذَلِكَ جَرِيرَتُ دُورِيَاكِ الَّذِي صَارَ فِيمَا بَعْدَ الْبَابَا سِينْفِيسْتَرِ الثَّانِي بَابَا الْفَاتِيكَانِ مَعَ نِهَآيَةِ

الألفية الأولى!! أما أشهر الذين درّسوا فيها، فهُم الطبيب الفيلسوف اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون، اللُّغوي الفلكي ابن باجة، الرَّخَّالة الجُغرافي الإدريسي، والعالم الفُذُّ ابن زُهْر.

لم تزلّ جامعة القرويين قائمة في مَوْضِعِهَا. وإنّ كانت اليوم في المكان نفسه، فلم تُعدّ اليوم في المكان ذاتها. وكفاه المغرب العربي فخرًا، أن تكون ابنته فاطمة هي مؤسّسة أوّل جامعة في التاريخ، لتُظَلَّ مَرَكزًا للإشعاع الفكري والعلمي لمُدّة ألف سنة.

عن فاطمة الفهري، كتب ابن خلدون الذي درّس بالجامعة بعد وفاتها بخمسة قرون يقول: "فكأنما نَبَّهتْ عزائم الملوك بعدها"... كانت فاطمة رائدة قائدة ناهضة. على ذريها سار عظماء العرب والعرب، وأسّسوا الجامعات ومنارات العلم: الأزهر وبغداد وقرطبة والقيروان في بلادنا، كامبريدج وهارفارد وأكسفورد وهايدلبرج في بلادهم.

أتبحث عن نموذج مُشرف للمرأة في تاريخ الإنسانية على وجه العموم؟ عليك بفاطمة!

أتريد أن تتّهي على المرأة العربية في عصور الرّهاء الإسلامية على وجه الخصوص؟ عليك بفاطمة!

فمنّ ذا الذي لا يُحِبُّ فاطمة!؟

## تطبيق القانون!

في اللغة، قد يعني التطبيق: التنفيذ والتفعيل. وقد يعني التطبيق: الطّي والتخزين!... وفي كُلِّ أنحاء الدُّنيا، هناك شعوب تُطبِّق القانون، وهناك شعوب "تُطَبِّقه"!

-----

للسيد حمورابي البابلي كُلُّ التقدير. فقد بَدَل جُهْدًا، ووضع شريعةً من 282 مادةً، بها كثير من المواد المُنصِفة. لكنّها لا تخلو بِكُلِّ أسفٍ من المواد المُجحفة. ففي المادة 8 كَتَبَ يقول: "إذا سرق سيّد ثورًا أو شاةً أو جمارًا أو خنزيرًا أو قاربًا، وإذا كان ما سُرقَ يعود للآله أو القصر، فعليه أن يدفع ثلاثين مِثْلًا. أما إذا كان يعود إلى مسكين، فعليه أن يدفع عشرة أمثال. وإذا لم يَكُنْ لَدَى السارق ما يعوِّض به، فإنه يُعَدَم وفي المادّة 215 يقول: "إذا أُجْرَى جَرَّاحٌ عملية كبيرة لنبيبٍ من النُّبلاء بِمِنْبُض من البرونز، فأنقذ حياة النبيب، يأخذ عشرة شيكلات من الفِضّة أُجرَةً له". وفي 216: "وإذا كان المريض من العوام، فيأخذ الجَرَّاح خمسة شيكلات". وفي 217: "وإذا كان المريض عبْدًا لنبيب، فعلى مالك العبد أن يعطي الجَرَّاح شيكلين من الفِضّة أُجرَةً له". وفي 218: "وإذا أُجْرَى الجَرَّاح العملية لأحد أفراد طبقة النُّبلاء، ومات الرجل نتيجة العملية، عوقِبَ الجَرَّاح بقطع يده". وفي 219: "وإذا أُجْرَى

الجَرَاح العملية لأحد العبيد، ومات أثناءها، فعلى الجَرَاح تعويض مالك العبد بعبدٍ غيره"... عندما تُفَرَّق شريعةً بين إنسانٍ وآخر جبال الحقِّ ذاته أو الواجب نفسه، بفعل ثراءٍ أو مكانةٍ أو جاهٍ، فنحن أمام قانونٍ مُخْتَلٍ، يُمَثِّل تطبيقه ظُلْمًا بَيِّنًا. وهذا هو الفارق بين عباد الله وعبيد البشر!



أول إضاعة للطُّرُق معروفة تاريخيًا، كانت أيام الإغريق. وكانت لُمبات الزيت هي الشائعة في الاستخدام. ثم ظَهَرَت لُمبات الغاز إبَّان الإمبراطورية الإسلامية بالأندلس مع مَطْلَع الألفية الثانية. وفي 1405 اجتمع أعضاء المجلس التشريعي البريطاني، وأصدروا قانونًا يلزم أهالي العاصمة، الذين تقع بيوتهم على الطُّرُق العامَّة، بتعليق فوانيس أمام منازلهم، ابتداءً من الغروب وحتى ما بعد طلوع الفجر. امتثل الأهالي للقانون الجديد. وكانت مساهماتهم الفرديةً تحمي المجموع من الحوادث والسرقات. وفي 1461 عُدِّل القانون بإضافة معايير أصعب للفوانيس من حيث الوزن والإضاعة. وظلَّ الناس مُمتثلين للقانون حريصين على بِنِّ الأمان في نفوس المارين بمدينتهم العريقة. وفي 1599 أُعيد النظر في القانون وزيدَ وزن الفانوس وقُوِّيتْ إضاءته. ولم تَنَوَّل الحكومة مهام إمداد الطُّرُق بالإضاعة اللازمة سوى ابتداءً من 1657، بعد قرنين ونصف القرن من الانصياع لتطبيق القانون دون اعتراض أو

التفاف من اللندنيين. ثم تطوّرت أنماط إنارة الشوارع في القرون التالية وصولاً للكهرباء. وكوفيّ الإنجليز بأن يكون أول شارع في التاريخ يُضاء بالكهرباء هو شارع موسلي بمدينة نيوكاسل في فبراير 1879... أحياناً يتجلى للمرء أنّ الالتزام بالقوانين مهما بدت عدالتها صارمة، هو الطريق الأمثل نحو الحصول على حياة أفضل.



وفي شأن الشوارع، وضعت بريطانيا قانوناً عجيباً، وإن كان لا مفرّ منه ولا بديل عنه، للحفاظ على أمن المواطنين وسلامته. عُرف هذا القانون بقانون العَلم الأحمر. وقد صدّر في نسخته الأولى في 1865 عبّر البرلمان، ونصّ على أنّ كلّ ما يتحرّك على الطريق متضمّناً السيارات، لا يتجاوز سرعة 6 كم في الساعة خارج المُدن و3 كم داخلها. ونصّ كذلك على أن يتكوّن طاقم السيارات من ثلاثة، أحدهم يقود السيارة، والثاني يزودها بالوقود، والثالث يركّض في الطريق حاملاً راية حمراء أو فانوساً في يده، ويسبق السيّارة بمسافة ستين ياردة لتحذير المارة وراكبي الجياد من قدوم سيارة في الطريق! وفي 1878 عدّل القانون، ونقلصت المسافة التحذيرية إلى عشرين ياردة، وألزمّت السيارة بالتوقّف بمجرد رؤية حصان في مرمى البصر، وصار رفع راية حمراء إجراءً اختياريّاً للمُحذّر الذي يسبق السيارة. وفي 1896 عدّل القانون للمرّة الثانية، فارتفعت



السُرعة الفُصوى المسموح بها إلى 22 كم في الساعة، ولم تُعدْ هناك حاجة إلى طاقم من ثلاثة لكلِّ سيارة. وبُسِرتْ إجراءات استخدام السيارات، لتدخل الشوارع البريطانية القرن العشرين دون تعقيدات تُذكر... ربما نندهش من وجود مثل هذا القانون، لكن رغبة السُلطات في التَّدخُل لمنع الفوضى الناتجة عن انتشار العربات المُندفعة في طُرقات غير مُعبَّدة وبلا تَقَة كبيرة في قُدرة سائقها، قد أوجِب عليها ذلك جِرسًا على حياة الناس. ربما يجذُر بنا الاستغراب من امتثال أصحاب السيارات في بريطانيا على مدار ثلاثين عامًا، باصطحاب عداءٍ لكلِّ سيارة، يجري أسرع منها ويخلي الطريق أمامها. لكن هكذا هو الحال لدى الشعوب المُتَحَصِّرة. الالتزام الحرفي بالقانون من جهة الناس، والتطبيق الحرفي له من جهة المُشرِّع على رقاب كلِّ العباد.

-----

قيل لأعرابي حديث العهد بالإسلام: كيف أنت في دينك؟ فقال في حِكْمَة العارف ببواطن الأمور: "أخرقه بالمعاصي، وأزقعه بالاستغفار!"... وهذا هو ما تفعله طائفة من المُحاميين حيال القانون. فإن كان القضاء أحيانًا ينحاز لظالمٍ ويجني على مظلوم، بموجب ما توافق أمام القاضي من أدلّة، ويفعل مُرافعة مُحامٍ مُخَضَّرَمٍ يجيد إلباس الحقِّ بالباطل والباطل بالحقِّ، فإن الله المُطَّلِعُ على ما تخفيه الصدور، لا يليق بنا أن نهزأ بشريعته وأحكامه،

فنتلاعب بالذنوب والحسنات، ونتراوح بين الورع والموبقات. فهذا قد يجدي نفعًا مع قانونٍ مُهتريٍّ، لا مع ربِّ السماوات!

-----

رُبَّما هذا مشهدٌ من الامتثال للسلطة وطاعة الأوامر واحترام القانون والنظام والنفس، لا نظير له بين بني الإنسان على مَرِّ العصور. فبعدما تقدّم الفاتح العربي المسلم الشهير بـ مرتك إفريقيا عُقبه بن نافع في الشمال الأفريقي بجسارة ومهارة فائقتين، واصلاً في تقدّمه إلى إفريقية (تونس الآن)، مؤسساً مدينة القيروان وبنياً مسجدها، إذا بخليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان يرسل إليه بأمر تنحيته، وتولية رجلٍ من جنوده يُدعى أبو المهاجر دينار. ورغم غزاة الأمر، فإن القائد ذائع الصيت والذي يتباهى التاريخ ببطولاته وفتوحاته، قرأ أمر عزله في هدوء، وامتثل له على الفور، وعاد إلى صفوف المسلمين، جندياً تحت إمرة أبي المهاجر! تمكّن القائد الجديد من تحقيق مكاسب جيّدة مُستعيناً بخبرات القديم، ونجح في التوجّل إلى الغرب على حساب مقاومة الرومان والبربر... وتتوالى الانتصارات والسنون، ويتوالى الخليفة يزيد، وتصدر أوامر جديدة بعودة عُقبه بن نافع إلى قيادة الجيش بالمغرب العربي، واستعادة أبي المهاجر لموقعه القديم في صفوف الجنود!... ويستمرّ الرُحف والتوجّل حتى المحيط الأطلسي قبل

أن يُستشهد البطلان في معركةٍ واحدة!... لا خَيْرَ في ساع  
للسُّلطة، في حاقِدٍ على من بالسُّلطة، وفي مُعْتَرٍ بالسُّلطة!

-----

في صباح 7 أغسطس 1945، وبعد 24 ساعة من إلقاء أول  
قنبلة ذرية في التاريخ، والتي أسفرت عن 119 ألف قتيل و80  
ألف جريح في تسع ثوانٍ... فتحت البنوك اليابانية أبوابها في  
مواعيدها المعتادة وأغلقت في توقيتاتها المقررة سلفًا، وإن لم يدخلها  
سوى عميلٍ واحدٍ فقط في الجزر اليابانية كلها. لم يمنع الدمار  
الذي لحق بالمدينة المنكوبة، وهلاك عشرات الألوف وإصابة  
أضعافهم على مَرِّ العقود بأمراضٍ ناتجة عن القصف، وفساد  
التربة إلى حدِّ أن هيروشيما احتفلت بنموِّ أول زهرة في ثروتها عام  
1984 بعد 39 سنة من إلقاء القنبلة المروعة... لم يخلُ كلُّ ذلك  
دون تطبيق النظام والامتثال للقواعد والانصياع لقانون العمل، دون  
استثناء يفرضه أيُّ طارئٍ كان... في بلادهم لا تمنع الطوارئ  
قانونًا. وفي بلادنا نضع للطوارئ قانونًا!

-----

أحيانًا يؤدي الحرص البالغ على احترام القانون إلى الألتفاف  
الهزليِّ حوله دون كسره. وهذا ما فعلته أوروبا قبل عشرين عامًا.  
فمن المعروف علميًا أن الجزر نبتة خيمية ذات جذور. لكَّته كذلك  
قد صار فاكهة منذ يناير 1991. وقد حدث هذا التغيير المفاجئ

والذي هراً بقوانين علم النبات في رَدِّ فِعْلٍ مُبَاشِرٍ عَلَى إِنْشَاءِ نِظَامِ أوروپِيّ جَدِيدٍ هُوَ الْإِتِّحَادُ الْأوروپِيّ. فَقَدْ كَانَ قَانُونُ السُّوقِ فِي أوروپَا يَفْرِضُ أَنْ تَكُونَ الْمَرْبَاتُ مَصْنُوعَةً مِنَ الْفَوَاكِهِ وَحَسَبٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَتِمَّكَنَّ الْبُرْتِغَالُ مِنْ مُتَابَعَةِ صِنَاعَةِ مَرْبِي الْجَزَّرِ الَّتِي تَشْتَهَرُ بِهَا، وَتَتَجَحَّ فِي بَيْعِهَا دَاخِلَ السُّوقِ الْأوروپِيَّةِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَبْنِيِّ قَرَارٍ "زَّرَاعِيٍّ" يَقْضِي بِتَحْوِيلِ الْجَزَّرِ مِنْ حُضَارٍ إِلَى فَاكِهِة!

-----

يَنْدَهَشُ الْمَرْءُ مِنْ تَقْشِي النِّظَامِ كَعَدْوَى مُحِبِّةٍ إِلَى النَّفْسِ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ. فَبَعْدَمَا نَجَحَتْ أَمْرِيكَا فِي الْإِنْتِصَارِ عَلَى بَرِيطَانِيَا فِي مَعَارِكِ حَرْبِ الْإِسْتِقْلَالِ، ثُمَّ أُنْجَزَتْ دَسْتُورُهَا فِي 1787، فَإِنَّ ائْتِخَابَاتِ الرِّئَاسَةِ قَدْ أُسْفِرَتْ عَنْ ائْتِخَارِ **جورج واشنطن** أَوَّلِ رَئِيسِ أَمْرِيكِي فِي 30 أْبْرِيْلِ 1789، ثُمَّ أُعِيدَ تَنْصِيْبُهُ فِي 4 مَارَسِ 1793. وَمِنَ الْمُدْهَشِ أَنْ يَبْقَى يَوْمَ 4 مَارَسِ الْمَوْعَدِ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ تَنْصِيْبُ جَمِيعِ رُؤَسَاءِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ مِنْ 1793 وَحَتَّى 1933! وَعِنْدَئِذٍ قَضَى التَّعْدِيلُ الـ 20 لِلدَّسْتُورِ الْأَمْرِيكِي بِإِتِّخَاذِ يَوْمِ 20 يَنَايِرٍ مَوْعِدًا لِلتَّصِيْبِ، وَفِيهِ تَمَّ تَنْصِيْبُ الرَّئِيسِ الـ 32 **فرانكلين روزفلت** فِي وِلَايَتِهِ الثَّانِيَةِ 1937. وَبَقِيَ الْمَوْعَدُ الْجَدِيدُ مَعْمُولًا بِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا. وَإِذَا كَانَ رُوزْفَلْتُ الَّذِي تَغَيَّرَ فِي فِتْرَتِهِ يَوْمُ التَّصِيْبِ الْمُقَدَّسِ، قَدْ صَارَ الْإِسْتِثْنَاءُ الْوَحِيدُ فِي التَّارِيخِ الْأَمْرِيكِي، بِإِعَادَةِ ائْتِخَابِهِ لِدَوْرَةٍ ثَالِثَةٍ فِي يَنَايِرِ 1941

بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، ثم تجديد اختياره في دورة رابعة في يناير 1945، قبل أن يقضي نَحْبَه في أبريل من العام نفسه، فإنَّ ذلك لم يشكِّل انتهاكًا للدستور، الذي لم يُحَدِّد مُدَّة الحُكْم بفترةٍين سوى في التعديل الـ 22 للدستور سنة 1951، بينما امتثل جميع رؤساء أمريكا بعد واشنطن لما قرَّره ذلك الرئيس الأوَّل بالامتناع عن التجديد لفترةٍ ثلاثة، عندما طالَبوه بذلك... عندما يتأمَّل المرء دِقَّة النظام الانتخابي الأمريكي على امتداد 215 سنة، يدعو الله أن نستورد خبير دساتير ومُحترف قواعد تأسيسية، مثلما أسرعنا باستيراد مُدرِّب أمريكي مُحترف في كُرَّة القدم؛ كي يصل بنا إلى كأس العالم... شخصيًا أحيِّدُ الوصول إلى العالم دون كأسه!



قبل نحو 400 عام، قام السُلطان العُثماني مراد الرابع بتعيين كمانكش قره باشا في منصب الصدر الأعظم، وهو بمثابة رئيس الوزراء، وإن كان لا يخلو من نفوذ ديني. ورغم عظمة المنصب، ورغم الصيت والجاه والغنى، فإن كمانكش غير مأسوفٍ عليه قد ضرب نقودًا مُزيَّفة - في واقعة مُبَكِّرة لهذا النمط من الاحتيال - وباع الوظائف لمن يدفع الرشاوى، واستغلَّ سُلْطته في جمع أموال طائلة، وأمَّعَن في ظلِّه المواطنين وقهرهم. نما كُلُّ ذلك إلى عِلْم السُلطان مراد الرابع، الذي استدعاه، وأخضعه للتحقيق، وتبيَّن من صدق التُّهَم المُوجَّهة إليه. وأصدر قرارًا قلَّمًا يصدر في دُنْيَا الملوك

والسلطين، بإعدام الصدر الأعظم بعد سبعة أشهر من تعيينه... واللافت للنظر أن ذلك القرار كان له أبلغ الأثر في اعتدال المسؤولين الأتراك وفي تحزيمهم الإخلاص والنزاهة والأمانة لعقود تالية... عندما يُسلط سيف القانون على رقبة كبير القوم، فإنَّ كُلَّ كبيرٍ يخاف على رقبته... اضرب المربوط يخاف السايب. اضرب الحالي يخاف التالي. اضرب الصدر يخاف سائر أعضاء الجسد!



دَخَلَ أعرابيٌّ على الخليفة المأمون، وقال له: "يا أمير المؤمنين، أنا رَجُلٌ من الأعراب". قال: "ولا عَجَب في ذلك". قال: "إني أريد الحَجَّ". قال: "الطريق واسعة". قال: "ليس معي نفقة". قال: "سقط عنك الحَجُّ". قال: "أيها الحاكم جئتكَ مُسْتَجِدًّا لا مُسْتَفْتِيًّا". فضحك المأمون وأمر بإعانتته على الحَجِّ. ورغم ذهبية العصر المأموني، والتقدم الحضاري الذي شهدته الإمبراطورية الإسلامية آنذاك، إلا أنَّ غياب قواعدٍ تُنظِّم حاجة الرعيَّة، فلا يصير الاستثناء طريقًا لتحقيق المآرب، ولا تصبح رحمة الحاكم مقياسًا لإرضاء المحكومين، هو ذاته ما نعانیه اليوم في ظلِّ عدم وجود نظام يضع كُلَّ شيءٍ في موضِعِهِ دون اعتمادٍ على القائد الأب أو الرئيس الحكيم أو المحافظ الرعوم. وذلك ما تابعناه في أزمة مسيحيي مصر إزاء بناء الكنائس أو ترخيصها أو ترميمها. فلا يصحُّ أن يعتمد ذلك على الخواطر والمُجاملات أو دُمائة خُلُق

المسؤول... روى لي صديق مصري، كيف أنه لاحظ في أمريكا وجود كنيسة في مكان غير مأهول، فلم تقم الحكومة برصف الطريق إليها. وعندما سأل قيل له، أن القانون يسمح ببناء الكنائس، لكنه لا يسمح بمدّها بخدمات مجانية، إلا إذا كانت الكنيسة تخدم حدًا أدنى من المواطنين. وفور تحقّق هذا الشرط، تحرّكت الحكومة دون مُناشدة أو استجداء أو طلب على عرض حال دمعة! وما ينطبق على الكنيسة يسري على كلّ مشروع يقوم به الأفراد... ويروي آخر كيف ذهب أحدُهم إلى جهة أمريكية حكومية لاستخراج تصريح لبناء مسجد. نظّرت الجهة في الأوراق، ولم تُمانع، لكنّها اشترطت وجود جراج مُلحق بالمسجد حتى يستوعب سيارات المُصلّين دون خَلق تكدُّس. ولمّا كانت المساحة المُستَناة لا تكفي وجود جراج ومسجد معًا، فإنّ المشروع كاد يُلغى. ثم عادت الجهة الحكومية تقترح على المصري- بعد أن درّست طلبه بعناية - أن يفاوض المسجد الكنيسة المُواجهة له في الشارع نفسه، والتي تختلف أوقات الذروة لديها عن أوقات المسجد، لطبيعة شعائر الأحد مقارنةً بالجمعة، فيقوم المسجد باستخدام جراج الكنيسة ليحلّ أزمة ضيق المكان. تفاوَض المسجد مع الكنيسة، وحلّت المشكلة، بالقانون وبالإنسانية!... النظام نظام، دون جبرِ خواطر أو كسرِ نفس!

-----

ما شعورك كمواطن عندما ترى رئيس جمهورية بلدك يقف خلفك في طابور العيش؟ إن كنت هنا، فلن تشعر، لأنه لن يقف، ولأنه لا يأكل العيش الذي يُباع في نهاية الطابور! وإن كنت هناك، فستبتسم له ابتسامة عريضة، وستطلب من زميل ثالث في الطابور أن يلتقط لكما صورة تضعها على فيسبوك! وعندما تعرف أنّ التليفون لم يتم تركيبه في البيت الأبيض، مقر سكن الرئيس الأمريكي إلا في 1929، بعد 50 سنة من اختراعه، فقط لأنّ التركيب في أمريكا بالدور، والتطعيم بالدور، وإدخال الكهرباء والغاز بالدور، وأنّ لا فضل لبيت أبيض على كوخ أسود إلا بترتيبه في قائمة الانتظار... عندما تتابع كلّ ذلك، وتقارنه بتعطّل المرور في أحد شوارعنا، لأنّ الطريق يضيق لإصلاح ما، ولأنّ السيارات تُراجم وتتاور وتتراكم في أربعة صفوف للمرور عبْر فتحة واحدة، ولأنّ مواقف نادرة تلك التي نجح فيها الناس في الاصطفاف في طابور، سواء كانوا على أقدامهم، أو فوق حوافر أربع أو عجلات أربع... فما عليك إلا أن تبتسم، ثم تسرح، ثم تُوجم، ثم تغضب، بهذا الترتيب نفسه... ولا تنس أن كلّ شيء بالترتيب!

-----

لم يكن أحدٌ يسمع عنه أو يعرف اسمه أو يُلقِي له بالاً قبل يناير 1994 ووفاة المهندس باسل الأسد في حادث سيارة. ولأنّ



الأسد العجوز كان يُجَهِّز شِبْلَه البِكْر لورائته، فلم يَعُدْ هناك مَفْرٌ من إعداد الدكتور بديلاً للباشمهندس. وهكذا تَحَوَّل بِشَّار بِقُدْرَة قادر من طبيب إلى عقيد رُكْن! فالتحق في ظروفٍ غامضة بالجيش فور وفاة أخيه، وتدرَّج في السلك العسكري كما يلي: نقيب في 1994، رائد في 1995، مُقَدِّم رُكْن في 1997، عقيد رُكْن في 1999، ثم قائد الجيش منذ 11 يونيو 2000 بعد وفاة أبيه بيومٍ واحد! ولأنَّ هناك مَنْ اعتقد في فرصة رفعت الأسد عمَّ بِشَّار في خلافة شقيقه، فإنَّ أصحاب المصالح قد نجحوا في تفويت الفرصة عليه باجتماع البرلمان السوري لتعديل المادة 83 من الدستور التي كانت تُنصُّ على ألا تَقَلَّ سِنُّ رَئِيسِ الجُمهُورِيَّةِ عن 40 سنة. فتمَّ التصويت الكوميدي على المادَّة في اجتماع تاريخي بحَقِّ، فأصبحت المادَّة تُنصُّ على أنَّ سِنَّ الرئیس يمكن أن تكون 34 سنة! وهكذا سحب بِشَّار البساط وتولَّى رئاسة الجمهورية العربية السورية في الأول من يوليو 2000. ولم يَزَلْ يَعْضُّ عليها بمخالبه حتى تاريخ كتابة السطور... سمِعْنَا عن طَبِیْخِ القَانُونِ، وعن سَلْقِ القَانُونِ، وعن تفصيل القانون. لكن هذه هي المَرَّةُ الأولى التي نسمع فيها عن هُنْكَ عَرِضِ القَانُونِ بالتلفيح الصناعي!

\*\*\*\*\*

يعاني "المفتَّحين في مصر من قُوَضَى علامات المرور الإرشادية، ويصبح الاعتماد عليها وحدها لأجل الانتقال من مكان

لآخر، صُرِّبًا من ضروب العيب والهديان. ويعاني مُتَحَدُّو الإعاقة في مصر من تلاشي حقوقهم في الحياة الكريمة بمختلف صنوفها. فإن كان القانون يُنصُّ على نسبة من العمالة للمُعَوَّقِينَ، فهي نقشٌ على ماءٍ، وبيوتٌ من رملٍ. وإن كان القانون يُخصِّص لهم أماكن بعينها في المواصلات، فالوصول إليها يشبه قِصَّة طائر البَشْرُوش ذي المنقار الطويل مع الثعلب المكار. إذ دعا البَشْرُوش الثعلب على وليمةٍ في دُورقٍ عميقٍ ذي فُتْحَةٍ ضيقة. فعَجَزَ الثعلب عن الوصول إلى الأكل، بينما لم يُعانِ البَشْرُوش لطول منقاره. ثم أَحَبَّ الثعلب أن يَرُدَّ له العزومة، فأعدَّ الطعام في صحنٍ مقلطح، وأكل في نَهْمٍ وترك صديقه البَشْرُوش حائرًا بمنقاره! وهكذا نقرأ في المواصلات العامة يافطة تشير إلى تخصيص مقاعد مُحدَّدة للمُعاقين، بينما لا توجد آلية واضحة للمُعاق كي يركب الحافلات التي تُهدئ من سُرعته في المَحَطَّات دون تَوَقُّف، والتي لا تتناسب أماكن الصعود إليها والهبوط منها مع المُعاقين، فضلًا عن تجاهل الأَصِحَّاء للإرشادات وشغل أماكن لا تُخصِّصهم... وبينما الحال هكذا في بلادنا، يشعر المرء بالحسرة وهو يتابع احترام حقوق الإنسان ووضع القواعد التي تناسب كلَّ البشر دون تمييز في بلاد الغرب. فعلى سبيل المثال، صار في إمكان العميان أن يرتادوا مَحَطَّات مترو الأنفاق في بلاد العالم الأول، ويقرءوا الخرائط ويجدوا طريقهم دون مساعدة، وذلك بفضل ابتكار خرائط خاصَّة

للعميان تعتمد على التجسيم، بل وتعكف بعض الدول حاليًا على وضع صيغة سمعية لخرائط العميان باستخدام الأقراص المُدمَّجة. نقتد بلادنا لمبدأ الاحترام. احترام الشعوب للقانون، احترام الحكومات للشعوب، واحترام البشر لبعضهم بعضًا!

\*\*\*\*\*

حَدَّثَ بالفيوم: زيارة رسمية على مستوى رفيع. وزير ومُحافظ وسفير على الطريق السريع. يستقلُّون أتوبيسًا فاخرًا لتفقد المشاريع. قَطَعَ جِمَارَ الطريق، فداسه الأتوبيس وسقط الجِمار الصريع. نزل المُحافظ يسترضي صاحب الجِمار؛ حِفاظًا على سُمعة مصر الأتية. رَفَضَ الفلاح العوض، وطالب بجاموسة مُبتهلاً إِيَّه المُجيب السميع. رَغَزَ الوزير للمُحافظ مُذَكِّرًا إِيَّاه بالسفير والكاميرا وعايز تديع نديع! رَضَخَ المُحافظ ونفقَ الجِمار وعاش الجميع!... بعيدًا عن السَّجَع، فإنَّ الواقعة قد حَدَّثَتْ بالفعل قُبَيْل الثورة. وتُجسِّد كُلَّ عَوْرَات المُجتمع المصري في مشهدٍ واحد. لا يوجد قانون يؤمِّن طُرُق السفر من نَرَوَات الماشية والمُشاة. لا يوجد قانون يُنظِّم عمليات التعويض. لا يوجد أهُمُّ من سُمعة مصر الدولية أمام الأعراب، والتي تجعلنا نُعَلِّم أطفالنا عبْر أغلفة كُتُب المَدارس الأتية. نبصق أو نلقي القاذورات حِفاظًا على صورة بلدنا أمام الأجنب. وإنَّ وُجِدَتْ القوانين، فلا يوجد مَنْ يُنقِذها، فَضلاً عَمَّن يحترمها.

\*\*\*\*\*

أشهرُ عنوان في بريطانيا هو 10 شارع داوننج. وهو مقرُّ رئاسة الوزارة هناك. ومن عَجَبِ الأمور أنَّ باب المقرِّ لا يُفْتَحُ إلاَّ من الداخل. فلا أحد ولا حتى رئيس الوزراء يملك المفتاح. في الأمم التي تحترم القوانين والنُّظْم، المناصب أكبر من المنصَّبين. وفي أممٍ أُخرى، المناصب من نصيب النَّصَّابين!



أرسل السيد مراد خير الدين مدير معهد قصر الرياضة بالزمالك إلى الصحفي محمد التابعي في أربعينيات القرن الماضي هذه الرسالة التي نقتطف منها سطورًا: "في سيارات الأتوبيس نقرأ هذه الجملة المكتوبة بخطِّ جميل: البصق والتدخين ممنوعان. ولكن الملاحظ دائمًا أنَّ الكُمسري يُدخِّن والسائق يبصق وبعض الركاب يُركُونهما بالقيام بالمهمَّتين معًا. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يتعاون فيه السائق والكُمسري والركَّاب! وعلى جُدران بعض الشوارع الكبيرة كُتِبَ ما يأتي: ممنوع التبول بأمر الحكومة. وفي الغالب نرى مخلوقًا يقوم بقراءة هذه الجملة أثناء مرْمطة هذا الأمر الحازم. إنَّ الطفل الذي يركب الأتوبيس ويسير في الشارع ويرى الكُلَّ يُجمعون على مخالفة الأوامر، له كُلُّ العُذر إذا ما خرج على طاعة المدرسة والمنزل ثم المُجتمع، مادام يرى الجميع يخالفون القوانين. بماذا يُجيب الوالد طفله لو سأله: لماذا لا يُنقِذ الناس التعليمات المكتوبة في كَلِّ مكان؟ هل يقول له أنَّ أهل هذا البلد لا

يحترمون قانونًا أو نظامًا أو يخبره أن أولي الأمر غير جادّين فيما يصنعون من لوائح ونظم؟ وهل يُنتظر من مثل هذا الطفل أن يُطّبع على احترام القانون؟؟ "... حَسَنًا، مشاكلنا قديمة قَدَم الأتوبيس والجُدُران والأطفال والقانون والمُجتمع والناس! وهذا الطفل الحائر هو مَنْ يتصدَّر المشهد اليوم في الرئاسة والحكومة والمعارضة! لكن هل لي أن أسأل لماذا اخْتَفَّت لافِتة ممنوع التَّبَوُّل بأمر الحكومة؟ 1. لأنَّ الحكومة فقَدَت الأمل في منع المواطن من مُمارسة حقِّه الطبيعي. 2. لأنَّ الحكومة كانت تُوقِّر مراحيض عامَّة، فكان لها عين أن تنهي المواطن عن التَّبَوُّل على الحوائط. 3. لأنَّ الحكومة نفسها تتبَوُّل على الجُدُران وعلى المواطن!

-----

هل يظنُّ أحدنا أن تطبيق القانون الذي هو مُراعاة القواعد والامتثال للنظام والطاعة للأوامر هو شيءٌ بعيدٌ عنَّا؟ فلننظر إلى ديننا بشيءٍ من التدقيق. الوضوء له قواعد صارمة. الصلاة لها أوقات مُحدَّدة. وتسوية الصفوف من تمام الصلاة. ولا يُنظر الله إلى الصَفِّ الأَعْوَج. ملايين المُصلِّين في الحَرَم يقومون من جلستهم حال أذان الإقامة، ويصنطفون في ثوانٍ في انتظام عجيب. الزكاة لها حسابات. الحَجُّ له ميقات. الصَّوم له ميعاد. كيف نستطيع الانضباط في مواضع، ولا نستطيعه في مواضع؟؟

طَبِّقُوا وَلَا تُطَبِّقُوا!

## Ya 3am Rooooo7!!

I missed the bus... لقد فَوَّتُ الأتوبيس.

The bus missed me... لقد فاتتني الأتوبيس.

هل هذا عَيْبٌ في لُغَة العرب، أم عَيْبٌ في عرب اللُغَة؟؟ هل  
تنسب الخلل إلى الأتوبيس الجَمَادِ المُتَفَادِ المُضْبِطِ، أم تنسب  
الخلل إلى الإنسان المُتَحَرِّكِ العاقل المُتَأَجِّرُ؟؟ هل نلوم غَيْرنا  
كسَلًا، أم نلوم أنفسنا قَسَلًا؟؟

-----

"من مَعِين اللُغَة العربية الخالِص، أمكن نَحْتُ تعابير واشتقاق  
مُصطلَّحات في غاية الدِقَّة، وَفَقًا لِمُتَطَلِّباتِ الفنون والعلوم الجديدة.  
أفلم يَكُنْ من العجيب أن تستوعب لُغَة كهذه كُلُّ علوم العالم  
الإغريقي وفنونه، بدون أن تقوم شُبُهَة ما على قِصُورِ لها، أو جُهد  
تَحَمُّلُته مصادرها في سبيل النهوض بتلك التَّبِعَة؟ لقد صَلَّحَ اللسان  
العربي للتعبير عن العلاقات بإيجاز، لمرونته وقابليته الاشتقاقية  
الفائقة في الاسم والفِعْل".

المُسْتَشْرِقُ الإنجليزِي ألفريد جيوم

"العربية لُغَة دقيقة التعبير. تُذَكِّرُ المرءَ بأسلوب فولتير. فهي  
أكثر ملاءمة للعلم الدقيق منها للفخامة الشعرية. كما تمتاز

بمرونتها في الاستجابة لمطالب المُصطلحات الفنيّة والتعبير  
العُلمية الدقيقة. لم يَكُنْ عُلَماء العرب يكتبون شِعْرًا كالهندوس الذين  
كانوا يؤلّفون أعمالهم الجبْرِية في شكل قصائد شِعْر طويلة. ولم  
يعالجوا مسائل تاريخية كالإغريق. إنهم أكثر واقعيّة من الإغريق".

المُستشرق الفرنسي البارون كارادي فو

"كانت اللاتينية لُغة بربرية غليظة الكتابة، إذا ما قيسَتْ  
بالعربية. وكلُّ ما كان ميسورًا من أدبيّاتها فهو تافهٌ قليل الأهمية.  
لذلك وَجَدْنَا أسْفَنًا في قرطبة لا يَشْتَطُّ كثيرًا في لوم رعاياه لِقَلّة  
إيمانهم، بقدر ما يَشْتَطُّ في تأنيبهم لتفضيلهم الشِعْر والنثر العربيين  
على قصص آباثهم الدينية".

المُستشرق الإسباني براند تراند

ومن شكّوى ذلك الأسقف القرطبي ننتقي هذه الفقرة: "إنَّ كثيرين  
من أبناء ديني يقرعون أساطير العرب، ويتدارسون كتابات  
المُسلمين من الفلاسفة وعُلَماء الدين؛ لا ليدحضوها؛ وإنما ليتقنوا  
اللُغة العربية ويحسنوا التوسُّل بها حسب التعبير القويم والذوق  
السليم. وأين نقع اليوم على المسيحي من غير المتخصّصين الذي  
يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل مَنْ ذا الذي يدرس منهم حتى  
الأنجيل الأربعة، والأنبياء ورسائل الرُّسل؟ إنَّ الشبَّان المسيحيين  
الذين لَمَعوا وفاقوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لُغة العرب

والأدب العربي! إنهم يتعمقون دراسة المراجع العربية بإذلين في قراءتها ودراستها كُلَّ ما في وسعهم من طاقة، مُتَفَقِّين المَبَالِغ الطائفة في اقتناء الكُتُب العربية وإنشاء مكاتب خاصة. ويذيعون جَهْرًا في كُلِّ مكان أنَّ ذلك الأدب العربي جديرٌ بالإكبار والإعجاب! إِنَّ المسيحيين قد نسوا لُغَتَهُم الأمّ. فلا تكاد تجد اليوم واحدًا في الألف يستطيع أن يُدَبِّج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة. بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد مَنْ يُحْسِن منهم العربية تعبيرًا وكتابةً. بل إنَّ منهم مَنْ يقرض الشَّعْر بالعربية، حتى لقد حَدَّقوه وبدَّوا في ذلك العرب أنفسهم!".

"لقد أصبَحَتْ المصادر الإغريقية العربية هي ألف باء العِلْم. وارتفع الاسم العربي في ذلك الوقت إلى درجة أنه لكي يفسح الأطباء والكيميائيون والصيدلة والفلاسفة الطريق أمام نتاجهم الفِكرِي في الأوساط التَّخْصُصِيَّة، كانوا يطبعونه بالاسم العربي - اللاتيني ل ابن سينا أو جابر بن حيان، بحيث تعمل على شِدِّ اهتمام المُتَعَلِّمين

المُستشرقة الألمانية زيجريد هونكه

فأما عبارتا الإنجليزي والفرنسي، فهاتان تتسِفان الادِّعاء القائل بأنَّ العربية لُغَةٌ أشعار ومُحَسِّنَات بديعية ولا شأن لها بالعِلْم، ولا شأن لمُتَكَلِّمِيهَا وكتابِيهَا بمناهج الدراسات المُتَقَدِّمة! والحقُّ أنَّ



العَيْبَ لَمْ يَكُنْ قَطْ فِي اللُّغَةِ، بَلْ فَيَمَنْ تَخَلَّفُوا عَنِ الرَّكْبِ، ثُمَّ أَلْصَقُوا النَّهْمَ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا بِالْعَرَبِ!... وَأَمَّا عِبَارَاتُ الْإِسْبَانِيِّينَ، فَهَاتَانِ تَشِيرَانِ إِلَى اسْتِحْسَانِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى حِسَابِ لُغَاتِ أَرْوْبَاءَ، حَتَّى بَاتَ الشَّبَابُ يُفْضِلُ الْقِرَاءَةَ بِالْعَرَبِيَّةِ، بَلْ وَالتَّأْلِيفَ كَذَلِكَ بِالْعَرَبِيَّةِ لَمَنْ يَجِيْدُ مِنْهُمْ التَّأْلِيفَ. وَاليَوْمَ تَجِدُ الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ "الْعَصْرِيَّ" هُوَ ذَلِكَ الَّذِي يُوَفِّقُ بِاللُّغَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ!... وَأَمَّا عِبَارَةُ الْأَلْمَانِيَّةِ، فَهِيَ لَا تَشِيرُ إِلَى بَرَاةِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِ فَحَسْبُ، بَلْ إِلَى شَعْبِيَّةِ أَسْمَائِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ وَمَنْشَأَمُ الْعَرَبِيَّ كَدَلِيلِ جَوْدَةِ عَلَى مُحْتَوَى الْكُتُبِ... يَا اللَّهُ! إِنَّهَا حَالَةٌ تُحَاكِي مَا نَصَادِفُهُ الْيَوْمَ تَمَامًا.

Made in Japan... عبارة تطمين كُبْرَى لِذِقَّةِ المصنوع.

Written by Arabs. إعلان عبقرى جاذب لمُتَلَقِّي

الموضوع!

-----

فِي مَدَارِسِنَا الدَّوْلِيَّةِ، يُرَوِّجُ لِمَفْهُومِ خَطِيئٍ وَكَاذِبٍ يَقُولُ: أَنْتِ تَدْرُسُ لُغَةَ أَعْجَبِيَّةٍ، فَأَنْتِ أَكْثَرُ رُقِيًّا. وَمَحْظُورٌ عَلَيْكَ أَنْ تَتَكَلَّمِ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْفُسْحَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ. وَمَطْلُوبُ مَنْ أَهْلَكَ أَنْ يَخَاطَبُوكَ فِي الْبَيْتِ بِاللُّغَةِ الْأَعْجَبِيَّةِ إِنْ كَانُوا يَجِيْدُونَهَا. وَعَلَيْهِمْ تَلَقِّيْ دُرُوسَ تَقْوِيَّةٍ، إِنْ لَمْ يَكُونُوا يَجِيْدُونَهَا... وَتَتَوَازَى اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْأُمُّ بِشَكْلِ مُدْهِشٍ. وَيَنْشَأُ الْأَطْفَالُ يُتَمَاءُ الْأُمُّ وَهِيَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، بَعْدَ أَنْ

أودعوها دار المُسَيِّين، واستبدلوها بجارة مدندشة تلبس الباروكة!  
تُعاقِب بعض المدارس تلاميذها إنْ ضُبطوا يتقَوَّهون بالعربية في  
دقائق ما بين الحصص. وذلك حتى يعتادوا إتقان اللُّغة الأجنبية،  
وهو ما يزيد من احتقار الطفل للُّغة بلده... وبالتالي بلده!

في مدارسنا الباهظة المصاريف، يُرَكِّز مُعَلِّمُو اللُّغات باختلاف  
جنسياتهم وجنسياتها على إتقان اللُّكنة السليمة للإنجليزية والألمانية  
والفرنسية. ولا يُصاحِب هذا التركيز في أيَّة مرحلة تعليمية تركيزٌ  
مُماثِلٌ على إتقان نُطق اللُّغة العربية. فتجد التلميذ المصري لا  
يعرف الفوارق بين الذال والظاء والزاي (الزين). ولا يُتَّصِفُ جَيِّدًا  
للاختلاف بين التاء والسين والصاد. وعلى النقيض من ذلك، فهو  
بارِعٌ في التمييز بين الباء الثقيلة والباء الخفيفة، ضليعٌ في إخراج  
لسانه في بعض مخارج حروف اللُّغات الأجنبية، شنيعٌ في إخراج  
لسانه للُّغته العربية!

في مدارسنا للُّغات، وفي واحدٍ من مظاهر التَّبَاهِي في سِنِ  
المُراهقة، تنتظر زميلتك إليك، فتسعد بك مُسِيكًا برواية درامية لـ  
ديكنز أو قصيدة ناعمة لـ هاينه أو مسرحية هزلية لـ موليير. بينما  
تسقط من حساباتها إنْ كُنْتَ تقرأ مقالاً لـ العقاد أو قصَّة قصيرة لـ  
السباعي أو نصًّا شعريًّا لـ ابن الرومي. باختصار، تبقى مش من  
مستواها، وجدك مش قائد طابية!

في مدارسنا الأجنبية قد يُخاطب الطِّفْل المصري الأب والأم والسِّخنة أبلّة عِنَايَات مُعَلِّمة التربية الوطنية بقوله ميس إنايات، بتغييب العين! وقد يُخاطب الأستاذ حلاوة مُدَرِّس الجُغرافيا، بقوله هر هلاوة، بتسفيه الحاء!... فالعربية تتعرّض لمذبحة حقيقية في كثيرٍ من مدارسنا. وتذوب الهويّة العربية في كوب من عصير الاستعلاء المصري على ذاته، إلى الحَدِّ الذي قد يدفعنا إلى نُطق أسماننا العربية بلُكنة أجنبية حتى تبدو مألوفة للسامعين!

يَكْتُبُ شباب العرب على الإنترنت لَعَنَتهم العربية بحروف إنجليزية، ما يصطلحون عليه بقَوْلهم الفرانكو آراب. وهي مسألة تَمُّ عن أمرٍ من ثلاثة: استعلاء على اللُغة العربية. جهل باللُغة العربية. افتقاد لوحة مفاتيح مطبوعة بالحروف العربية. وهذا السبب الثالث هو عُذْرُ أَفْبَحٍ من ذنب!

هناك نقاط... وهناك نُقْط... وهناك نُقُوط!

فأمّا النِقَاط، فهو ذلك التَّنْقِيط الذي يُفَرِّق بين القاف والفاء، أو الصاد والضاد، أو الباء والتاء والثاء. وكان العرب قديماً يحسنون القراءة دون نقاط، اعْتِمَادًا على فَهْم العبارة أثناء قراءتها!... وقيل أنَّ رَجُلًا روميَّ الأصل أتى الحَجَّاج بن يوسف يلقي عليه أبياتًا من الشِّعْر. فجاءتْ ممسوخة مُشوَّهة بسبب عدم وجود نقاط على الأخرُف. فتندمَّر الحَجَّاج، وأمرَ عالم اللُغة نصر بن عاصم بنوَلِي

تلك المسألة. وبشكلٍ عام، فإن المسلمين الأوائل خافوا أن يجري التباس في قراءة القرآن على مَرِّ الزمن. ورأوا من الواجب تثبيت الكلام ذرءًا للاختلاف والخطأ.

وأما النُّقْط، فهي علامات التشكيل لضبط حركة الكلمات... وقيل أنَّها من وَضَعِ أَبِي الأسود الدُّوَلِيِّ. وَيَعْرُو بعض المؤرِّخين ذلك إلى حوار دار بينه وبين ابنته. فقد سَمِعَهَا تقول: "ما أَجْمَلُ السَّمَاءِ؟" فَرَدَّ قائلًا: "نجومها". فقالت: "إِنَّمَا تَعَجَّبْتُ من حُسْنِ السَّمَاءِ". فقال: "إِذَا قولي ما أَجْمَلِ السَّمَاءِ!" وبالمِثْلِ، فإنَّ حَشِيَّةَ المسلمين الأوائل من أن يُساءَ فَهْمَ معاني القرآن الكريم، قد شَجَّعَهُم على إقرار مبدأ تشكيل الحروف، مَنَعًا لِلخَطِّ والتضارُبِ.

وأما النقط، فهو ما يقوم بعضهم بتقطيعه فوق جسد راقصة تنمايل وهي تُعَنِّي قائلة: حُطُّ النُّقْطِ فوق الحروف!

رَجَمَ اللهُ أولئك الذين كانوا يُحَسِّنون قراءة العربية دون نُقْطِ أو نِقاط. وَعَفَّرَ اللهُ لأولئك الذين حَوَّلوها إلى حروف لاتينية ورموز رقمية تصيب القارئ بالحول!

27na 25er 3a6'ama!

إنَّ اللُّغَةَ العربية هي إِحْدَى اللُّغَاتِ الست الرسمية المُعْتَمَدَةِ من قِبَلِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ، والتي تزيد كلماتها على 500 مليون كلمة،

وينطق بها 350 مليون عربي، بخلاف مئات الملايين من المسلمين الذين درسوها. ومع ذلك، فإنَّ هذه اللُّغة تَحْتَلُّ المرتبة العاشرة على مستوى العالم من حيث الاستخدام على الإنترنت، بالتساوي مع اللُّغة الإيطالية!

حزِينٌ على مصير اللُّغة العربية؟؟ إذا تعال ادرس معي هذه الملاحظات قبل أن تنتهي من هذا المقال الكئيب!

أولاً: الارتباط باللُّغة يأتي لاحقاً على التقدُّم الحضاري. فتزدهر اللُّغة كنتاج طبيعي لازدهار ثقافتها وعلومها. وتكتسب سُمعتها وبريقها ممَّا تَحْطُهُ أيادي العُلَماء بها، وينقله الآخرون عنها. وتنتزع مكانتها كرز فعل بديهي للانحطاط العِلْمِي والحضاري. فكُلَّمَا اتَّسَعَتْ حضارة أمة، كُلَّمَا نَهَضَتْ لُغَتُهَا. والعكس صحيح... وفي ذلك يقول المؤرِّخ الأمريكي الشهير جورج سارتون: "منذ مُنْتَصَف القرن الثامن الميلادي وحتى نهاية القرن الحادي عشر، كانت اللُّغة العربية هي لُغة العِلْم للجنس البشري، إلى الحدِّ الذي لم يَكُنْ من المُمكن لأيِّ شخصٍ أن يتعرَّف على ثقافة العصر وآخر ما توصل إليه العِلْم، إلَّا إذا تعلَّم اللُّغة العربية أولاً!... بل إنَّ الاهتمام باللُّغة العربية قد امتدَّ إلى ما هو أبعد زَمناً من ذلك. فطُبِعَ القرآن في البُنْدُقية في 1530، وأسس البابا يوليوس الثاني مطبَّعة عربية في مطلع القرن نفسه، ودرست العربية في أكسفورد

1636... أما رائد علم الاجتماع العربي التونسي ابن خلدون، فيشكو في القرن الرابع عشر بالفصل الثالث والعشرين من الباب الثاني من مُقَدِّمته من النقيض قائلاً: "إِنَّ الْمَغْلُوبَ مَوْلَعٌ أَبَدًا بِالْاِقْتِدَاءِ بِالْغَالِبِ فِي شِعَارِهِ وَزِيَّهِ وَنِحْلَتِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ وَعَوَائِدِهِ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِي مَنْ غَلَبَهَا، وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ. إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ، أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنْ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لَغُلْبٍ طَبِيعِيٍّ، إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ. فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَ لَهَا اعْتِقَادًا، انْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ".

ثانيًا: هو من قبيل الإيعاء الباطل أن نقرن اللُّغة العربية بالثُّرَات والأدب، في حين نقرن اللُّغات الأجنبيَّة بالعلوم الحديثة. لم تعجز العربية قبل ألف سنة. ولكن عَجَزَ العرب بعد الألف سنة!

ثالثًا: من العَبَث أن نُطالِب بتدريس العلوم الطِّبِيَّة والهندسيَّة بالعربية، بينما لا يُساهم العرب في تقدُّم تلك العلوم. على مَنْ يَغَار على لُغة قومه، أن يثور أولاً على جهل قومه!... وفي ذلك يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه تجديد الفكر العربي: "لم نكنُ الفُصْحَى في ثرَاتنا الأدبي أداةً للاتِّصال بمشكِلات العالم الأرضي، ولا وسيلةً للثقافة المُتَّصِلة بحياة الناس وأزمانهم. وليس في ثالتنا ما يُناقِض ثانياً. غاية ما هُنالك أنَّ العربية لُغة بارعة فضفاضة،

قَصَرَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى إِقَاءِ الشِّعْرِ وَالتَّهْلِيلِ لَهُ فِي نَشْوَةِ وَانْسِجَامِ  
أَثْنَاءِ تَعَاطِيِ الْحَشِيشِ أَوْ مُعَاقَرَةِ الخَمْرِ، وَحَجَبَهَا عَنِ لَعِبِ دَوْرِ  
تَنْقِيْفِي جَبَّارٍ قَامَتْ بِهِ مِنْ قَبْلِ عَلَى صَعِيدِ التَّنْوِيرِ وَالْعُلُومِ.

رَابِعًا: إِنَّ "الإسبرانتو المصري الذي يشتمل على عبارات  
مَمْسُوخَةٍ تَضُمُّ كَلِمَاتٍ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ مَحْشُوءَةً بِجُمْلٍ أَعْجَبِيَّةٍ، كَبَيَانَ  
عَلَى رُقِيِّ الْمَسْتَوَى الْاجْتِمَاعِيِّ، هُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى الْاِحْتِقَارِ  
الذَّاتِيِّ الَّذِي نَمَارَسُهُ بِالْبِصْقِ عَلَى أَنْفُسِنَا فِي مِرَاةِ الْحَاضِرِ،  
وَذِكْرِيَّاتِ الْمَاضِي، وَتَمَنِّيَّاتِ الْمُسْتَقْبَلِ!... وَتَحَضَّرْنِي هُنَا وَاقِعَةٌ  
تَخُصُّ الشَّاعِرَ وَالرُّوَائِيَّ الْأَمْرِيكِيَّ الْكَبِيرَ إِدْجَارَ آلَانَ بُو، وَلَهُ  
قَصِيدَةٌ فِي مَطْلَعِ حَيَاتِهِ الْأَدْبِيَّةِ بِعَنْوَانِ "الأعراف". وَهِيَ قَصِيدَةٌ  
مُسْتَوْحَاةٌ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِنْ فِرْطِ انْبِهَارِهِ  
بِحَلَاوَةِ الْأَلْفَاظِ وَرُوعَةِ الْمَعَانِي وَسِحْرِ الْمَوْسِيقَى!... ثُمَّ تَمُرُّ 170  
سَنَةً عَلَى قَصِيدَتِهِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ ذَاتِ النِّكْهَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَتُظْهِرُ أَحْيَالَ  
عَرَبِيَّةً مُصَابَةً بِالْأَشْمِزَازِ - بِالْمَعْنَى الْحَرْفِيَّ لِلْكَلِمَةِ - مِنْ كُلِّ مَا  
هُوَ عَرَبِيٌّ اللَّهْجَةَ وَالطَّابِعَ. تَسْتَمْتَعُ بِمَوْسِيقَى الْبُوبِ وَالرَّابِ، وَتَتَذَوَّقُ  
بِالسَّاعَاتِ ضَرْبَاتِ الْمِيْتَالِيكَا، وَتَتَفَرَّغُ مِنْ دَقَائِقِ إِذَاعَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،  
وَتُحَوَّلُ الْقَنَاةُ إِنَّ حَانَتْ ثَوَانِي آذَانَ الْعَصْرِ!

خَامِسًا: إِنَّ إِضْعَافَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هُوَ هَدَفٌ إِسْتِرَاطِيْجِيٌّ لِبَعْضِ  
أَعْدَائِنَا دُونَ خَشْيَةِ الْاِنْزِلَاقِ فِي نَظْرِيَّةِ الْمُوَامَرَةِ. فَتَهْمِيشُ الْعَرَبِيَّةِ قَدْ

يعني مع الوقت انقطاع الصلّة بين المسلمين وبين قرّانهم، ذلك الحصن الباقي الحامي من الانسلاخ الكامل وفقدان الهوية تحت ضربات الغزو الثقافي المُمتهج... وفي المعنى ذاته، كتب الشيخ محمد الغزالي يقول: "وتكاد القارة الإفريقية تكون مقسومة بين الدول الناطقة بالفرنسية، والناطقّة بالإنجليزية. فما وضع اللّغة العربية في قارة أغلب سُكّانها مُسلمون؟ إنّ لّغة الوحي هي الدّعاة الكُبرى للوحدة الإسلامية. مع موت هذه اللّغة سيموت التعليم والنفاهم والزّباط الأدبي المشترك. وستنشأ أجيالٌ مُنكرة لثرائها وتقاليدها، بل لعباداتها وشعائرها. ومن أجل ذلك يجب أن نقايل دون اللّغة العربية، وألاً نأذن أبداً بدخرجتها لتكون لّغة ثانية، ثمّ ثالثة، ثمّ لّغة ميته. يتيم بعدها تكفين الكتاب والسنة! إنّ الناس من حولنا يتجمعون على عقائدهم ويتنادون بشعاراتها. وإذا سمحنا لأسباب الفرقة أن تتال منّا؛ فلا مُستقبل لنا، لأننا لن نكون!"

سادساً: إنّ كلّ الذين تقدّموا في التاريخ، بدأوا رحلتهم بالاقْتباس والتعلّم والنقل دون التفریط في لغتهم الأم. واليابان على سبيل المثال، والتي بدأت نهضتها في القرن التاسع عشر مُترامنة مع بدايتها التي لم يُكتب لها الاكتمال، لم تتخلّ قط عن لغتها اليابانية. بل إنّنا نجدهم اليوم يبهرون الدنيا بالإعلان عن برامج ترجمة فوريّة لعشر لغات مُتداولة على الإنترنت من وإلى اليابانية؛ كي يفتح شعبهم على العالم دون أن يستغني عن لغته. في اليابان



وفي غيرها من الدول، ليس الْمُتَقَفُّ الْمُتَعَلِّمُ الْمُتَحَضِّرُ ابنِ الناسِ هو ذلك الذي يتكلم ثلاث لغات أجنبية ولا تحمل رأسه سوى كلمات جوفاء بلا علم أو فكرٍ أو معرفة!

سابعًا: إنَّ الذين يتصوِّرون أنَّ تركيا قد تقدَّمت لأنَّها تخلَّتْ عن الحروف العربية، أو بدَّلتْ إجازتها الأسبوعية من الجمعة إلى الأحد، هم أشبه بمن يتخيِّلون أنَّ الشمس تشرق لأنَّ الديك يصيح. استدلال ساذج واعتقاد مريض!

ثامنًا: التناوُل المَنهَجِي في التعليم يُكْرِسُ كُلَّ جُهده من أجل نَقْصِي الأزيمة وانحطاط اللُّغة. فمنهج اللُّغة العربية في أيَّة مرحلة تعليمية يكاد يخلو من أيِّ نصٍّ غير أدبي. بينما لا يكاد يخلو منهج اللُّغات الأجنبية من نصٍّ عِلْمِي!... هُنَا تسود عقليةٌ مَن يَرْبُط اللُّغة بالشِّعر والمُبَالَغة والثناء والهجاء والرتاء. وهُنَاكَ تسود عقليةٌ مَن يستعمل اللُّغة كأداة توصيل عِلْمِيَّة، لا وسيلة للاستمتاع والتدُّوق.

كفُّوا عن الإسترْبِيز الفكري. لُغَتُنَا قَادِرَةٌ عَلَى ما هو أَرْقى من ذلك!

## فضيلة الفضول (4)

إنَّ الفضول يقهر الخوف، أعظم بكثير مما تفعل الشجاعة.  
الشاعر الأيرلندي جيمس ستيفنس

إذا كان الإيطالي كريستوفر كولومبس قد حاول إثبات كُرْوِيَّة الأرض عملياً بالسفر غرباً بحثاً عن الهند الشرقية، مُكتشفاً جُزُر الهند الغربية، مُطلقاً ومَن خَلَفوه اسم الهنود الحُمُر على السُّكَّان الأصليين للأمريكيتين، فإنَّ البُرتغالي فرديناندو دو ماجلان قد كَرَّر المحاولة نفسها للبرهنة على كُرْوِيَّة الأرض. ولكن بالترحال إلى الجنوب الغربي هذه المرَّة أملاً في تجاوز الأمريكيتين بالالتفاف حولهما، وصولاً إلى أقصى الشرق ومنه إلى الغرب!

يشارك المغامران في أنَّ كليهما لم يجد مُساندةً من ملك بلاده، وأنَّ كليهما لجأ إلى ملك إسبانيا في زمنه. فقامت إيزابيلاً الأولى برعاية رحلة الأول، وقام كارلوس الخامس بتمويل رحلة الثاني، في مقابل مصالح إسبانية كبيرة في المرَّتين بالأراضي المُكتسفة.

وُلِد ماجلان في 1480، وخدم في الهند البُرتغالية تحت رئاسة دي ألميدا، ثم في المغرب الأقصى. ومع شيوع الرحلات البحرية والمغامرات الاستكشافية، أراد أن يبحر في رحلة حوّل العالم في 1517. ولم يحظ بمُساندة ملك البُرتغال، فأعطاه ملك إسبانيا

المال اللازم؛ لينحرَك في أغسطس 1519 بصُحبة 270 رجلاً على متن أسطول مُكوّن من خمسة مراكب.

بدأت الرحلة من إشبيلية، وصولاً إلى جُزر الكناري، ومنها إلى الرأس الأخضر. ومن هناك ضبط مسار رحلته في اتجاه البرازيل. وقُبيل نهاية نوفمبر، كان الأسطول قد عَبَرَ خطَّ الاستواء الوهمي. وفي مُنتصف ديسمبر رَسِيَ الأسطول في منطقة نائية تُسَمَّى اليوم ريو دي جانيرو عاصمة البرازيل القديمة. وهناك تزوَّدت السفن بالموّن. ثم واصلت مسيرتها بمحاذاة الساحل الشرقي للقارة الجنوبية أملاً في الوصول إلى نهاية له؛ تمهيداً للدوران حوله.

وبعد السيطرة على تَمَرْدٍ، ومروراً بالتوقّف بالأرجنتين، أرسل ماجلان السفينة سانتياجو في أغسطس 1520 لاستكشاف الطريق جنوباً. لكنّها تحطّمت في عاصفة مُدوِيّة. ونجّأ بحارتها بالسباحة إلى الشاطئ القريب. تَمَكَّن بعضهم من الوصول بَرّاً إلى مُعسكر ماجلان في الشمال. وأخبروه بما جرى. فقَرَّر التّمهّل في المسير إشفاقاً على أسطوله من العواصف. ثم اتَّخَذ قراره أخيراً ببدء الرحلة الشاقّة عَبْرَ المَمَرِّ المُلتفِّ الخَطير الذي يفصل القارّة القطبيّة عن أمريكا الجنوبية. وقد أسماه ماجلان مضيق جميع القديسين؛ لأنّه بدأ مُحاولَة العبور في عيدهم المُوافق الأوّل من نوفمبر، وهو المضيق الذي يحمل اليوم اسم ماجلان تخليداً لذكراه.

رفضت إحدى السفن الأربع إكمال الرحلة، وانسحبت عائدة إلى إسبانيا. ونجح الباقون في عبور المضيق الذي يربط الأطلسي بالهادئ. ويرجع اسم الهادئ إلى ماجلان الذي أسماه الباسيفيكي المُشْتَقَّ من كلمة لاتينية تعني الهدوء، والتي يُشْتَقُّ منها كذلك اللفظة الإنجليزية peaceful بمعنى المُسالِم. وأصل الاسم يعود إلى الأمواج العاتية التي واجهها ماجلان وبخارته في المنطقة الفاصلة بين المُحيطَيْن الواقعة جنوب القارة، حتى أنهم بعدما عَبَرُوهَا، صار المُحيط الجديد المُكْتَشَف لأول مرَّة في غاية الوُداعة والسكون مُقارنَةً بما سبقه. ومن هنا جاء سِرُّ التسمية!

فَوَّرَ عبور منطقة الأهوال الجنوبية، عدلت السفن الناجية من بوصلتها صوب الشمال الغربي. فنجح ماجلان في العودة إلى خطِّ الاستواء في فبراير 1521. وفي مُنتصف مارس وصل الأسطول إلى مَشارف الفلبين ببخارته المائة والخمسين مرورًا بجُزر ماريانا وجوام في الطريق، بعد مُعاناة شديدة ونقصٍ حادٍ في المُون دَقَعَ طاقمه إلى أكل نشارة الخشب والجلود؛ كي ينجو من الهلاك.

وفي إحدى جُزر الفلبين، قُتِلَ ماجلان بواسطة سهم مسموم في معركة حربيَّة ضد إحدى القبائل الفلبينية الراضية لوجودهم. سجَّل اثنان من البحَّارة الناجين شهادات مكتوبة عن تلك الواقعة. فَوَصَفَا كيف نزلوا مُترجِّلين إلى مياه الشاطئ الضخلة. وكيف

هوجموا بعدد يصل إلى نحو ألف وخمسمائة مُقاتل فليبيني. وكيف ميَّز هؤلاء القائد من بينهم، فأمنوا في تصويب رماحهم تجاهه بالذات. وكيف قاوم ماجلان في بسالة، حتى تجمَّعوا حوله في شراسة، ولم يبرحوا حتى قتلوه بعد أن أسقطوه على وجهه. وكيف كان ماجلان يلتفت إلى بَخَّارته أثناء تَلْقِي الطعنات مُشيرًا لهم بالهروب مُطمئنًا إلى ركوبهم قواربهم، مُواجهًا الموت في ثبات عجيب. وقد حاول بَخَّارته فيما بعد مُفايضة جُنَّة ماجلان ببعض ما كان لديهم من بضائع مع الأهالي. ولكنهم رفضوا ذلك. ولم يتم العثور على جُثمانه قط.

عاوَدَ الناجون الإبحار بسُفُنهم الثلاث دون قائدهم، بعد تَقْلُص عددهم نتيجة مَقْتل بعضهم وإصابة بعضهم الآخر الذين فَضَّلُوا البقاء في مناطق آمنة بالجزر الفلبينية. لذا، سرعان ما تَحَقَّف الأسطول من إْحْدَى سُفُنِهِ، لعدم الحاجة إليها وتسهيلاً لمُواصلَةِ المسيرة. وبمُعاونة بعض المُرشِدِين المُسلمِين تَمَكَّنُوا من الوصول إلى جزيرة بروناي، التي أكرم وفادتهم فيها سُلطانها المُسلم. وعند استكمال الرحلة في اتِّجاه الغرب، بدأ الماء بالتسرُّب في إحدى السفينتين المُتبقَّيتين، فاضطُّروا لتركها ببَخَّارتها نَظَرًا لِصِغَرِ حجم السفينة الأخرى التي لم يَكُنْ من المُمكن أن تعود إلى أوروبا بحمولة زائدة من البَحَّارة. واصلت السفينة فيكتوريا، آخر سفن ماجلان، رحلتها بنجاح. ولم تَتَمَكَّن السفينة المَعْطُوبَةُ من العودة

رغم إصلاحها؛ لوقوعها في أيدي البرتغاليين، ثم تعرّضها للتدمير في إعصار بحري هائل.

دَخَلَت السفينة فيكتوريا المُحيط الهندي، وتمكّنت من بلوغ رأس الرجاء الصالح بمحاذاة القارّة الأفريقيّة في مايو 1522. ولدى الوصول إلى الرأس الأخضر في يوليو كان عشرون بحارًا قد ماتوا من الجوع. وفي سبتمبر من العام نفسه، تمكّنت أخيرًا السفينة فيكتوريا من الوصول إلى إسبانيا مَهْد الرحلة، بعد أكثر من ثلاث سنوات من مُغادرتها لأوّل مرّة... لم يصل إلى إسبانيا سوى 18 بحارًا من أصل 270، دخلوا التاريخ بإتمامهم أوّل رحلة تتجح في الدوران حَوْل الكُرّة الأرضية. ثم لحق بهم 17 آخرين من المأسورين من قبيل البرتغاليين على طول الطريق من المُحيط الهادئ إلى الأطلنطي.

بَزَهَنَت رحلة ماجلان الأسطورية على كُرْوِيّة الأرض عمليًا. وأظهرت الحاجة إلى ترسيم خطوط التوقيت الدوليّة، لتسجيل تاريخ السفينة الناجية يومًا إضافيًا نظرًا لطوافها باتّجاه مُعاكس لدوران الكُرّة الأرضية، مُتسببة في إشكاليّة طريفة رصدها جول فيرن بعد 250 سنة بالضبط، في روايته الأشهر "حَوْل العالم في ثمانين يومًا"، والتي فاز بطلها بالرهان لأنه دار حَوْل الأرض من الشرق إلى الغرب مُختَصِرًا يَوْمًا من الرحلة على عكس أتباع ماجلان!

صَحَّحَتِ الرحلة المفاهيم الجغرافية عن نسبة مساحة اليابسة إلى الماء. وأظهرت أن الأمريكتين عالمٌ جديدٌ مُفصلٌ تماماً عن آسيا بالمحيط الهادئ، الذي كثيراً ما تَخَلَّى عن هدوئه فيما بعد!

دَخَلَ ماجلان التاريخ شهيد الفضول بالكشف عن المجهول. وبقي اسمه رناناً، فأطلقوه على مَجَرَّتَيْنِ في الفضاء، وعلى مِسْبَارِ لوكالة ناسا. ضاعَتْ جُنَّتُهُ على شواطئٍ بعيدة، فارتفعت قامات تماثيله في سَتَى بقاع الأرض احتفاءً بجَلِيلِ صُنْعِهِ.

وبعد تسع سنوات من الآن، سيشهد العالم احتفالاً أسطورياً في إشبيلية الإسبانية، في ذِكْرَى مرور خمسمائة عامٍ على نجاح رفاق ماجلان في الدَّورانِ حول الأرض. ففي بلاد العالم الأول يدخل التاريخ مُسْتَحِقُّوه الذين يقهرون جهلهم وخَوْفَهُم، بسعْيِهِم الحثيث وراء المعرفة والتفوق، ولو دفعوا حياتهم ثَمَنًا للمجد!

-----

لَيْسَ شَرْطًا أن يدفعك فضولك إلى دُنْيَا المَخْتَرَعَاتِ. ولَيْسَ كُلُّ مُحِبِّ للاستطلاع، شَغُوفٍ بِأَيِّ جديدٍ، قد أنعم الله عليه بِفُذْرَاتِ عِلْمِيَّةٍ تُرْقِيهِ إلى مَصَافِي المَخْتَرَعِينَ. لكنَّ الفضول جِيَالٌ كُلِّ ما هو غامضٌ وبعيدٌ وصعب المنال، قد يضع الفضولي في المكانة ذاتها التي يتبوأها العالم.

وليس جول فيرن الفرنسي المولود في 1828 إلا واحدٌ من هؤلاء الذين أنصفهم فضولهم، ورَفَعَهُمْ حُبُّ استطلاعهم إلى أعلى مراتب عُظَماء المشاهير. لا بسبب اختراع أفاد البشر، بل بسبب كتابات عن اختراعات سوف تفيد البشر. لم يَكُنْ فيرن قَادِرًا على اختراعها، لكنه كان قَادِرًا على الخُلم بها!

ويحتفظ لنا التاريخ بواقعة شهيرة، عندما بلغ الحادية عشر من عُمره. وقرَّرَ الهروب عَبْرَ البحر إلى الهند. واستطاع والده اللحاق به عند إحدَى موانئ فرنسا على الأطلنطي. وعندما عَنَّفَهُ والده بشِدَّة، اعترف له جول أنه كان ذاهبًا لإحضار عَقْد مَرْجان لقريبته كارولين التي كان يهيم بها حُبًّا! ثم وَعَدَ الصبيُّ أباه ألا يهرب في رحلات سِوَى في خياله. ورغم أنَّ خياله هذا قد هبط به إلى أعماق المُحيطات وصعد به إلى سماوات الفضاء، إلا أنَّه لم يمنعه من الهروب في شبابه على مَثَنٍ إحدى السُّفُن، ليستكشف عالم البحار.

درَسَ جول فيرن البلاغة والفلسفة في المدرسة، والحقوق في الجامعة. وأهتَمَّ بالمسرح والشعر. وظلَّ أكثر ما يشغل عقله هو السَّيْل الجارف من المُخترعات الحديثة التي تَوَصَّل إليها عُلماء عصره. وانقسمتْ مُعظم أعماله ما بين روايات عن رحلات استكشافية ومُغامرات بحريَّة، وروايات خيال عِلْمي عن مُخترعات كائنة أو سوف تكون! فكتب "5 أسابيع في منطاد"، "مُغامرات



الكابتن أتورا"، "رحلة إلى مركز الأرض"، حوّل العالم في 80 يوماً، "من الأرض إلى القمر"، "20 ألف فرسخ تحت البحار"، "باريس في القرن العشرين"، "الهند السوداء"، "الجزيرة الغامضة"، "بيت البخار"، "مطاردة النيزك"، إلخ... ووصف جول بدقة مركبة فضاء تذهب في رحلة للقمر، تجد صورتها اليوم باسم Solar Sails على موقع وكالة ناسا، قبل أن يهبط الإنسان على القمر بـ 104 سنة! كُتِبَ عن غواصة كهربائية تجوب المحيطات، قبل أن يتفتّق ذهن المخترعين عن وسيلة لسبر أغوارها، وتجد مثيلاً لها موديل 1963 بعد 95 سنة من ذكرها في روايته! كُتِبَ عن نشرة أخبار تُلقَى على مسمّع ومرآى من المواطن، بديلاً عن الصحف التقليدية، قبل 31 سنة من أوّل نشرة أخبار إذاعية، و59 سنة من أوّل نشرة تليفزيونية! كُتِبَ عن قوّة الدفّع والتقنية التي يجب اتّباعها؛ كي تخرق سفينة الفضاء الجاذبيّة الأرضيّة، قبل أن تنجح أوّل مركبة فضاء في ذلك بعد 92 سنة! كُتِبَ واصفاً تكنولوجيا الفيديو كونفرانس التي يتبادل فيها الناس الحديث المرئي عبّر شاشة، قبل أن يعرف العالم البدايات المبكّرة له بـ 75 سنة!

كان شديد الوَلَعِ بكلِّ ما هو غيّر مألوف وغيّر مطروق وغيّر مُكتشَف. حتّى ذَهَبَ بعضهم في رواياتهم الخيالية المعاصرة إلى أنّ فيرن ما هو إلاّ مُسافرٌ عبّر الرّمَن، كاتِبًا عن المُستقبل الذي عاشه في الماضي الذي عاد إليه!

## قاف قاف! (4)

غني عن التعريف!

ولن يضيف إلى القارئ أن نروي بطولاته الحربية، والتي إمّا قرأنا عنها في كُتُب المدرسة، أو شاهدناها في التلفزيون... لكننا سنَتَوَقَّفُ أمامَ وَهْمِهِ بالعلوم، حيث أقدّم لكم الباحث الجغرافي الكبير نابليون بوناپرت!

كان يَحُلُو لمواطنه إيف لاكوست المتخصّص في علم الجغرافيا السياسية أن يقول: "إنَّ الجغرافيا تنفع أولاً للقيام بحرب!" وهذه حقيقة تاريخية مَحْضَةٌ. فكَم من حروب ارتبط مصيرها بحُسن رسم الخرائط وقراءتها، توطئةً لتحديد مسارات الجيوش المُتَلَي، وتوقُّع تحرّكات الأعداء. وكان نابليون مهووساً بالجغرافيا، وأوّل مَنْ حَقَّق خرائط مُفصَّلة لأوروبا؛ تسهياً لفتوحاته المُتلاحقة. فحدّث مثلاً أن صاح قيصَر روسيا وهو يشير إلى خريطة أمامه: "ارتكب نابليون غلطة شنيعة. هذه المرّة سوف نقضي عليه". وكانت خُدعة جغرافية بخّنة تسبّبت في نصر ساحق لـ بوناپرت! وفي حملته الشهيرة على مصر، وعلى ذُرب الإسكندر، كان نابليون يسير، مُصطحباً معه علماء فرنسا المُتميزين، الذين ألفوا موسوعة وصّف مصر، ودرسوا آثارها، وفكّوا طلاسم لُغتها القديمة بعد عقدين من رحيل الحملة... وهكذا كان نابليون مثلاً مُتجدِّداً ودليلاً مُتكرِّراً

على أن كلَّ قائدٍ عظيمٍ وراءه عقلٌ عظيمٌ، وكلَّ عقلٍ عظيمٍ، وراءه  
ثروةٌ حصبةٌ صالحةٌ لنُموِّ الأفكارِ المدهِشةِ، وكلَّ فِكرٍ مُدهِشٍ تعود  
جذوره إلى حُبِّ المعرفةِ.

-----

لا تَتَقَدَّمُ الحضاراتُ، ولا يظهر رجالٌ يقودون الأمم، إلا بعدما  
تَنصَدِرُ القراءةُ أُولَوِيَّاتِ الشعوبِ... تنتظر إلى اليابان مثلاً، فتجد  
رجالَ السَّاموراي في العصورِ الوُسْطَى يَزْدرون العِلْمَ، وَيَتَهَكِّمون  
على الأديبِ، واصِفِينَ إِيَّاهُ حَرْفِيًّا بـ "السُّكران الذي تفوح منه رائحة  
الكَتُب"! ولم يعلُ شأنُ اليابانِ، إلا بالسَّعي وراءِ النَّهضةِ الكُبْرَى  
المُرْتَكِزةِ بالأساسِ على التَّعلُّمِ والاقتباسِ والقراءةِ المُستمرَّةِ.

ونعود إلى حضارة العرب، فنجد المُسلمين يفتحون بُلدانَ الرومِ  
والفُرسِ، ويبادلون أسرى أعدائهم بأُمَّهاتِ الكُتُبِ، أو يفرجون عن  
أسيرٍ مُتعلِّمٍ، بعد أن يُعلِّمَ عشرةً من الأُمِّيِّين القراءةَ، أو يعقدون  
صفقاتٍ للتَّنْقِيبِ عن كُتُبِ كبارِ عُلَماءِ الإغريقِ مُقابلِ إطلاقِ سراحِ  
الأسرى. وكان عمر بن عبد العزيز على نَفْسِهِ يقولُ: "إني  
لأشتري المُحاوِرةَ من عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُثْبَةَ بنِ مسعودٍ -  
وكان عالِمًا ذا شأنٍ - بألفِ دينارٍ من بيتِ مالِ المُسلمينِ فيقالُ  
له: "يا أميرَ المؤمنين، أُنْفَعُ مع شِدَّةِ زُهْدِكَ؟" فيجيبُ: "واللهِ إني  
لأعودُ برأيه وعِلْمه على بيتِ المالِ بألوفٍ مؤلِّفةٍ من الدنانيرِ!"

ثم نَمَعِنَ النظر في وإِيعِنَا، فَنَتَأَمَّلُ زَعِيمًا مِثْلَ نَاصِرِ الَّذِي مَكَثَ فِي الكُلَيْيَةِ الحَرَبِيَّةِ 17 شَهْرًا فَقَطْ، مُتَحَرِّجًا فِي دُفْعَةِ اسْتِثْنَائِيَّةٍ. وَبِالاطِّلَاعِ عَلَى كَارْنِيهِ الِاسْتِعَارَةِ مِنْ مَكْتَبَةِ الكَلِيَّةِ، نَجِدُهُ قَدْ اسْتَعَارَ مُعْظَمَ كُتُبِهَا، قَارِنًا عَنِ سَيَرِ الإسْكَندَرِ وَبُونَابِرْتِ وَجَارِبَالِدِيِّ وَبِسْمَارِكِ، وَالكُتُبِ الَّتِي تُنَاقِشُ مُشْكِلاتِ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ وَالبَحْرِ المَتَوَسِّطِ وَالحَرْبِ العَالَمِيَّةِ وَثَوْرَةَ 1919 وَأزْمَةَ فِلَسْطِينِ. وَبِتَعْيِينِهِ مُدْرِسًا بِالكُلَيْيَةِ فِي 1943، يَبْضُحُ أَنَّهُ قَرَأَ لِكِبَارِ المَوْفِّقِينَ العَسْكَرِيِّينَ لِيدِلِ هَارْتِ وَكِلَاوسْفِيْتِزِ، وَلِكِبَارِ السَّاسَةِ كِرُومُوِيلِ وَتَشْرِشَلِ. بَلْ وَغُرِفَ عَنْهُ وَلَعُغَهُ بِالرَّوَايَاتِ العَالَمِيَّةِ وَالمَحَلِّيَّةِ.

ثم نَقَارَنُهُ بِرئيسِ مِصرِ الأَسْبِقِ. وَبِمُحَاوَلَةِ الاطِّلَاعِ عَلَى كَارْنِيهِ الِاسْتِعَارَةِ مِنْ مَكْتَبَةِ الكُلَيْيَةِ نَفْسَهَا الَّتِي تَخْرُجُ فِيهَا نَاصِرِ، نَكْتَشِفُ أَنَّهُ... لَا يَوْجَدُ كَارْنِيهِ مِنَ الأَصْلِ. فَالرئيسِ الأَسْبِقِ لَمْ يَدْخُلِ المَكْتَبَةَ قَطْ، حَتَّى يَحْمِلَ كَارْنِيَّهَا! وَإِنْ تُصَوِّرُنَا أَنَّ هَذِهِ حَالَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٍ، فَيُوسَفِنِي أَنَّ نَكْتَشِفُ أَنَّ نَاصِرِ هُوَ الِاسْتِثْنَاءُ لِقَاعِدَةِ مُتْرَهِّلَةٍ. فَحُكَّامُ العَرَبِ مُعْظَمُهُمْ لَا يَقْرَأُ. وَقَدْ يَنْدَهَشُ المَرءُ مِنْ بَنِي آدَمِ لَا يَذْهَبُ إِلَى عَمَلٍ يَوْمِيًّا، وَلَا يَرْكَبُ مَوَاصِلَاتِ، وَلَا يَجْرِي خَلْفَ لُقْمَةِ العَيْشِ، وَلَا يَشْغَلُهُ تَدْبِيرُ مِصَارِيفِ الشَّهْرِ وَمَدَارِسِ الأَطْفَالِ. بَنِي آدَمِ مِثْلَ هَذَا، لِمَاذَا لَا يَقْرَأُ؟؟

كانت المَلِكَة إِيْزَابِيْثُ الثَّانِيَة مَلِكَة بَرِيْطَانِيَا فِي نِهَائِيَةِ جَوْلَة رُوْتِيْنِيَّة بِصُحْبَة زَوْجِهَا الْأَمِيْر فِيلِيْب فِي دَوْلِ الْخَلِيْجِ الْعَرَبِي فِي 1979. عَادَتِ الْمَلِكَة إِلَى بِلَادِهَا مُحْمَلَةً بِهَدَايَا بَاهِظَة تَحَطَّتْ قِيْمَتُهَا عِدَّة مِلْيَيْنٍ مِنَ الدُّوْلَارَاتِ... لَزَوْجِهَا، قَدَّمُوا سِيَوْفًا مُرْصَعَةً بِالْحِجَارَةِ الْكَرِيْمَةِ. وَلَهَا، أَهْدَوْهَا فِي دُبِّي عِقْدًا مِنَ الْيَاقُوْتِ الْأَزْرَقِ مُرْصَعًا بِثَلَاثِمِائَةِ مَاسَةٍ مَعَ خَاتِمٍ وَخَلْقٍ، وَصَحْنًا مَصْنُوعًا مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ يَحْمِلُهُ جَمَلَانِ! وَفِي الْبَحْرَيْنِ، أَهْدَوْهَا نَخْلَةً مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ ارْتِفَاعُهَا 50 سَمِ مُرْتَبَةً بِأَلْيُ دَقِيْقَةٍ وَمَشْبُوكٍ مِنَ الْأَمَاسِ وَالْيَاقُوْتِ. وَفِي الْكُوَيْتِ أَهْدَوْهَا نَمُوْدَجًا مُصَغَّرًا لِمَرْكَبِ عَرَبِيٍّ مَصْنُوعٍ مِنَ الْفِضَّةِ الْخَالِصَةِ وَمُرْصَعٍ بِصَفُوفٍ مِنَ اللَّوْلُؤِ النَّادِرِ. وَفِي قَطْرٍ، قَدَّمُوا إِلَيْهَا كَأْسًا مِنَ اللَّوْلُؤِ الْفَاخِرِ وَأَحْجَارًا مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ. وَفِي السُّعُوْدِيَّةِ، تَلَقَّتْ مَبْخَرَةً مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَصَحْنًا مِنَ الذَّهَبِ الْمُرْصَعِ بِأَحْجَارِ الْجَمَشْتِ الْكَرِيْمَةِ، وَغَلَّيَّةَ قَهْوَةٍ مِنَ الذَّهَبِ الْمَشْغُولِ وَفَنَجَانِيْنٍ مُتَنَاسِقِيْنِ مَعَهَا!

وَلَمْ يُفَكِّرْ حَاكِمٌ عَرَبِيٌّ وَاحِدٌ أَنْ يَهْدِيَهَا كِتَابًا وَاحِدًا عَنِ تَارِيخِ بِلَادِهِ أَوْ حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ أَوْ عَنِ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، وَلَوْ حَتَّى طَرِيْقَةً طَهَّى الْخَنْفَرُوشَ بِالزَّيْتِ!

فَمِثْلُ هَذِهِ الْهَدِيَّةِ لَا قِيْمَةَ لَهَا فِي رَأْيِنَا.

وَلَمِثْلُ هَذَا الرَّأْيِ، لَا قِيْمَةَ لَنَا فِي نَظَرِهِمْ!

## لا للإحباط (4)

لم يَكُنْ أماديوس موسيقياً عادياً.

فالذي يبدأ العُزْفَ على ثلاث آلات موسيقية في سن السادسة، والذي يُبدي مهارة فائقة في الارتجال وتلحين خمس مقطوعات للبيانو في ذلك العُمر نفسه، والذي تُعزّف له تلك المقطوعات حتى الآن، ليس موسيقياً عادياً، ولا إنساناً عادياً!

ورغم جَولاته مع أبيه بين كُبْرَى المُدن الأوروبية للتعرف على عالم الموسيقى عن قُرب، ورغم قيادته فرقة موسيقية في زالتسبورج، وتلحينه أول أوبريت ألمانية في سن 13. ورغم أنه أُلّف في عُمره القصير - 35 سنة - أكثر من 600 عمل اشتملت على مُعظم أنواع التأليف الموسيقي من سيمفونية وكونشرتو إلى سوناتا وأوبرا وأعمال كنائسية. ورغم أنه اليوم يُشكّل للعامّة أحد أضلاع المُثُلث الكلاسيكي الشهير مع بيتهوفن وباخ. رغم كل ذلك وغيره، إلا أننا لا نملك إلا نتوقّف أمام عام رحيله وقصة وفاته المثيرة.

في عامه الأخير، وأثناء مُعاناته من الفقر والمرض والجوع للاقتراض، أتى إليه أحد النبلاء النمساويين وعرض عليه مبلغاً من المال لقاء تأليف مقطوعة جوائزية دون أن يشرح له السبب وراء طلبه ذلك. وافق موتسارت على العرض دون تردّد، وشرع في

تجهيز ما يُمكن تسميته بـ معزوفة الموت! ولكن سرعان ما دبَّ الوَهْن في أوصاله، ورغم ذلك، فقد جاهد نفسه لانتهاه من تلك المعزوفة، والتي بدا أنَّ الغرض منها كان في الأساس أن تُعزَف في جنازته هو، دون أن يخطر له ذلك على بال!... وفي ديسمبر 1791، وعند عودته من عمله، لاحظتْ رُؤجته شحوبه الشديد، وحاولتْ إسعافه دون جدوى. وفي الواحدة صباحًا، وبينما كان يشرح الطريقة التي ينبغي أن يُعزَف بها اللحن الجنازري، غاص موتسارت في وسادته وانتهى أجله!

أُشيعَ أنَّه مات مسمومًا، وأُشيعَ أن يوم وفاته كان ماطرًا وعاصفًا، فلم يُشيعه أحدٌ من أصدقائه إلى مقابر الفقراء، إذ لم يمتلك مكانًا للدفن. لكن بعض المؤرخين أنكروا هذه وتلك. وأكّدوا أنَّ اليوم كان مُشمسًا، وأنه لا داعي لالتماس الأعدار للذين غابوا. فعند وفاة موتسارت، لم يحضر جنازته سوى شخص واحد، رافقَ الجثمان إلى مثواه. ولم يُعزَف المعزوفة الجنازرية سوى ذلك المجهول بصُحبة الكاهن! مرّتْ شهورٌ قبل أن تزور زوجته مقبرته. ولمّا دَهَبَتْ، وَجَدَتْ أَنَّ حَفَّار القبور قد نبش قبر زوجها، ورفع عظامه؛ كي يدفن فقيرًا آخر مكانه! وبعد عقودٍ من وفاة أماديوس، واعتراف العالم بنبوغه في دُنيا الموسيقى، تم تشييد نُصْب تذكاري فوق ضريح فارغ، لأنَّ أحدًا لا يعلم على وجه الدقّة أين دَهَبَ رُفات العبقري المظلوم!

قُبِيلَ نهاية 1791، نُشِرَتْ جريدة الأوزيرفر البريطانية في عددها الصادر 25 ديسمبر حَبْرًا مُفْتَضَّبًا بِشأن وفاة الموسيقار فولفجانج أماديوس موتسارت. أَوْضَحَ الخبر أَنَّهُ قد تُوقِّيَ في 15 يناير، كما أشار إلى أَنَّهُ ألماني الجنسية... ثم عادتُ الجريدة نفسها لتُنشر مَقَالًا تَعْتَدِر فيه عن وقوع خطأ غير مقصود، وَأَنَّ المذكور قد تُوقِّيَ في 5 ديسمبر، وَأَنَّهُ نمساوي الجنسية... قَدَّمَتْ الجريدة البريطانية أَسْفَهَا الشَّدِيد لعائلة المَوْئِف الموسيقي لما قد يكون سَبَّبَهُ الخبر المغلوط من إزعاج... الجدير بالذكر، أن ذلك الاستدراك قد وَرَدَ في عدد الأوزيرفر الصادر في 20 يناير 1991، بعد 199 عامًا و 26 يومًا فقط من نشر الخبر الخطأ!

التصحيح واجب، والاعتذار مقبول!

-----

يصل المَوْهوبون حَقًّا وَحَتْمًا إلى القِئمة، حتى لو لم يُعْتَرَف بمواهبهم في حياتهم، حتى لو أُبْخِسُوا قَدْرَهُم من الجميع. وكُلُّ ما يَنْقُص المَبْدِع في أيِّ مجالٍ كان، هو التسلُّح بالثقة والصبر والإيمان والمُثابرة والعِلْم... وأن يحذر الغرور والكسل، واليأس والغضب... والإحباط!



## وَحَوِي يَا وَحَوِي!

رُبَّمَا جَاءَ قَرَارِي بِتَأْلِيفِ هَذِهِ السَّلْسَلَةِ مِنْ أَقْرَبِي يَا بِلَادِي،  
بِسَبَبِ وَحَوِي يَا وَحَوِي إِيَّاحَا!

قَبْلَ عَامٍ، أَطَّلَعَنِي صَدِيقٌ يَهُودِيٌّ جَمَعَ الطَّوَابِعَ، عَلَى مَجْمُوعَةٍ  
قِيَمَةٌ مِمَّا يَمْلِكُ. وَأَسْعَدَنِي أَنْ يَكُونَ الْقَائِمُونَ عَلَى هَيْئَةِ الْبَرِيدِ بِهَذَا  
الْوَعْيِ الرَّاقِي، الَّذِي جَعَلَهُمْ يَصْدُرُونَ بَاقَةَ مِنَ الطَّوَابِعِ فِي 1957  
احْتِفَاءً بِصَمُودِ بُورْسَعِيدٍ أَمَامَ الْعَدْوَانِ الثَّلَاثِي، تَحْتَ عُنْوَانِ مِصْرَ  
مَقْبَرَةِ الْعُزَاةِ. وَكَانَتْ الْبَاقَةُ مِنْ خَمْسَةِ طَّوَابِعٍ: مَعْرَكَةُ حَطِّينَ ضِدَّ  
الصَّلِيبِيِّينَ 1187، مَعْرَكَةُ الْمَنْصُورَةِ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ 1250،  
مَعْرَكَةُ عَيْنِ جَالُوتَ ضِدَّ الْمَغُولِ 1260، صَمُودِ بُورْسَعِيدِ 1956،  
وَخَامِسُهُمْ هُوَ ذِكْرَى مَعْرَكَةِ جَبَّارَةَ دَافِعَ فِيهَا الْمِصْرِيِّينَ بِشَجَاعَةٍ  
مُنْقَطَعَةِ النَّظِيرِ عَنِ بِلَادِهِمْ، وَيَسْبِيهَا جَاءَ الْمَقَالُ!

وَقَبْلَ أَنْ نَحْكِيَ الْحِكَايَةَ، دَعَوْنَا نَتَسَاءَلَ عَنِ مَوْقِفِ هَيْئَةِ الْبَرِيدِ،  
الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الذَّهْنَ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ، مِنْ ثَوْرَةِ يَنَايِرِ  
2011. وَلِمَاذَا لَمْ تَنْتَبِهْ حَتَّى الْآنَ إِلَى إِصْدَارِ طَابِعِ بَرِيدٍ يُخَدِّدُ  
ذِكْرَى الشَّهْدَاءِ؟؟ سَوَالٌ بِلَا إِجَابَاتٍ، وَبَرِيدٌ بِلَا جَوَابَاتٍ!

دَعَوْنَا نَتَابِعُ الْآنَ إِجَابَةَ سَوَالٍ آخَرَ: مَتَى غَنَّى الْمِصْرِيُّونَ  
وَحَوِي يَا وَحَوِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ؟

ونبدأ القصة بأن نتعرّف على الهكسوس الذين قدّموا إلى مصر  
عبرّ سيناء، حيث ينحدرون من أصول آسيوية. وتفاوتت الآراء ما  
إن كانوا من جذور سامية آرامية، نازحين عبر سوريا وفلسطين أو  
غير ذلك. وقد أُطلقَ في الهيروغليفية اسم "حكا-خاسوت" على  
هؤلاء الغزاة، وترجمتها الحرفية حُكّام الأراضي الأجنبية. وينسب  
المؤرخ المصري مانيتون نشأة الاسم إلى ما يُقابله في اللغة  
المصرية القديمة. فكلمة حكا تعني حاكم، وكلمة شاسو تعني  
بدوي، فيصبح المعنى الحُكّام البدو. بينما سمّاهم مؤرّخو العرب  
العماليق. وليس للكلمة علاقة بمفهوم العمالقة أصحاب البسطة في  
الجسم. فيقول المؤسوعي جمال حمدان في كتابه شخصية مصر:  
"والثابت أنّ الهكسوس هم ال عمو، كما أسماهم المصريون. عمو  
بالمصرية القديمة تعني البدو. ليق بالآرامية تعني الجنود. ويكون  
المعنى الإجمالي: البدو الذين حرفتهم القتال". وعن الهكسوس  
يضيف حمدان نقلاً عن المؤرخ فلندرز بتري قائلاً: "إنّ قوتهم  
العدديّة كانت ضخمة، تُقدّر في قمتها بنحو مليونين أو ثلاثة!"  
ويصفهم مانيتون بقوله: "لقد نزلت بنا صاعقة من غضب الله  
ونقمته". وينقل المؤرخ سليم حسن عن مانيتون في مؤسوعته  
مصر القديمة قوله: "كان هؤلاء الهكسوس يطعمون باستمرار في  
محو الشعب المصري من الوجود". بينما يذكّرهم الدكتور حسين  
فوزي في كتابه سندباد بحري بقوله: "لقد نزل بأرض مصر كالجراد

شعبٌ جائعٌ بربريٌّ جاء من الشرق. وقد حلَّ معه الخراب والدمار.  
ونزلت مصر إلى حضيضٍ لم تعرفه في تاريخها".

ولأنَّ الهكسوس يُمَثَّلون في تاريخنا مرحلةً كئيبةً، لم يودَّ قُدَّاماء  
المصريين الاحتفاظ بآثارها، فإِنَّا لا نعرف على وجه اليقين متى  
استوطن الهكسوس مصر، ولا متى سيطروا عليها، ولا عدد القرون  
التي احتلُّوها فيها بدقة. كلُّ ما نعرفه أن الهكسوس قد نَزَّحوا إلى  
مصر في العصر الانتقالي الثاني الفاصل بين الدولة الوُسْطَى  
والدولة الحديثة. ولم يأتِ غزوهم على دُفْعَةٍ واحدة، بل تواجدوا  
على مراحل بالشمال في شكل هِجْرات وتمازج ثقافات، حتى حدث  
الانتقاض بجحافل جَبَّارة، ودانت لهم السيطرة. وشكَّلوا عِدَّةَ أَسْر  
حُسِبَتْ على التاريخ الفرعوني، دون أن نعرف حَصْرًا لأسماء  
ملوكهم ولا ترتيبهم. وانتهى حُكْمهم للبلاد في مُنتصف القرن  
السادس عشر قبل الميلاد بالتقريب.

أحكَمَ الهكسوس قبضتهم على الدلتا وصولاً إلى مَنفٍ وبلين في  
شمالِيّ الوجه القبلي. وكانت عاصمة مُلْكهم بالشرقية هي مدينة  
أواريس بمنطقة نَلِّ الضبعة الحالية بالقرب من مركز فاقوس.  
وكانت السهولة التي احتلُّوا بها مصر دون مقاومة تُذَكِّر، راجعةً  
بالأساس إلى التَشَرُّدُم الذي كان عليه المصريون. كما ساهم كثرة  
العدد وجاهزيَّة العُنَاد في النصر الساجِق، خاصَّةً وأنَّ معارك

الهكسوس شهدت مفاجآت تكتيكية، وعلى رأسها استعمال العجلات الحربية في سابقة أولى بالحروب التي شهدتها مصر، إلى جانب استخدام الجياد للمرة الأولى كذلك، ناهيك عن تفوقهم على معاصريهم باستعمال الحديد في أسلحتهم من السيوف والرماح والأقواس، فيما كان المصريون يتعاملون بالبرونز والنحاس الأقل شدة في القتال العنيف.

انقسمت مصر إلى ثلاثة أقاليم رئيسية، الهكسوس في الشمال والشرق، ملوك طيبة المصريين في الجنوب، وملوك النوبة في أقصى الجنوب، إضافة إلى أمراء يدينون بالولاء للهكسوس ويدفعون الجزية السنوية؛ انقضاء لانتقامهم، في أماكن مختلفة من الدولة المصرية. وكان ملوك النوبة خلفاء للهكسوس؛ لتوافر عنصر المصلحة المشتركة ضد ملوك طيبة الذين اتهمهم النوبيون بالاستيلاء على بعض أراضيهم.

وعلى امتداد العقود كان للمصريين بعض مظاهر المقاومة التي افتقرت إلى التنظيم. واستمر الخضوع للبطش الهكسوسي حتى جاء ثامن ملوك طيبة بالأسرة السابعة عشرة الملك سانخت ان رع تاعا الأول وتزوج بفتاة من عامة الشعب تدعى نيتي شري. فأنجبا ولدهما سكنن رع تاعا الأول وابنتهما إياح حتب. وسرعان ما تزوج الأخ بأخته في طقس فرعوني معتاد. وهنا يبدأ التحول

التاريخي في مصير مصر بعد هذه الزيجة. حيث راحت إياح حنّب تُحرّض زوجها على أن يرفع راية الجهاد في وجه الغزاة مُستعيدًا مجد المصريين. وبدأ سكنن رع في تنظيم الصفوف وتدريب الجنود واستنفارهم نفسيًا لرفض احتلال وطنهم وإعداد العُدّة للمعركة الفاصلة. وفي عَجَلَةٍ، نقلت عيون الهكسوس ما يجري على أرض طيبة، الأمر الذي دفع ملك الهكسوس أبوفيس إلى بعث رسالة ساخرة يهزأ فيها من الملك المصري ويهدّده قائلاً: "أُسكيتوا أفراس النهر التي تسبح في نيل طيبة. إنَّ أصواتها ترزعني وتقلق منامي في أوّاريس. أبيدوها إنَّ كُنْتُمْ حريصين على رضائي". كانت هذه الرسالة المُستفزة من ذلك المُختلّ النائم على بُعد سبعمائة كم وراء أسوار مدينته الحصينة، هي كلُّ ما يحتاجه سكنن رع؛ كي ينفذ صبره وتبدأ معارك التحرير.

وبمُشاركة زَوْجَتِهِ إياح حنّب على رأس الجيش، بدأت حروب المصريين ضد جحافل الهكسوس بعزيمةٍ لا تليّن. لم يَتَمَكَّنْ سكنن رع من الانتصار على الغزاة. واستشهد في معركة شرسة في طريقه إلى أوّاريس. وتُظهِرُ موميأوه المحفوظة في عُزفة الموميأوات بالمتحف المصري تَلَفِيَهُ ضربات في رأسه عن طريق بِلْطَة أسبوية الصنّع، الأمر الذي أصابه بكسور في جُمُجْمَتِهِ، ولم يُخَفِ التحنيط آثار الجروح ولا علامات الألم على قَسَمَات وجه البطل... حَمَلَتْ إياح زوجها الشهيد عائدة إلى طيبة. وَجَحَّتْ في

لَمَ الشَّمْل، وحالَّت دون شِيع الإِحباط. وحَلَّت مَحَلَّ زَوجِها في القيادة. ولولا جَهودها لانتَهت المُقاومة عند هذا الحَدِّ. وبالانتهاء من مَراسِم الدفن، اجتمعت إِيّاح حَتب بابنها البِكر كأمس تَحْتَهُ على مواصلة المشوار. فاستأنف القتال وأمَّهُ إلى جواره. ونجح في تحقيق بعض الانتصارات وتحرير مدينة نفروسي، ليموت مَيِّتَةً أبيه بعد ثلاث سنوات من القتال عند أسوار أواريس. رَجَعَتْ إِيّاح بِجُثمان ابنها دون أن تضعف عزيمةَها، بل كان يزيدُها الفراق إصرارًا على النصر. فالتفتت حولها لتجد ابنها أحمس ولم يَكُنْ قد تَحَطَّى العاشرة بعد. قامَتْ بالإشراف على إعداده للقتال بالتدريب مع المُحاربين الأكبر سنًا. ولمَّا بلغ التاسعة عشر، قام بعض رجاله بالنقاط رسالة مبعوثة من مَلِك الهكسوس إلى ملوك النوبة خُلفائهم في أقصى الجنوب، يَحُثُّونهم فيها على الزحف على طيبة. وهُنَا اتَّخَذَ القرار الحاسم بالهجوم الكاسح بقيادة أحمس وإِيّاح حَتب لتحرير مصر من المُعْتَدِينَ مهما كانت التضحيات.

بدأت معركة أواريس المجيدة - والتي رَصَدَتْها هيئة البريد المصرية- في 1530 قبل الميلاد. واحتاج القضاء على الهكسوس في مصر إلى خمس سنوات من الحروب الطاحنة. فسَقَطَتْ أواريس الحصينة أخيرًا. وقام أحمس بمُطاردة فلولهم إلى الصحراء. ومن الغريب أنَّهُ العجوز ظَلَّت مُشاركة معه في المُطاردة الوَعِرة. ولم تتركه لحظة واحدة. وسارت الجيوش

المصرية حتى فلسطين. وبعد أن تحقَّق النصر الكامل وتحرَّرت أرض مصر جميعها، عادت إياح حنْب لثلاً على رأس القوات المصرية بصُحبة ابنها القائد البارِع المَلِك أحْمَس الأول.

خَرَج الشَّعْبُ كُلُّهُ حَامِلًا المَشَاعِلَ فِي اسْتِقْبَالِ السَّيِّدَةِ الَّتِي قَدَّمَتْ زَوْجَهَا وَابْنَهَا الْبِكْرَ فِدَاءً لِلْوَطَنِ، وَلَمْ تَكُنْ لَتَبْخُلْ بِابْنِهَا الثَّانِي. وَيَعْلُو هَيْتَافُ الشَّعْبِ لِلْمَلِكَةِ أُمِّ الْمَلِكِ: وَحَوِي وَحَوِي إِيَّاحَا. وَكَانَ الْإِلَهَ الْمَسْؤُولَ عَنِ حَرَكَةِ الْقَمَرِ اسْمُهُ إِيَّاحَا، وَمِنْهُ اشْتَقَّ اسْمُهَا. كَمَا سُمِّيَ الْقَمَرُ عَلَى اسْمِ الْإِلَه، وَفِي الْعَصْرِ الرَّومَانِي صَارَ اسْمُهُ يَوْحَا. أَمَّا كَلِمَةُ إِي فَتَعْنِي جَاءَ. وَبِذَا تَعْنِي كَلِمَتَا إِي إِيَّاحَا أَوْ إِي يَوْحَا: جَاءَ الْقَمَرُ. وَأَمَّا وَحَوِي فَتَتَكَوَّنُ مِنْ مَقْطَعَيْنِ: وَاحٍ، وَي. وَاحٍ تَعْنِي الظُّهُورَ رَوِيْدًا رَوِيْدًا. وَيَ أَدَاةُ نَدَاءٍ تَحْتُ الْقَمَرِ عَلَى الظُّهُورِ. وَيَكْتَمِلُ الْهَيْتَافُ: وَحَوِي وَحَوِي إِيَّاحَا، أَيِ اظْهَرِ أَيُّهَا الْقَمَرُ، أَوْ مَرْحَبًا يَا قَمَرُ، أَوْ تَعَالَى يَا قَمَرُ!

وبانتصار المَلِكِ أحْمَسِ الأولِ، أُسِّسَتْ الأُسْرَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ، مُعْلِنَةً بِدَايَةِ الدَّوْلَةِ الْحَدِيثَةِ. وَقَدْ كَرَّمَتْ مِصْرَ مَلِيكَتُهَا الْمُتَنَصِّرَةَ، وَتَمَّ مَنَحُهَا قِلَادَةَ الْخَمْسِ ذُبَابَاتٍ، أَعْلَى وَسَامٍ عَسْكَرِيٍّ فِي مِصْرِ الْقَدِيمَةِ، تُوَازِي نَجْمَةَ سِينَاءِ الْيَوْمِ. وَكَانَتْ قِلَادَةُ الذُّبَابَةِ تَرْمِزُ لِلْكَفَاءَةِ وَعُلُوِّ مَقْدِرَةِ الْمُقَاتِلِ الْبَاسِلِ الَّذِي يُطَارِدُ عَدُوَّهُ مُطَارِدَةً مُسْتَمِيَّةً وَيَنْطَلِقُ فِي أَعْقَابِهِ حَتَّى النِّهَايَةِ، كَذُبَابَةِ لِحْوَجِ دَعْوَبٍ! وَقَدْ

تَمَّ العثور على ثلاث ذبابات ذَهَبِيَّة في سلسلة حول رِقْبَةِ مومياء  
المَلِكَةِ، والتي وُجِدَتْ في مقبرتها بالأقصر. كما كَرَّمَهَا أَحْمَس في  
السنة الثانية والعشرين من حُكْمِهِ، بأن أقام لوحة حَجْرِيَّة بمعبد  
الكرنك تخليدًا لأعماله وأعمال والدته. ومن نَصِّ كلماته: "قَدِّمُوا  
المديح لسَيِّدَةِ الأَرْض. فهي التي تضع الخُطَّة للجماهير. وتَتَّخِذُ  
القرارات الخاصَّة بشعبها. رُؤِجَةُ المَلِكِ، أخت المَلِكِ، وأُمُّ المَلِكِ  
الفاخِرَةِ الحاذِقَةِ التي تضطلع بشؤون مصر. ولقد اهتَمَّت بالجيش.  
وأعادَت الهاريين، ولَمَّت شتات المُهاجِرِينَ. ووَحَّدت النُّبلاء وَعَمَلتْ  
على تضامُنهم مَعًا. وهَدَّأت رُوعَ مصر العُلَيَّا وجَعَلتْ السلام يسود  
فيه. وأخضَعَت عُصاته. الرُّؤِجَةُ المَلِكَةِ، إياح حتب، فُلَّتَحِيَّا".

أَكْرَمَهَا اللهُ في حياتها بأن أنقَذتْ مصر من مصير مُظْلِم.  
وكرَّمَتها مصر في مَماتها، بأن عاشتْ الأَنْشودة التي استقبلها بها  
الشعب عائدة بالنصر لمصر... ويَمُرُّ الزمان وبصير الترحيب  
بالهلال مُقْتَرِنًا بهذه الأغنية الخالدة، التي رُذِدَتْ أوَّل ما رُذِدَتْ  
ابتهاجًا بَعوْدَةِ الوطن إلى أهله... ونعيش اليوم في انتظار عوْدَةِ  
الوطن إلى أهله بعد عصر اضْمِحْلال مُنْهَكٍ ومُنْتَهَكٍ!

ويَعُدُّ...

فَعندما تصل إلى مَسامِعِكَ أغنية وَحوي يا وحوي، فلنَتَذَكَّرُ أُمَّ  
المصريين إياح حتب، ولنَدْعُ لها بالرحمة والمغفرة!



## الله..الله...الله!

كلوريد صوديوم. صلاة جماعة. غليان ماء. سباق سيّارات.  
بطارية كهربائية. حبوب لقاح. فحم وماس. عظام الجسم. تعاقب  
فصول. ألوان طيف... هل نؤمن بوجود الله؟ فإن آمنًا، فهل نرى  
آيات الله؟ وإن أبصرناها، فهل نعي أن الكون موصولٌ مشدودٌ إلى  
بعضه بعضًا، دين ودنيا وآخرة، علوم وتاريخ وجغرافيا؟ وهل ندرك  
أن كلّ مَخارج الحياة أصلها مدخلٌ واحدٌ؟... إننا نهتف: "الله!"  
عندما ننبر، نفرح، نتفاجأ... ومن الضروري أن يتكرّر هذا  
الهِتاف، مع كلّ نبضة قلب، وكلّ شهقة صدر، وكلّ طلعة فجر!

-----

كلوريد الصوديوم... يعرفه النابهون في الكيمياء. إنه ملحُ  
الطعام. ولكن كيف يكون ملحُ الطعام مُستعملًا في الأَطعمة، رغم  
أنّ عُنصريّ تركيبه هما الصوديوم الذي ينفجر إذا أسقطناه في  
الماء الساخن، والكلور وهو غاز سام أصفر مائل للاخضرار في  
يُستخدَم أحيانًا للقتل. وهما عُنصران لا يمكن أن يجدا أيّ ترحيب  
بأيّ حالٍ من الأحوال على مائدة طعام؟؟ السرُّ في التفاعل  
الكيميائي، في المَرَج بين العُنصرين. فعلى المستوى الفردي لا  
يمكن لأيّ منهما أن يدخل في طعامنا، وعلى المستوى الجماعي  
لا يمكن لهما معًا أن يخلو منهما طعامنا... تفاعلوا تصحّوا!



حَدَّثَ بالفعل في غزوة تبوك... حان وقت الفجر. وكان النبي مُتَأَخِّرًا. فَتَقَدَّمَ عبد الرحمن بن عوف، فصَلَّى بالناس. ولمَّا جاء محمد عليه الصلاة والسلام، أدرك الركعة الثانية، فصلَّاهُ خلفه. ثم قَضَى ما فاته. ولمَّا انتهت الصلاة، وانتهى الناس لوجوده بينهم، فزِعُوا لذلك. فابتسم لهم في بساطة وقال: "قد أحسنتم!" أثنى عليهم لأنهم صَلَّوا الصلاة في وقتها فانزى بالشواب الأكبر. وطوال 14 قرناً، أطالما دخل علماء كِبار إلى مساجد فوجد بعضهم بالضرورة صَبِيًّا بَكَرَ بالإقامة. فينضمُّ العالم إلى مؤخِّرة الصفوف مُصَلِّيًا خلف الصبيِّ. فالإسلام لا يعرف التباهي، بل يعرف قُوَّة المُبادرة وأفضليَّة التذكير إلى الخير. فلا يُحْرَم مؤمنٌ من فضل المُبادرة. ولا يُحْرَم مؤمنٌ من فضل المُشاركة. ولا يَمُنُّ الأوَّل على الثاني. ولا يحقد الثاني على الأوَّل... وعندما يَتَحَقَّق نَصْرٌ في ثورة أو في حرب، فهو من عند الله، لا من عند فصيل نزل أولاً، ولا جماعة دافعت ثانياً، ولا شعب يَنْعَتُ نفسه بالعظيمة... تواضعوا تصحُّوا!



إن أردنا أن نَصِلَ بالماء إلى دَرَجَةِ الغَلِيان لنفَعِ ما، فنحن نعلم أن دَرَجَةَ غَلِيان الماء مائة دَرَجَةِ مئويَّة... صح؟ غلط! في وسعنا أن نجعل الماء يغلي عند دَرَجَات حرارة تبدأ من صفر، ولا تنتهي عند مائة! كيف؟ عن طريق التَحَكُّم في ضغط الهواء على سطح

الماء. وكلّما ازداد الضغط، تأخّرت دَرَجَة العَلْيَان، إذ يُصعَب الضغط المُرتفع إمكانيّة إفلات جُرَيْنات الماء، بينما الضغط المُنخفض تُلْقَى معه الجُرَيْنات مُقاومةً ضعيفةً في أثناء تَرَكِهَا للسائل وتحوّلها إلى غاز. والمقصود؟ عندما تسعى إلى هدف مشروع وعاجل، فحذارٍ من الضغط العصبي والقوَضى الذهنيّة وافتعال صراعات تؤخّر ولا تُيسّر. الأحلام الهائلة في حاجة إلى جَدول مُنضبط لتفتيت حَجْمها وإخضاع هَوْلها... تَمَهَّلُوا تَصِحُّوا!

-----

أُقيم أوّل سباق للسيّارات في التاريخ في باريس في أبريل 1887. وقد شهد هذا السباق أمرًا نادر الحدوث. إذ اشترك في السباق مُنافِسٌ واحدٌ فقط هو جورج بوتون بسيّارة تسير بالبُخار! وفاز بالمركز الأوّل مُتفوّقًا على نفسه بالمعنى المُباشر للكلمة! وفي العام التالي أُقيم السباق ذاته، وشهد اشتراك مُتسابقين اثنين ليتناقسا على المركزين الأوّل والأخير! ثم تزايد العدد باطراد في السنوات اللاحقة... والمعنى؟ ليس من المُفترض أن تكون أمورنا كُلّها في أبعث أحوالها كي نبدأ الحركة للمستقبل. أحيانًا يبدأ المُستقبل بأكثر الوسائل هزليّة ثم يتعدّل المسار مع الزمن. المُهمُّ أن نبدأ، وألا نَفْرَغَ للصراع من الثبات... تحرّكوا تَصِحُّوا!

-----

كيف تعمل البطارية؟ هي توليد تيار ناجم عن تفاعل كيميائي يتحول جسمين كيميائيين متواجهين إلى أجسام كيميائية أخرى. وتحتوي كل بطارية على ثلاثة أجسام. أحدها هو المحلول الذي يجعل الآخرين يتفاعلان. وينتهي التفاعل بفوز أحد الجسمين بعدد الإلكترونات أكبر، فتكون شحنته سالبة. والآخر بعدد أقل، فتكون شحنته موجبة. ولعلنا نلاحظ أن بطاريتين متلامسيتين لا ينتج عنهما تيار إلا بتلامس الموجب مع السالب... تكاملوا تصحوا!

-----

في بلدة ما، كانت تقام مسابقة سنوية لاختيار صاحب أفضل محصول. ولسبب غامض، كان يفوز بالجائزة كل عام المزارع نفسه! ولما أُجريت معه الصحافة حوارًا عن سِرِّ المكسب، أخبرها: "لا شيء عجيب، فقط كنتُ أبادل بذوري الجيدة مع جيرانني سأله الصحفي في دهشة: "أعطني جيرانك بذورك الأفضل، مع علمك أنهم منافسوك في المسابقة؟" ردَّ في بساطة: "ألا تعلم يا سيدي أنَّ الريح تحمل حبوب اللقاح، وتنقلها من حقل إلى آخر؟ فإذا ما زرع جيرانني بذورًا رديئة، أصابتُ محصولي بالسوء. وإذا ما أُرذتُ محصولاً جيداً، فلأمنحهم أفضل أنواع البذور!"... تعاونا تصحوا!

-----

الفحم والماس أساسهما معًا هو الكربون. فهما من حيث التركيب الكيميائي صورة من صور الكربون، إلا أنَّ الفحم يتكوّن

من ذرات كربونية متباعدة وهشة وغير مترابطة، بينما يتكوّن الماس من ذرات كربونية مترابطة ترابطاً شديداً منتظماً متماسكاً. أطنان من الفحم لا تساوي جراماً من الماس!... الخيار لنا: مستقبل لامع كالماس، أو أسود كالفحم... ترابطوا تصحّوا!

- - - - -

يُولدُ الإنسان بـ 350 عَظْمَة. وحين يَبْلُغُ، يَنْقَلِبُ العدد إلى 206. فهل يخسر بعضها؟ لا... كُلُّ ما في الأمر أَنَّ بعضها يلتحم ببعضها الآخر... يكبر الإنسان وتتمو الأوطان بالانحماص معاً، لا بالتشرُّذ وتفتيت المصير الواحد... تلاحموا تصحّوا!

- - - - -

الاعتدال أَجْمَلُ الصِّفَات وأندرها في عصرٍ يتغذّى على التطرّف. فصار المألوف أن تصادف السياسي المتطرّف والمتدين المتطرّف والرياضي المتطرّف والإعلامي المتطرّف وزجل الشارع المتطرّف، وبات المجتمع مَشْدوداً من أطرافه في سلك كهرياء عزيان بلا قُدرة على النقاھم... والاعتدال تعرفه الأرض حتّى لو غاب عن الأرضيين! فعندما تتعامد الشمس على مدار السرطان، فنحن أمام الانقلاب الصيفي ذي النهار الطويل. وعندما تتعامد على مدار الجدي، فنحن أمام الانقلاب الشتوي ذي الليل الطويل. بينما تتعامد الشمس مرتين على خطّ الاستواء، في الاعتدالين الربيعي والخريفي، وعندهما يتساوى الليل مع النهار، ويتمتع الناس

بطقس لطيف... وهكذا تتعاقب الفصول بسبب ميل محور الأرض 23.5 درجة عن محورها العمودي، وهو ما يؤدي أثناء دورانها السنوي حول الشمس إلى تفاوت التعرض لأشعتها، وتغير النابوراما السماوية، واختلاف مجموعات النجوم في الشتاء عن الصيف. تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس، التي تدور هي الأخرى حول نفسها. وتدور المجموعة الشمسية حول المجرة. وتدور المجرة حول مركز الكون الذي لا نعرفه. وكل ما نعرفه أن التناغم البديع الناشئ عن الاختلاف هو سر كمال الكون... تناغموا تصحوا!

-----

إنَّ تباين الألوان المدهش قد جعل جدًّا لنا في مطلع القرن الماضي يدعكن ياقات القمصان البيضاء المصفرة بقضيب من طبشور أزرق. وكانت هذه الطريقة تسمح بتخفيف اصفرار الملابس اعتمادًا على الخداع البصري! فيما أن الأزرق هو المنتم للأصفر، فمزيج اللونين يعطي الإحساس بالأبيض. ومن المنفيت أن مساحيق الغسيل الحالية تحتوي على تلك الحبيبات الزرقاء للغرض نفسه، فتبدو الملابس وقد غدت أكثر بيضاء! وخلاصة فكرة تمازج الألوان تسترعي الانتباه. فإن هذا الضوء الرئائي الأبيض المذفي المنبعث من الشمس بما يحتويه من ألوان الطيف مجتمعة، لهُو أكبر دليل من الطبيعة على أن التأثير الإيجابي لا يتأني سوى باجتماع المتباينين على هدف واحد... توحدوا تصحوا!



تَفَاعُلٌ. تَوَاضَعٌ. تَمَهَّلٌ. تَحَرُّكٌ. تَكَامُلٌ. تَعَاوُنٌ. تَرَاطُطٌ. تَلَاخُحٌ.  
تَتَاغُمٌ. تَوَحُّدٌ... الله وراء كُلِّ شَيْءٍ. فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،  
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. وَلِكُلِّ فِعْلٍ رَدٌّ فِعْلٌ مُسَاوٍ لَهُ فِي الْقُوَّةِ  
وَمُضَادٌّ لَهُ فِي الْإِتِّجَاهِ. وَيَقْدَرُ الْأَخْذُ بِقَدْرِ الْعَطَاءِ. ثُمَّ تَمَثَّلَ أَمَامَ  
خَالِقِكَ فِي نَهَايَةِ النِّهَايَةِ وَبِدَايَةِ الْبِدَايَةِ. فَتَوَتَّى كِتَابُكَ بِيَمِينِكَ أَوْ  
بِشِمَالِكَ. وَهَذَا هُوَ الْيَمِينُ الْحَقُّ، وَهَذَا هُوَ الْيَسَارُ الْحَقُّ. وَالْيَمِينُ  
مِنْ حَوْلِنَا فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالْإِنْسَانُ يَمِيلُ إِلَى اسْتِخْدَامِ يَمِينِهِ، لِأَنَّ  
مَرْكَزَ ثِقَلِ جَسَدِهِ يَقَعُ إِلَى الْيَمِينِ قَلِيلًا، وَلِأَنَّ النِّصْفَ الْأَيْمَنَ أَثْقَلَ  
وَرُتْنَا مِنَ الْأَيْسَرِ بِمَقْدَارِ رَطْلٍ. وَقَصُّ الْمُخِ الْأَيْمَنُ هُوَ قَصُّ الْإِبْدَاعِ  
وَالْتَجْدِيدِ، بَيْنَمَا الْأَيْسَرُ هُوَ قَصُّ الْحِفْظِ وَالتَّقْوِينَ. وَتَمِيلُ الْأَرْضُ إِلَى  
الْيَمِينِ حَوْلَ مِحْوَرِهَا. وَتَدُورُ الْكَوَاكِبُ إِلَى الْيَمِينِ. وَيَمِينُ النِّيلِ  
لِلْحَيَاةِ، وَيَسَارُهُ لِلْمَوْتِ. أَمَّا فِي شَأْنِ السِّيَاسَةِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ مِنْ  
أَهْلِ الْيَسَارِ، إِنْ كَانَ الْيَسَارُ هُوَ النَّمْرُدُ عَلَى السُّلْطَةِ الْغَاثِمَةِ، وَأَنْ  
نُعَارِضَ مَا يَنْبَغِي مُعَارَضَتَهُ، وَنُوَيِّدَ مَا يَنْبَغِي تَأْيِيدَهُ، وَنَنْتَقِدَ كُلَّ  
نَقْصٍ ابْتِغَاءً لِكَمَالٍ لَنْ يَحْدُثَ. فَالْكَمَالُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ  
شَيْءٍ، مُدَبِّرٌ لِكُلِّ أَمْرٍ. تَمَلَّأْ آيَاتِهِ الْكَوْنِ، فِي تَفَاصِيلِ التَّفَاصِيلِ،  
فِي بَاطِنِ كُلِّ خَلْقِيَّةٍ، وَفِي نَوَاةِ كُلِّ ذَرَّةٍ. وَإِنْ كَانَتْ الْأَبْصَارُ لَا  
تَدْرِكُهُ، فَإِنَّ الْأَبْيَابَ لَتُدْرِكُ أَنَّهَ الْوَاجِدُ الْوَاسِعَ لِكُلِّ شَيْءٍ!

وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ!

## قُرَاءَ يَا مُحْسِنِينَ!

بالأمس...

مصنع الورق الأول في الوطن العربي وزيمًا في العالم أُنْشِيَ في بغداد سنة 794. وأدَّى إلى انتشار واسع للكُتُب وللقرءاءة. وكان العرب قد أخذوا هذه التَّقْنِيَّةَ عن الصينيين، وقاموا بتطويرها وإنتاج كمِّيَّات ضخمة من ورق الكتابة غير عمليَّة في أيِّ مكان، إلاَّ إذا كان قاطنوه من المتعلِّمين. إنَّه المبدأ الاقتصادي الشهير "وُفورات الحَجْم Economies of Scale !

-----

من أَلْف سنة كانت لدينا أعظم المكتبات: بيت الحِكْمَة ببغداد، دار الحِكْمَة بالقاهرة، القَيْرَوَان بتونس، قُرْطَبَة بالأندلس. وبلغ فهرس مكتبة القاهرة 44 مُجلَّدًا مُخصَّصًا فقط لعناوين الكُتُب، وكُلُّها مُيسَّرة للاستعارة. وكانت نسبة الأُمِّيَّة تقترب من الصفر!

-----

ابتدع المسلمون الموسوعات العلميَّة المُفَهَّرَة. ومن ذلك أنَّ العالم الزرقالي (1029-1087) أوَّل من أصدر في التاريخ موسوعة سنويَّة للمناخ، وأسمَّاهَا كتاب الجداول، تُبيِّن أحوال الجَوِّ في العام المُقبِل ومواسم المطر المُتوقَّعة. ونقل الغرب الفكرة وتصدر حاليًا موسوعة سنويَّة تُسمَّى Almanac. ما حدِّث بيشيِّه!



— — — — —

كان في كُلِّ بَيْتٍ عربي مكتبة. وكانت الأَسْر لا تتباهى بما لديها من أوبيسون وتُحَف وسجاجيد، بل بما لديها من كُتُب نادرة ومخطوطات ثمينة. وكان الأثرياء يسافرون إلى بلاد بعيدة؛ فقط كي يحصلوا على نسخة من كتابٍ حديثٍ يتفخرون بها سنة قُدام!

— — — — —

كانت نسبة الأُمِّيَّة في أوروبا بين القرنين التاسع والثاني عشر 95%. وكان الملوك لا يعرفون التوقيع بأسمائهم. وكانت الكُتُب نادرة. مائة في مكتبة دير البندكتيين عام 1032، وستة وتسعون في مكتبة بامبرج عام 1130... أقل مما يملكه مُتَقَف عربي واحد!

— — — — —

مات الموسيقار بيزيه بعد أن كُتِبَ أوبرا كارمن، وأصيب بإعياء في التحضير لها، فتوفي بعد ثلاثة أشهر وهو في الـ 36 من عُمره، لتشتهر كارمن بـ الأوبرا التي قتلت مؤلفها! مات الجاحظ بعد سقوط مجموعة من الكُتُب عليه من أرفف مكتبته وكان عُمره 94 سنة. مات الفيلسوف بيكون أثناء حشوه الحيوانات الميتة بالجليد؛ لكي يعرف كم من الوقت تبقى بلا عفونة، فتوفي من شدة البرد. مات الإمبراطور المسلم محمد بن هماميون بعد أن سقط من شُرْفَة مكتبته مُمسِكًا بكتاب قِيمَ أَخَذَهُ من الدنيا أَخْذًا حرفيًا! لم يمت بيزيه الباحث عن الإلتقان، ولا الجاحظ الباحث عن الفكر، ولا

بيكون الباحث عن اليقين، ولا همايون الباحث عن المعرفة... يا  
وَلَدِي قَد مَاتَ شَهِيدًا مِّن مَّاتَ فِدَاءً لِّلْمَكْتُوبِ!

-----

واليوم...

أَعْظَمَ اخْتِرَاعَيْنِ عَرَفْتَهُمَا الْبَشَرِيَّةَ: الْمَطْبُوعَةَ الَّتِي نَشَرْتُ الْكِتَابَ.  
وَالْإِنْتَرْنِتَ الَّذِي يَمْنَعُنَا مِنْ قِرَاعَتِهِ!

-----

اليوم العالمي للكتاب... يُذَكِّرُنِي بِالْيَوْمِ الْعَالَمِيِّ لِلْمَرَأَةِ، وَالْيَوْمِ  
العالمي للطفل، واليوم العالمي للبيئة، واليوم العالمي لمكافحة  
التدخين، واليوم العالمي لسائر المُضْطَّهِدِينَ فِي الْأَرْضِ. أَحْلَمُ بِعَامٍ  
يُخَلُّو مِنْ الْأَيَّامِ الْعَالَمِيَّةِ، أَوْ أَنْ تُصِيرَ أَيَّامُنَا كُلُّهَا عَالَمِيَّةً!

-----

نَزَلَ الْمَصْرِيُّونَ إِلَى الشَّارِعِ وَلَنْ يَعُودُوا. وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ  
نُنْسِيَ أَنَّ الشَّارِعَ لَيْسَ مِيدَانًا فَحَسَبَ. الشَّارِعَ مَصْنُوعٌ وَمَعْمَلٌ وَمَكْتَبَةٌ  
وَمَنْجَرٌ وَمَشْعَلٌ وَمَسْرَحٌ وَمَلْعَبٌ. وَعِنْدَمَا يَرْتَادُ الْمَصْرِيُّونَ مَكْتَبَةَ  
رُوكْسِي أَكْثَرَ مِمَّا يَرْتَادُونَ سِينِمَا رُوكْسِي، سَاعَتَهَا لَنْ نَحْتَاجَ إِلَى  
ثُورَةٍ فِي مِيدَانِ رُوكْسِي وَلَا حَتَّى فِي مِيدَانِ التَّحْرِيرِ. قَدْ "نَتَّظَاهِرُ  
بِالْهَتَافِ. وَلَكِنْ حَذَارٍ مِنْ أَنْ نَتَّظَاهِرَ بِالتَّفَوُّوقِ. فَلَمْ نَزَلْ بَعْدَ فِي  
الصفحة الأولى من كتاب المجد!

-----

إذا كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الفترة الأخيرة قد  
أمكنَ اختزالها في هذه العبارة العبقريّة: هو يمشي، مش هنمشي!  
فإنَّ العلاقة بين الكاتب والقارئ يمكن كذلك اختزالها في السنوات  
الأخيرة في عبارة أكثر عبقريةً تقول: هو يكتب، مش هنقرا!

-----

أن لا يجد مُعْظَمُ المصريين داعيًا أو معنًى أو نفعًا أو جدوى  
أو لذةً في القراءة، فهذا شأنهم. أمّا أن يتحوّل هؤلاء من اللقراءة  
إلى كتابة مقالات على فيسبوك، وفي موضوعات تحتاج بالضرورة  
إلى معرفة، فهذا أشبه بإيداع مبلغ عشرة قروش في البنك الأهلي،  
والمُطالبَة بعائد سنوي يُعْطَى مصروفات الجامعة الأمريكيّة!

-----

من أمنيّاتي في العام الجديد: حذف موقع ويكيبيديا على  
الإنترنت رغم فائدته لي وللجميع. وذلك لسببَيْن: أولاً: بعض  
معلوماته غير دقيقة ومُوجَّهة. ثانيًا: يُسهّل على الإخوة الفيسبوكيين  
المُجادِلين في الأرض سرعة التسلُّح بمعلومة وإدعاء العِلْم... هي  
دعوة لقراءة الكُتُب. فالذي عنده العِلْم من الكتاب، قد سبقَ عفريت  
سَيِّدنا سليمان، لا مُحاوره على فيسبوك فَحَسْب!

-----

بعد الولادة يزيد حَجْمُ جِسْمِ الإنسان عشرين مرّة. لكنَّ العَيْن  
يزيد حَجْمُها ثلاث مرّات وزِنَعُ المرّة فقط، على امتداد العُمُر. وتنبّقى

هي العضو الوحيد القادر أن يزيد من قَدْر الإنسان آلاف المرَّات،  
فقط لو استخدمها في القراءة... يا مُسهِّل يا رب!

-----

مكتبات البيوت مثل عَدَّادات التاكسي القديم في الشوارع. تُدخِل  
إحدى تلك الشُقُق فتجد قطعة أثاث على شكل مكتبة، بها كؤوس  
كريستال لَيْسَتْ للشُّرب فيها، وطقم صيني لَيْسَ للأكل فيه، وكُتُب  
ضخمة بأغلفة ذهبية لَيْسَتْ للقراءة فيها... فما الحلُّ أمام مؤلِّف  
يكتُب ولا يجد قُرَاءً؟ بسيطة، يركب التاكسي الأبيض!

-----

تحتفل مقدونيا بصبيٍّ عُمُرُه تسعة أعوام هو أصغر مُهندس  
أنظِمة كومبيوتر في العالم مُعتمَد من مايكروسوفت. وتحتفل مصر  
بأكثر لاعب دولي لعب مباريات كُرَّة في العالم مُعتمَد من الفيفا!

-----

"الكتابة مثل الرَّمي بالبندقية. فقد تستطيع حين ترمي أن تصيب  
عقل القارئ أو تخطئه. ولكن الحديث مثل التصوير على هدف  
بقضيبٍ من حديد. فإذا كان الهدف قريبًا منك، فإنك لا بدُّ أن  
تصيبه". الأديب الأمريكي أوليفر هولمز... وقد فَطَنَ الرَّجُلُ إلى  
هذا الواقع قبل 150 سنة، وقبل أن يظهر التلفزيون والتوك شو.  
فعلى الكاتب ألاَّ يبحث عن عقل القارئ؛ ليصيبه ببندقية أفكاره، بل  
عن عَيْتِهِ وأدُنِّيهِ، وأن يرقُص له بالعصا لا أن يضربه بها!

-----

هل تعلم أن بنك مصر الذي تَمَّ تأسيسه في أبريل 1920 بقيادة طلعت حرب، والذي ساهم فيه مُلاك الأراضي الزراعيّة ورجال ثورة 19، بل وطلّبة المدارس العُليّاء، قد قام بتأسيس 24 شركة تحمل اسم مصر؟ وهل تعلم أنّ أوّل شركة يؤسّسها البنك كانت شركة مطبّعة مصر في 1922، وأنّ ثاني شركة كانت شركة مصر للورق في 1923؟! ... لا خيّر في أمّة تبني المصانع والمدارس والمستشفيات، ولا تقرأ. تُنشئ الطُّرُق والأنفاق والكباري، ولا تقرأ. تحارب الفساد والظُّلم والمحسوبيّة، ولا تقرأ... أمّة تفعل المُستحيل؛ كي تنهض، دون أن تقرأ... كناطحة سحاب عملاقة، وقد نسوا أنّ يضعوا لها أسانسير!

-----

وَعْدًا؟؟

اقرأ يا مصري. القرابة مش هتعوّرك. اقرأ يا مصري. لو صايم مش هتفطّرك. اقرأ يا مصري. حروف الكلام هتتوّرك. اقرأ يا مصري. والله العظيم مش هتخسّرك. ولا هتسهّرك. ولا هتأخّرك... اقرأ وبُكْرة أفكرك! ... اقرأ دقائق تكسب وَطْنَا!

## المصادر

- ابن القلانسي – ذيل تاريخ دمشق  
مكتبة المتنبى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1998
- ابن بطوطة – ثحفة النُّظَار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار  
دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2010
- ابن خلدون – مُقَدِّمة ابن خلدون  
دار الفكر، الطبعة الأولى 2002
- ابن خلكان – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان  
دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1994
- ابن عبد ربه الأندلسي – العقد الفريد  
دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1983
- أبو الفرج ابن الجوزي – الأذكياء  
دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2008
- أبو الفضل الميداني – مجمع الأمثال جزءان  
دار المعرفة، الطبعة الأولى
- د. أبو اليسر فرح – تاريخ مصر في عصريّ البطالمة والرومان  
عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2010
- أبو بكر الأنباري – الزاهر في معاني كلمات الناس  
أفاق عربية، الطبعة الثانية 1989
- إبراهيم خليل إبراهيم – موسوعة حلوة بلادي جزءان  
سلسلة كتاب صالون رفعت المرصفي، 2010
- أحمد أمين – قاموس العادات والتقاليد والتعبير المصرية  
دار الشروق، الطبعة الأولى 2010
- أحمد الشنواني – عظام ومشاهير مُعاقون غَيَّرُوا مجرى التاريخ  
دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة 2007
- أحمد المنياوي – رب صدقة خيرٌ من ألف ميعاد  
دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2009
- أحمد سعيد الدمرداش – محمود حمدي الفلكي  
الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966
- د. أحمد سلامة إبراهيم – الخالدات مائة

- دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2010  
إدواردو تودا – عبر وادي النيل  
المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010، ترجمة: السيد محمود واصل  
أسامة زيد الصيادي – أهم الاختراعات والاكتشافات في تاريخ الإنسانية  
دار الساقى، الطبعة الأولى 2011  
د. الحسين أحمد عبد الله – مصر في عهد الرومان  
عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2007  
السيد حامد – مساحات للتأمل  
دار أحيال للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2010  
السيد نجم – كأمس ابن الشمس  
دار الهلال، 2007  
د. إلهام ذهني – رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر  
دار الشروق، الطبعة الثانية 2008  
أنتوني ناتينج – العرب  
مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2004  
إيريك دافيز – طلعت حرب وتحدي الاستعمار  
مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2009، ترجمة: هشام عبد الغفار  
بسام الشماع – حكام مصر القديمة  
مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى 2009  
بياتريكس رينيس – عصور ما قبل التاريخ في مصر  
دار الفكر للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 2001، ترجمة: ماهر جويجاتي  
تقي الدين المقرزي – السلوك لمعرفة دول الملوك 8 أجزاء  
دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1997  
د. جاسم المطوع – علماء رغم التحدي  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009  
جايلز براندريث – 4000 حقيقة مذهلة  
دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2007، ترجمة: ليديا البريدي  
جمال الكاشف – مقتطفات من تاريخ العالم  
مكتبة الأسرة، 2003  
د. جمال حمدان – شخصية مصر  
دار العالم العربي، 1980  
جمال مشعل – موسوعة البلدان المصرية الجزء الأول

- المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى 2009  
جورج بوزنر – معجم الحضارة المصرية القديمة  
مكتبة الأسرة، 2003  
جى راشيه – الموسوعة الشاملة للحضارة الفرعونية  
المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2006، ترجمة: فاطمة عبد الله  
جيل إدوارد – مؤرخون في القاهرة  
المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010  
جيمس ب. كونيانت – مواقف حاسمة في تاريخ العلم  
دار المعارف، 1955، ترجمة: الدكتور أحمد زكي  
جيهان مأمون – من سيرة المماليك  
نهضة مصر، الطبعة الأولى 2012  
حازم جلهوم – كلمات لها تاريخ  
الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 2007  
د. حسين كفاي – الخديو إسماعيل  
الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية 2012  
حسن حمد – ظرفاء العرب ثلاثة أجزاء  
دار منفات، الطبعة الأولى 2000  
ديفيد إليارد – موسوعة الاكتشافات العلمية  
دار الفاروق، الطبعة الأولى 2008، ترجمة: الدكتور خالد العامري  
د. راغب السرجاني – العلم وبناء الأمم  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة 2012  
د. راغب السرجاني – قصة التتار  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006  
د. راغب السرجاني – قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009  
د. راغب السرجاني – ماذا قدم المسلمون للعالم جزءان  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 2010  
رشا عدلي – القاهرة المدينة الذكريات  
نهضة مصر، الطبعة الأولى 2012  
رمزي المنياوي – معارك دمرت أبطالاً  
دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2010  
رمزي المنياوي – النسر الكبير محمد الفاتح



- دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2011  
 رمسيس عوض – ألبرت أينشتاين  
 المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى 2005  
 روبيه سوليه – قاموس عاشق لمصر  
 المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2011  
 د. زكي نجيب محمود – تجديد الفكر العربي  
 دار الشروق، الطبعة الأولى 1998  
 د. زين العابدين شمس الدين نجم – مصر في عهدي عباس وسعيد  
 دار الشروق، الطبعة الثانية 2009  
 سامح مقار – أصل الألفاظ العامية لثلاثة أجزاء  
 الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005  
 د. سامي ریحانا – أساطير وشعوب العالم 10 أجزاء  
 دار نوبليس، الطبعة الأولى 2010  
 د. سامي ریحانا – الحُكْم والحُكَّام العسكريون عبر التاريخ 3 أجزاء  
 دار نوبليس، الطبعة الأولى 2009  
 ساهر رافع – قطز قاهر التتار  
 دار مشارق، الطبعة الأولى 2011  
 سعيد محمد اللحام – غرائب العالم 7 أجزاء  
 دار نوبليس، الطبعة الأولى 2010  
 سعيد محمد اللحام – مشاهير العالم 10 أجزاء  
 دار نوبليس، الطبعة الأولى 2010  
 سلمى مجدي – الساعات الأخيرة في حياتهم  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2009  
 سلمى مجدي – وراء كل عبقرى قصة معاناة  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2009  
 سليم الحسنى – ألف اختراع واخترع  
 مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة، 2011  
 د. سليم حسن – موسوعة مصر القديمة الجزء الرابع  
 مكتبة الأسرة، 2001  
 سليمان فياض – الوزان رائد الموسوعات الأفريقية  
 مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1995  
 سليمان فياض – نقي الدين أبو التكنولوجيا

- مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى 1996  
 سيد صديق عبد الفتاح – أغرب الوصايا في الغرب  
 دار غريب للطباعة والنشر، 1998  
 شهاب الدين الأبشيهي – المستطرف في كل فن مستظرف  
 دار مكتبة الحياة، 1992  
 د. صبري أبو الخير سليم – تاريخ مصر في العصر البيزنطي  
 عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2009  
 د. طارق السويدان – الأندلس التاريخ المصور  
 الإبداع الفكري للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة 2010  
 د. عائشة عبد الرحمن – بنات النبي  
 دار الكتاب العربي، 1979  
 عباس الطرابيلي – أحياء القاهرة المحروسة  
 الدار المصرية اللبنانية، 2003  
 عباس الطرابيلي – شوارع لها تاريخ  
 الدار المصرية اللبنانية، 2000  
 عبد الرحمن الرفاعي – عصر إسماعيل جزءان  
 دار المعارف، الطبعة الثالثة 1982  
 د. عبد الحلیم نور الدين – دور المرأة في المجتمع المصري القديم  
 المجلس الأعلى للآثار، الطبعة الأولى 1995  
 د. عبد الصبور شاهين، إصلاح الرفاعي – صحايبات حول الرسول  
 نهضة مصر، الطبعة الثالثة 2009  
 عبد العزيز حافظ دنيا – الإمام الشافعي نظرة تاريخية جديدة  
 مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 2009  
 د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبی – العز بن عبد السلام حياته وآثاره  
 رفع المساهم، الطبعة الثانية 1982  
 عروبة ناصيف – خالداً عبر العصور  
 دار الحافظ للكتاب، 2009  
 عروبة ناصيف – نساء عظيمات وموحدات عبر التاريخ  
 دار الحافظ للكتاب، 2007  
 عزة أنور – إياح حتب أنشودة الصمود  
 دار الهلال، 2009  
 د. علاء طه رزق - دراسات في تاريخ عصر سلاطين المماليك

- عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2008  
**علماء الحملة الفرنسية** – موسوعة وصف مصر  
صندوق التنمية الثقافية، الطبعة الثالثة 1993، ترجمة: زهير الشايب  
**علي الجوهري** – أحداث تاريخية غيرت مجرى العالم  
مكتبة ابن سينا، 2004
- د. علي الصلابي** – سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت  
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2009  
**عمر طوسون** – مالية مصر من عهد الفراغة إلى الآن  
مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية 2000  
**فتحي فوزي عبد المعطي** – أمهات في حياة الرسول  
نهضة مصر، الطبعة الأولى 2007
- د. فؤاد صالح السيد** – معجم السياسيين المغتالين 12 جزءاً  
دار نوبليس، الطبعة الأولى 2009  
**د. قاسم عبده قاسم** – عصر سلاطين المماليك  
عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2012  
**كارستن نيبور** – رحلة إلى مصر  
الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 2012، د. مصطفى ماهر  
**كلير لالويت** – الفراغة في مملكة مصر  
المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2010، ترجمة: ماهر جويجاتي  
**لويس عوض** – الثورة الفرنسية  
الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992  
**مايسة السلكاوي** – حكايات من زمان  
الأهرام للنشر والترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى 2011  
**محسن عبد العزيز** – الاستبداد من الخلافة للرياسة  
الدار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2010  
**الشيخ محمد الغزالي** – سر تأخر العرب والمسلمين  
دار القلم، الطبعة الأولى 2000  
**د. محمد التونجي** – أحلى الطرانف  
كتابنا للنشر، الطبعة الأولى 2007  
**محمد حسنين هيكل** – العروش والجيوش  
دار الشروق، الطبعة السابعة 2002  
**محمد رمزي** – القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين

- الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994  
**محمد سعيد مرسي** – عظماء الإسلام  
 مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، 2003  
**محمد صديق المنشاوي** – 100 قصة من حياة الشافعي  
 قطوف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007  
 د. **محمد عمارة** – الإسلام في عيون غربية  
 دار الشروق، الطبعة الثالثة 2008  
 د. **مصطفى السباعي** – عظماءنا في التاريخ  
 دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة 2009  
**مصطفى عوض**، **محمد أبو زهرة** – القصص الرمزي  
 مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2012  
**منصور عبد الحكيم** – السلطان سيف الدين قطز  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2011  
**منصور عبد الحكيم** – صلاح الدين المنقذ المنتظر  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2008  
**موسى بن راشد البهدل** – جوهرة النوادر  
 دار طويق للنشر، الطبعة الأولى 2003  
 د. **نديم السيار** – قدماء المصريين أول الموحدين  
 مطابع الأهرام، الطبعة الثانية 1996  
 د. **هاني حمزة** – مصر المملوكية: قراءة جديدة  
 دار العين للنشر، الطبعة الأولى 2012  
 د. **وسيم السيسى** – مصر التي لا تعرفونها  
 دار نهضة مصر، الطبعة الرابعة 2012  
**وليد ناصيف** – أشهر الأمثال العربية  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2007  
**وليد ناصيف**، **طه عبد الرؤوف** – الموسوعة الذهبية لأمثال الدنيا  
 دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى 2009  
**ياقوت الحموي** – معجم البلدان 15 جزءًا  
 دار نوبليس، الطبعة الأولى 2010  
**يوسف نجيم** – موسوعة المعارف الكبرى 30 جزءًا  
 دار نوبليس، الطبعة الثانية 2010

## الفهرس

6	إهداء
9	فضيلة الفضول (1)
13	قاف قاف (1)
17	حطوة يا بلدي (1)
21	لا للإحباط (1)
27	قالوا في الأمثال (1).....
43	عزيز و.. عبد العزيز (1)
50	قُلْ للمليحة في الخمار الأسود
53	مَنْ رأى منكم منكراً
62	من على فيسبوك
100	العز بن عبد السلام
111	فضيلة الفضول (2)
120	قاف قاف (2)
123	حطوة يا بلدي (2)
135	لا للإحباط (2)
138	قالوا في الأمثال (2)
146	عزيز و.. عبد العزيز (2)
162	السرقة المستحيلة
166	حمدي و.. شندي .....

173	ولم يمضِ الماضي
207	العياذ بالله
215	فضيلة الفضول (3)
223	قاف قاف (3)
226	حلو يا بلدي (3)
238	لا للإحباط (3)
243	مَن الذي لا يحب فاطمة؟
251	تطبيق القانون
267	Ya 3am Rooo7
279	فضيلة الفضول (4)
287	قاف قاف (4)
291	لا للإحباط (4)
294	وحوي يا وحوي
302	الله. الله.. الله... الله
309	قُرَّاء يا محسنين
315	المصادر

